القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • سبتمبر - أكتوبر 2013



الجراحة التجميلية بين الضرورة والعبث

- أرامكو السعودية وصناعة الإنسان
- القارة السمراء على مشارف الأمل
- الفنون المعاصرة في عالم يتداعى



العدد 5
المجلد 62



قافلة الأبحاث

تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بإجراء أبحاث ميدانية متعمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدِّمون أنفسهم. وتهدف هذه الخطوة إلى كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي، وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحافي.

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع، وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث، حسب سلَّم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكُتَّابها.

صورة الغلاف

يستوقفنا، يستفزّ قدرتنا على الحيادية والمنطق، نجد أنفسنا محكومين بسواده من طرق منقاره حتى ذيله. إنه الغراب، الطير ذو الحضور المتميز في ثقافات الشعوب وآدابها. ملف هذا العدد يسعى إلى الكشف عمَّا يمثِّل العلاقة ما بين هذا الطير وبني البشر.

صورة الغلاف: Corbis

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
محمد بن يحيى القحطاني

مدير عام دائرة الشؤون العامة
عصام زين العابدين توفيق

رئيس التحرير
محمد الدميني

نائب رئيس التحرير
محمد أبو المكارم

سكرتير التحرير
رحاب أبو زيد

مستشار التحرير
محمد العصيمي

تصميم
المحترف
al mohtaraf
www.mohtaraf.com

طباعة
شركة مطابع التريكي
e-mail: traiki@sahara.com.sa

ردمد ISSN 1319-0547
- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبِّر بالضرورة عن رأيها
- لا يجوز إعادة نشر أي من موضوعات أو صور «القافلة» إلا بإذن خطي من إدارة التحرير
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

سبتمبر - أكتوبر 2013
شوال - ذو القعدة 1434

قضايا 10–19

طاقة واقتصاد 20–33

بيئة وعلوم 34–48

الحياة اليومية 55–67

الثقافة والأدب 68–86

الملف 87–102

الفاصل المصوّر 49–54

توزع مجاناً للمشتركين
العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

الهواتف: فريق التحرير 0175 876 3 966+
الاشتراكات 0477 876 3 966+
فاكس 0303 876 3 966+

رسالة المحرر

قضايا **1**

تطرح «القافلة» في هذا العدد قضية الجراحة التجميلية التي قد تكون أكثر التخصصات الطبية إثارة للجدل. فمقابل إنجازات علمية كثيرة متلاحقة في هذا القطاع، تشكِّل صورة تبعث على الزهو بما صار بمقدور هذه الجراحة أن تحققه، ثمة أسئلة مربكة يكاد بعضها أن يأتي مصحوباً بالجواب المثير للحزن أو القلق. يستعرض الدكتور حذيفة الخراط وسجا العبدلي هنا بعض أوجه هذه القضية المتمثلة في النمو الهائل الذي طرأ على جراحة التجميل خلال السنوات الأخيرة، وما الذي يدفع الآلاف والملايين إلى وضع أنفسهم طوعاً تحت مبضع الجرَّاح الذي يتردد كثيرون في الخضوع إليه حتى في الحالات الطبية الحرجة؟

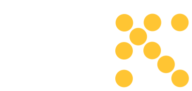


وفي باب «قول في مقال»، يناقش محمد العصيمي «التربص» باعتباره مفتاحاً للفتنة..!! وكيف أن (الكلمة) تكون سلاحاً من أسلحة التربص وناطقها أو كاتبها يعلن عن نفسه متربصاً بالآخر متى استدعى مخزونه من اللغة ليسفه هذا الآخر أو يسحله لفظياً لكي يشوهه شخصياً بعد أن يشوه فكره وأطروحاته التي تناجز ما لدى المتربص.

طاقة واقتصاد **2**

وفي مناخ الطاقة والاقتصاد هناك موضوعان. يناقش في الأول الباحث عبدالرحمن الخلف، من أرامكو السعودية أهمية اكتشافات الغاز التي عُثر عليه في القارة السمراء، واحتمالات مساهمتها في إحداث تحول شامل في الاقتصادات الضعيفة لهذه الدول، إلى جانب تسليط الضوء على الميزة التنافسية التي تختص بها هذه الاكتشافات بين المناطق المنتجة الأخرى في مختلف أنحاء العالم.

وفي الثاني يتناول الباحث أمين نجيب ثقافة المستهلك، وتحليل النزعة الاستهلاكية، وتكوينها الثقافي والاجتماعي. حيث أصبح الاستهلاك سمة الحياة العصرية، ومنذ أكثر من قرن من الزمان لم يعد الاستهلاك يقتصر على نطاق الضروريات، بل امتد ليشمل كثيراً من السلع الترفيهية، عبر عملية ترويج هائلة قلبت كثيراً من المفاهيم والقيم.



علوم وبيئة **3**

في محطة البيئة يتناول الدكتور خالد بن ناصر الرضيمان، قصة هجرة النخيل إلى الولايات المتحدة، ويُعدِّد عشرين سبباً لاهتمام الأمريكيين بالنخلة وثمارها، التي لم يعرفها العالم الجديد حتى ما قبل قرن ونصف القرن تقريباً، حيث قام باحثون أمريكيون بجلبها من الصحاري العربية ونقلها عبر البحار واستزراعها.

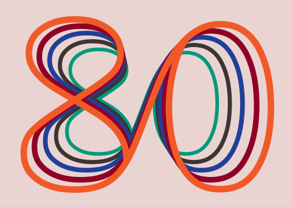
وفي محطة العلوم يلقي الباحثان عبده عبدالله عريشي ودرويش مصطفى الشافعي الضوء على ما أحدثه الضوء من تلوث ومساوئ على الإنسان وكذلك على عالمي الحيوان والنبات. بعد أن وضع هذا الاختراع اللبنة الأولى لنمو الحضارة الإنسانية، وجعل العالم يبدو أجمل وأروع.



الفاصل المصوَّر



في الفاصل المصوَّر سنطالع ملامح لموظف أرامكو، هذا الإنسان الذي جاء من أطراف الوطن شرقه وغربه، وشماله وجنوبه، ليصنع أسمى قيم العمل والمشاركة والبناء ويمهِّد لملحمة التفوق التي استمرت ثمانين عاماً، ولا تزال..





4 الحياة اليومية

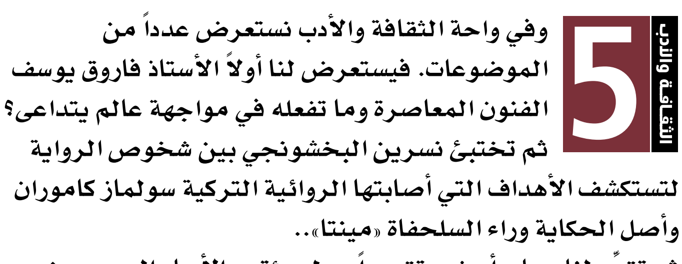
وفي محطة الحياة اليومية واستمراراً لاحتفائية شركة أرامكو هذا العام بمرور ثمانينية تأسيسها، نعرض رؤى ومشاهدات وذكريات عن بناء إنسان أرامكو. فيسترجع الأستاذ علي الدميني بعضاً من ذكرياته، يروي قصة حياة وطن من خلال التغلغل في داخل موظف أرامكو. أما الأستاذ محمد العباس ففي مقاله «ألبوم العائلة الأرامكوية» يستقرئ المسافة الشاسعة بين ما كان عليه حال ووعي ومزاج ذلك الفصيل من الذين التحقوا بالعمل في أرامكو، وبين ما صاروا عليه من مكانة وأناقة واحترافية.

5 الثقافة والأدب

وفي واحة الثقافة والأدب نستعرض عدداً من الموضوعات. فيستعرض لنا أولاً الأستاذ فاروق يوسف الفنون المعاصرة وما تفعله في مواجهة عالم يتداعى؟ ثم تختبئ نسرين البخشونجي بين شخوص الرواية لتستكشف الأهداف التي أصابتها الروائية التركية سولماز كاموران وأصل الحكاية وراء السلحفاة «مينتا»..

ثم تقدِّم لنا رحاب أبوزيد تقريراً حول مؤتمر الأدباء السعوديين الرابع الذي أقيم في الفترة ما بين 27 و29 أغسطس 2013م بعاصمة الثقافة الإسلامية للعام نفسه المدينة المنورة. وهل حقاً أن الأديب يختلق الصراعات ليكون أحد أطرافها، أم أن القائمين على الثقافة أحالوا المهمة إلى منسوبي السلك الأكاديمي لتأطيره بسياج العولمة.

وأخيراً يعرض لنا الباحث محمد البشير سيرة توفيق بكار المجددة في علم الأدب وكيف واءم بين صرامة المنهج وحس الناقد المبدع.





6 ملف العدد

وأخيراً في ملف هذا العدد، الغُراب، الطير ذو الحضور المتميز في ثقافات الشعوب وآدابها، حضور يطغى عليه في معظم الأحيان النفور الذي يصل إلى حدِّ الكراهية، والتشاؤم منه الذي يصل إلى حد استشعار الموت.. فيخوض جعفر حمزة غمار هذه التجربة، ساعياً إلى الكشف عمَّا يمثِّل العلاقة ما بين هذا الطير وبني البشر الذين يميلون إلى إسقاط كثير من ضعفهم على ما حولهم من جماد وحيوان وطير، ويبدو أن الغُراب قد أخذ نصيباً وافراً من ذلك.



الرحلة معاً

كيف يحمي المجتمع نفسه من آثار العنف

في إحدى أمسيات هذا الصيف الذي يشارف على الرحيل، كنت بصحبة عائلتي نحاول تبديد الرطوبة الشاملة في مجمع « السيتي سنتر» بالبحرين. قادتنا خطواتنا المعتادة إلى الطابق الثالث حيث قاعات السينما وحيث يحتشد المئات من الشباب والشابات ليختاروا أفلامهم المفضّلة.

شخصياً لا أجد في مرابض السينما في البحرين ودبي ضالتي من الأفلام الجادة، لكنني أضطر إلى قبول أي فلم تنبعث منه بعض الجدّية أو علاماتها. هذه المرةَ لم أعثر على خشبة تحملني إلى أي فِلم، فالأفلام كلها تقع تحت تصنيف: إثارة أو مغامرات أو عنف، إنها أفلام الأكشن والعنف التي تمحق رغباتي وعليّ أن أختار أو أغادر.

في المقهى البعيد الذي لجأت إليه، رحت أحدق في الصور التي يفيض بها الكتيّب، ألوان من لحظات العنف والتفجير والتدمير متخيّلاً تلك العقول الغضة التي لا يتجاوز بعضها العاشرة التي ستخضع لساعتين متواصلتين لذلك الدرس القاسي من الرعب والإثارة والدم بذريعة الترفيه والتسلية وقضاء الوقت السعيد ..!.

ليست هذه سوى إحدى حالات تسلل العنف إلى عقولنا ونفوسنا وسلوكنا، ولها تأثيراتها المؤكدة على طباعهم وأنماط حياتهم، لكنني رحت أفكِّر في العنف الراسخ في بيوتنا وشوارعنا ومدارسنا وفي ضرورة النظر إليه كأزمة اجتماعية كادت أن تقودنا إلى المهالك.

كل صحفنا وصفحاتنا الإنترنتية أصبحت تخصِّص مساحات منتظمة لسرد قصص العنف والقسوة التي تقع في مناطق المملكة بلا استثناء، وهي قصص لا يسلم منها أحد فهناك عنف بأشكال عديدة يوجهه الأزواج ضد الزوجات، وعنف آخر يوجهه الآباء ضد الأبناء وخاصة الأطفال، وعنف يوجهه الأبناء ضد أخواتهم، وعنف ضد كبار السن، وعنف آخر يشنّه الأبناء والبنات على الوالدين، وهناك قسوة مجتمعة أحياناً تجاه عمال المنازل، وآخر معاكس يشنه أولئك العمال تجاه العائلة، على الجانب الآخر يوجد عنف يمارسه الطلاب تجاه معلميهم، وعنف في مواقع العمل، وعنف في قيادة المركبات بحيث أجزم أن نسب الفجائع المرورية التي وضعتنا ضمن الأكثر سوءاً بين دول العالم، ترتبط بذلك السلوك العنفي الذي يتمتع به، مع الأسف، أكثريتنا بما فينا سائقونا.

لا يمكن إحصاء القصص التي ينتهي بعضها بالموت، وبعضها بالمستشفيات، وبعضها بعاهات، إن لم تكن جسدية فهي نفسية وعصبية وسلوكية وأخلاقية.

كل العنف مرفوض ومنبوذ، لكن أبشعه هو ذلك الموجَّه نحو المرأة والطفل، فالمرأة (أماً وزوجة وأختاً) المعنَّفة



التي تُنهب حقوقها، ويتعرَّض كيانها النفسي إلى الخطر، وتُلقى على كاهلها مسؤولية تربوية رفيعة، كصناعة الأجيال لن تكون قادرة على الوفاء بتلك المهمة السامية، إن لم تمتلك إرادتها وتمارس كينونتها. أيضاً فإن الطفل الذي تُهدر مواهبه ويتعرَّض لأنواع من الإذلال والقمع والتهديد لن ينشأ سوياً قادراً على البناء والعطاء، بل سيكون محملاً بندوب مؤلمة وغائرة في روحه وعقله، لن يبرأ منها في كل مراحل عمره، وربما أثرت على علاقته بمجتمعه وبانتمائه إليه وبحمايته عندما يتعرَّض لساعات الخطر.

والحقيقة أن رذاذ العنف ينطلق علينا من كل الجهات، فهو قد يتسلل إلى منازلنا وحياتنا بخفية دون أن نملك أية وسيلة لصدّه، كما أنه ينتشر بين فئات المجتمع العليا والدنيا على السواء، لكن تفاعله لدى الفئات المهمشة في المجتمع أكثر ضرراً فهو يتحوّل إلى ألوان من العنف الجسدي ويتخذ أشكالاً كالجريمة والبطالة والتصدع الأسري وانتشار المخدرات والانحراف الأخلاقي، وهكذا فإن تهديد الإنسان أو إهدار طاقاته أو استباحة مستقبله سيحوِّله إلى كائن مهمَّش يعود منتقماً ومهدداً لأمن المجتمع ومناعته.

ولأن صد فيروسات العنف القادمة من خارج المحيط الاجتماعي أو من داخله مستحيلة، فإن أول خطوة في محاربة أية ظاهرة هي الاعتراف بها، وهكذا لقي قرار مجلس الوزراء، القاضي بتجريم العنف الأسري، ومنع كل أشكال الاستغلال أو إساءة المعاملة الجسدية أو النفسية أو الجنسية التي يمكن أن يرتكبها شخص بما له عليه من ولاية أو سُلطة أو مسؤولية، أو بسبب ما يربطهما من علاقة أسرية أو علاقة إعالة أو كفالة أو وصاية أو تبعية معيشية، ترحيباً اجتماعياً واسعاً فيما ينتظر الناس تفعيل كامل لحيثيات ذلك القانون ونشرها ودعمها بالكفاءات المؤهلة ومنحها الأطر الضامنة لنجاحها.

نعترف بأن ذلك القانون هو أول المصدات التي يمكنها تخفيف آثار العنف على الأفراد والمجتمع بأسره، لكنه لن يحقق أثره الكامل دون أن تسانده ثلاثة كيانات: أولها الكيان الأسري، فعلى الرغم من التحديات المعرفية والعلمية والتأهيلية التي تعصف بهذا الكيان، وتؤثر على خارطة سُلطته التقليدية، فلا يزال هو السفينة القادرة على امتصاص صدمات العنف، بل ومجابهة بعض الفئات التي تحاول تسويقه.

أما المصد الثاني فهو: المؤسسة التعليمية بكل مراحلها، فهذه القاعدة يمكنها تحصين طاقة المجتمع البشرية من مظاهر العنف الشخصي والاجتماعي للفرد، والإسهام في بنائه النفسي المتزن، وإعداده للعيش والتعاون والتشارك مع الآخر، لكن هذا الكيان الاستراتيجي أيضاً بحاجة إلى نهوض يشمل إعادة تشكيل المُعلِّم وتعميق مدخلاته المعرفية، وتوسيع مساحة رؤيته، كما هي الحاجة قائمة إلى خوض رحلة تجديدية لمناهجنا وأدواتنا التعليمية وأساليبنا التربوية، لتتمكن من بناء جيل جديد قادرعلى الانتساب إلى ثقافات العالم وعلومه ومعارفه، وأن تتجاوز المدارس وظيفتها التقليدية في رعاية المناهج وحفظها لتتحوَّل إلى بيئة تعليمية وتربوية تنمي مواهب التفكير والابتكار وتؤسس للمثل والأخلاق وفضائل التسامح والحوار واكتساب صفات المجتمع المدني.

والمصد الثالث هو: المؤسسات الاجتماعية والنفسية والسلوكية. وإذا كانت هذه المؤسسات قد عاشت دهراً في هامش المجتمع وعلى هامش الاهتمام العام، فإن هناك حاجة ماسة اليوم إلى دعم برامجها وتوسيع فروع أعمالها ومدّها بالكوادر المهنية المؤهلة وضخ الميزانية المناسبة لها، بحيث لا تقتصر أوجه نشاطها على المعالجة السطحية للمشكلات الاجتماعية، ولكن أن تضع الخطط لتطويق أسباب تلك المشكلات وأن تكون لها سُلطة رادعة حين تؤدي مهماتها.

واختصاراً، فإن العنف لا يمكن تخفيف آثاره على محيطنا الاجتماعي سوى بمزيد من التعاضد بين الأسر ومؤسساتنا التعليمية والاجتماعية، وبناء برامج عملية مشتركة وفعالة تقود إلى السلامة الاجتماعية المنشودة.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلّب الأمر ذلك.



لغة الشباب تطوراً وتدهوراً

السيد رئيس التحرير، تحية طيبة. أعمل رئيسة لقسم التربية وعلم النفس في كلية التربية في الجبيل بجامعة الدمام، وأفيدكم علمًا بأنني بصدد إجراء دراسة حول لغة الشباب وأثرها على الهوية الثقافية، وقد وجدت خلال البحث مادة علمية جديرة بالدراسة التي أعمل عليها وهي بحث منشور في مجلتكم الغراء بعنوان: «لغة الشباب العربية بين التطور والتدهور» شارك فيه ابتسام محمد وأمينة خيري وزياد سحاب، ونشر في عدد أبريل- ربيع الآخر 2008م. لذا فإنني أرغب في الحصول على ذلك العدد والاشتراك في مجلتكم لما فيها من دراسات قيِّمة على العنوان المرفق لكم.

د. منى الرميح

محافظة الجبيل- المنطقة الشرقية

القافلة: تم إرسال العدد المطلوب بصيغة «بي. دي .إف» على عنوان بريدك الإلكتروني، كما تمت إضافة عنوانك إلى قائمة المشتركين حتى تصلك المجلة تباعاً، مع أمنياتنا الصادقة لكِ بالتوفيق والسداد.

عتب وسؤال

في البداية أود أن أشكركم على الجهد الكبير الذي تبذلونه في تقديم هذه المجلة المتميزة، وما تحمله من موضوعات شائقة وجميلة. كما أود أن أحيطكم علماً بأنني أكملت السنة دون أن تصلني الأعداد الأخيرة من مجلتكم! ولا أعلم ما السبب!؟ آمل منكم إبلاغي سبب الانقطاع شاكرًا لكم تجاوبكم.

عبدالملك الصالح

مهندس معماري- الرياض

القافلة: يؤسفنا عدم وصول الأعداد بانتظام إليك ونعتذر عن ذلك، وسوف نبحث المشكلة مع قسم التوزيع لدينا، لكننا نرجو مراجعة قسم البريد في منطقتك لمعرفة ما إذا كانت هناك مشكلات من جهتهم والمساعدة في حلها.

إعادة العلاقات

ظللت أتابع مجلتكم العامرة لمدة عقد من الزمان، عندما كنت أعمل في المنطقة الشرقية، وانقطعت عنها بعد انتقالي إلى مدينة جدة. أرجو أن يتم إشراكي في المجلة تحت العنوان المرسل ولكم جزيل الشكر.

د/ يحيى حمد أحمد

مصنع المحاليل الطبية- جدة

القافلة: أهلاً بك مجدداً، وسنتابع تغيير العنوان مع قسم الاشتراكات، وافر التحيَّات.

اشتراك جديد.. قديم

تُعدّ أرامكو شركة رائدة في مجال الصناعة وذائعة الصيت في أصقاع العالم، لما لها من سُمعة مميزة، أما في المجال الثقافي فلا أعلم عن نشاطها سوى مجلة «القافلة»، المجلة الثقافية التي تُعد بحق ذات مستوى راق، وتشتمل على مجموعة من الأبواب الأدبية والعلمية والتاريخية والجغرافية. وأشير إلى أن لي أحد الأصدقاء الذين تصلهم المجلة غرة كل شهرين، فأستعيرها منه حيناً لأتصفَّح أبوابها وأفتقدها أحياناً طويلة. لذا ارتأيت مخاطبتكم لتزويدي بـ«القافلة» عند كل شهر، خاصة لكوني أنتمي إلى أسرة التربية والتعليم، فأنا أستاذ في المرحلة الابتدائية. فآمل تحقيق طلبي ولكم جزيل الشكر.

بياز عبدالرزاق

ولاية الجلفة- الجزائر

القافلة: يسعدنا انضمامك لقافلة القرّاء والمشتركين الأعزاء، وسيحال طلبك إلى قسم الاشتراكات لتصلك المجلة -بإذن الله- بدءاً من العدد القادم.

جهد متميز

تلقيت ببالغ الشكر والتقدير نسخة من أعداد مجلة «القافلة» للعامين 2011 و2012م، وقد اطلعت عليها وسرني الجهد المبذول فيها، وذلك لما اشتملت عليه من تميز في الموضوعات، وجودة في الطرح، وحسن في الإخراج، وإذ أشكر لكم هذا الجهد المتميز الذي تأخذون فيه على عاتقكم أمانة نشر العلم، وإشاعة المعرفة، فإنني أسأل الله لكم التوفيق والسداد فيما تقومون من عمل. كما ألتمس من سعادتكم تزويدي بمزيد من أعداد المجلة لضمها إلى مكتبتي الخاصة إيماناً مني بأهمية ما تحمله هذه المجلة من مضامين جادة ومعلومات ثرية كنت -ولا أزال- أستفيد منها، شكراً لكم تعاونكم سلفاً.

د. خالد بن عبدالرحمن الحمودي

القصيم، مدير جامعة القصيم

القافلة: نشكرك على مشاعرك الفياضة، ونرحب بك بين قراء القافلة المتميزين، وقد تأكدنا من إضافة عنوانك لقائمة المشتركين، وستصلك أعداد القافلة تباعاً حسب صدورها -بإذن الله-.

القافلة.. وجبة دسمة!

نشيد بجهودكم المميَّزة وقدرات طاقم التحرير لمجلتنا العريقة منذ سنوات انطلاقها باسم (قافلة الزيت) واستمرار هذا الإبداع عبر (القافلة) حتى تاريخه، التي تقدِّم وجبات دسمة في المعرفة والفكر والثقافة المتنوعة من أجل إمتاع القرَّاء وإشباع رغباتهم في داخل الوطن العربي وخارجه. ولهذا نتمنى لكم مزيداً من التوفيق والتطور عاماً بعد عام. وسأكون لكم شاكراً إضافة اسمي إلى قائمة المشتركين وتزويدي بنسخة من المجلة على العنوان المرفق لكم.

عدنان علي

البنك العربي الوطني- الخبر

القافلة: نشكر لك كلماتك المشجِّعة وسيتم تحويل طلبك إلى قسم الاشتراكات لتصلك المجلة تباعاً.

رسالة أو مقال

نافذة جديدة في بريد «القافلة» لكتابات قصيرة تناقش موضوعات طرحتها المجلة أو لقرَّاء يعرضون أفكارهم الجديدة.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

جيران المدينة

أتقنت الكاتبة عبير الفوزان اختيار عنوان مقالتها الشائقة وأعادتنا في رحلة عبر الزمن إلى ذكريات العلاقة مع الجار وكيف أصبح جزءاً من الماضي القديم. عبّرت عن ذلك بعدد من المحاور كمحور طلاق الجار من العصر العباسي، وأدخلت روح الدعابة على قرائها، وجاء حديثها عن اختفاء الشفافية واقعياً وجريئاً، ثم محور جيران المدينة حيث عرضت أبرز سماتهم، وانتهت إلى محور جدران زمن التقنية وعبرت خلاله عن سمات العصر الحالي.

وأحسنت الفوزان ترتيب جملها، فلم تسبق الحاضر بالماضي، وأوضحت أن هناك تراتبيات بين الزمان الماضي والحاضر للجار، ودعمت مقالها بتفاصيل تاريخية من قصص حدثت في العصر العباسي ما يدلل على سعة قراءتها ومدى التصاقها بموضوع مقالها.

واستخدمت بعض المصطلحات العلمية مثل: استدلالها بالمد الديموغرافي والأفقي الذي يحدث في مجتمعاتنا اليوم، وأكدت على العلاقة بين شكل الجوار وإعمار المدن واتساعها واكتظاظها على نوعية الجار. كما مزجت بين آرائها الشخصية والحقائق الموضوعية وأبرزت أهم التبدلات والتحولات التي مرت بعلاقة الجار بجيرانه.

واتضحت في المقالة تسلسل أفكارها المنطقية واستخدامها للغة واضحة غلب عليها الطابع الاجتماعي فلا خلاف في كونها مقالة اجتماعية ذات طابع



تاريخي. وقد تمنيت لو تضمن هذا المقال بعض الأرقام والإحصاءات التي تنسجم مع طبيعة الموضوع، وما لفت انتباهي بشكل عام هو موضوعيتها ومطابقتها للواقع، فهي منطقية واقعية، فالكاتبة عبير الفوزان لا تدعي أنها من تلامذة أفلاطون ولا من سكان مدينته الفاضلة.

لقد عمقت هذه المقالة إدراكي للآثار التي تترتب على العلاقة بالجار، كما بسطت لي وظيفة الجار في كل زمن وأوضحت أثر التقنية على الجيرة ومدى تأثر العلاقة بين الجيران بالمستوى الاقتصادي الذي يعيشونه.

هند إبراهيم القحطاني
الرياض

تعقيباً على مقالة «الجار.. القريب القديم» من عدد يوليو – أغسطس 2013م



سافروا إلى كوكب آخر

المتتبع الحصيف لحراك التيارات الفكرية في مجتمعنا، يدرك بسهولة أن أفكار كل تيار تتمحور غالباً حول أطر متقاربة تتمثل في رغبة ملحّة للتأثير على المجتمع، وتعكس شعوراً متزايداً باحتكار الحقيقة والوصاية على الناس، وأنا هنا لا أعني تياراً فكرياً بعينه، ولست بصدد التهجم على تيار ما، كما أنني لست مجبراً على تسمية التيارات الفكرية المتصارعة في مجتمعنا اليوم فهي أصبحت معروفة لمعظم فئات المجتمع.

وأنا هنا لا أتحدث عن تيار يمثل السواد الأعظم من المجتمع، ولا يعترف به أدعياء التيارات الفكرية الأخرى في مجتمعنا في الوقت الحالي، فهذا التيار بالنسبة لتلك التيارات يمثل رأي العامة أو الدهماء كما يطلقون عليه، أو لنقول رأي الشارع كما يسميه البعض، تيار ينتهج الاعتدال والوسطية في أطروحاته وتوجهاته، تيار تبناه أجدادنا من قبلنا فعاشوا في ظله وماتوا عليه، تيار يستطيع التكيف مع مستجدات العصر وتغير الأزمنة والظروف، لأنه يملك بنية تحتية رصينة هي في الواقع فطرته الصافية التي لم يدنسها تغريب أو ترهيب، سموه إن شئتم «التيار الوسطي» أو «المعتدل» أو «العاميّ» أو حتى «الفطري». وما أريد إيصاله في هذه الكلمات يتلخص في رسالة بريئة لكم أنتم يا من تمثلون هذه التيارات المستوردة، فأرجوكم إرحمونا من أفكاركم وإملائها علينا.. دعونا نعيش كما نريد نحن لا كما تريدون أنتم .. دعونا نعيش على فطرتنا التي فطرنا الله عليها ونلقى وجه ربنا عليها.

لا تتقمصوا دور الوصيّ علينا فتفكرون وتتحدثون بالنيابة عنا، لقد صنعتم منا جيلاً متناقضاً تتناهبه الأفكار، جيلاً متردداً لكثرة ما يملى عليه من مفاهيم وتوجهات. أرجوكم سافروا إلى كوكب آخر، بعيداً عنا لعلّكم تجدون عليه مخلوقات لا تحبّ الحياة، ولا يهمها مستقبلها ومستقبل أبنائها، ولا يعنيها أن تعيش بسلام. أما نحن فنريد أن نعيش على بساطتنا وفطرتنا ونطلب أن نموت عليها.

ياسر محمد الشهري
الرياض



حول

التحديات النوعية في تعليم الكبار بالمنطقة العربية

هناك قدر مشترك من التحديات والصعوبات التي تعرقل نجاح برامج محو الأمية وتعليم الكبار على مستوى الوطن العربي، وهذه التحديات كانت، ولاتزال، تمثل قلقاً بحثياً متجدداً للباحثين في هذا الميدان، حين يشعرون بأن جهودهم على مدى عقود طويلة لا تزال تتخبط من غير تأثير فعَّال في الحد من تلك التحديات والمعوقات ومن أهمها:

- عدم توافر إحصاءات دقيقة تحدِّد مَنْ هم الأميون وتوزيعاتهم طبقاً للعمر الزمني / النوع / مناطق الإقامة / نوع العمل / طبيعة النشاط الاقتصادي / ... الخ.
- ضخامة حجم الفئة المستهدفة والتنوع الهائل في تخصصاتهم.
- نقص وجود أساليب مبتكرة للتعامل مع القضية على مستوى الوطن العربي كله والتقليد في الأداء.
- عدم الاستيعاب الكامل لمن هم فى سن الإلزام، مع الزيادة المطردة في عدد السكان، مما يزيد الضغط والطلب على الموارد الطبيعية والاستهلاكية.
- ارتفاع معدلات التسرب من التعليم لانخفاض جودة التعليم إلى جانب الفقر الموقع.
- كم المعرفة الهائل وما يترتب عليها من تقدم تكنولوجي واسع وسريع الأمر الذي يتطلب إعداد جيل يستطيع التعامل مع التقنيات الحديثة معتمداً على الذكاء الصناعي.
- محدودية الموارد المالية المتاحة لدعم منظومة التعليم في ظل الظروف الراهنة للتنمية في الوقت الحالي، وفي المستقبل القريب.
- الأثر السلبي الناجم عن بطالة المتعلمين وانخفاض قيمة التعلم في تحقيق الحراك الاجتماعي.
- ضعف مستوى المعلمين وعدم الإقبال على العمل مع الكبار في غياب نظام للمحاسبين.

آليات مقترحة لتحسين تعليم الكبار في الوطن العربي

1. تأكيد الأهداف التنموية للتعليم:
- مشاركة مجتمعية كاملة وإرادة سياسية قوية وداعمة.
- توظيف الدعم الدولي والخارجي للجهود في هذا المجال.
- توظيف البعد الديني (التوجه العالي لفعل الخير) نحو زيادة الدافعية للتعلم عند الفئات المستهدفة.

2. تنوع صيغ التعلم المستمر:

لم تعد المدرسة هي المصدر الرئيس للمعرفة والتعلم، فالتعلم بكافة أشكاله ومضامينه عملية مستمرة مدى حياة الإنسان:
- حدوث ثورة في المناهج التعليمية لمواكبة المستجدات المجتمعية.
- استخدام استراتيجيات التدريب الفعالة كالتعلم الذاتي / النشط / التعاوني / التعلم عن طريق الأقران / عن طريق حل المشكلات / المجموعات الصغيرة والكبيرة لتنمية الإبداع لدى المتعلم.
- استحداث آليات جديدة للمتابعة وتقييم البرامج والرصد.
- إنشاء مراكز (بيوت للخبرة) لتقديم المشورة الفنية للجهات والهيئات المعنية بتعليم الكبار.
- إجراء البحوث والدراسات العلمية في مجال محو الأمية وتعليم الكبار وربطها بمجالات التنمية لحل المشكلات، مع التركيز على المرأة العربية والمجتمعات الفقيرة والمهمشة.
- حملة إعلانية وتسويقية مباشرة تشارك فيها كافة رموز المجتمع، ويتواكب معها برامج غير مباشرة (دراما لزيادة الدافعية).

3. تنويع مصادر تمويل التعليم:
- تشجيع المبادرات الشعبية والجهود الذاتية للمشاركة في تمويل تعليم الكبار عن طريق الهيئات والمنح وعمل صندوق لجميع التبرعات.
- إنشاء صندوق عربي لدعم التعليم يسهم فيه كافة الأقطار العربية يتلقى المساعدات الخارجية والدعم من المنظمات والهيئات العالمية ويخضع للمحاسبية ويلتزم بالشفافية.

4. إنشاء مركز إقليمي للتدريب المهني:
- يهدف إلى تعليم وتدريب الفئات المستهدفة مهنًا متنوعة تناسب متطلبات سوق العمل لإيجاد فرص عمل مناسبة لحل مشكلة البطالة، وإعداد قوى بشرية ماهرة تسهم في عمليات التنمية مع تحقيق التعاون مع وبين المؤسسات المالية والجهات المانحة.

5. الاهتمام بمرحلة ما بعد محو الأمية:
- هذه المرحلة مكون أساس في برامج تعليم الكبار، مع ضرورة التركيز على تقديم برامج التوعية والتثقيف المتنوعة مستهدفة تحقيق وضمان دمج تلك الفئات في المجتمع كعناصر فاعلة.
- إنتاج مواد تعليمية مدمجة باستخدام الوسائط المتعددة (توظيف التكنولوجيا الحديثة في تعليم الكبار).
- إدخال نظام التعلم عن بُعد / التعليم الذاتي / التعلم النشط في مجال تعليم الكبار.
- برامج خاصة لصغار السن متضمنة نشاطات ترفيهية ومرتبطة باستخدام الكمبيوتر لجذبهم للتعلم ومساعدتهم للدمج في التعليم.

ومن ثم علينا جميعاً مجابهة هذه القضية في إطار وطني إقليمي، وإعادة النظر في منظومة التعليم بصفة عامة ومحو الأمية وتعليم الكبار بصفة خاصة، من خلال العمل على المحاور السابقة في إطار من الدعم السياسى في كل قطر عربي.

أ.د. مصطفى رجب
رئيس الهيئة العامة لتعليم الكبار في مصر
كاتب وأستاذ جامعي

قافلة النشر





ما تبقى من رحلة ابن حَمُّوَيْه
د. نجاة المريني
مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية / دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع



اللغة والهوية في الوطن العربي
مجموعة مؤلفين
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات



التحدي الكبير.. المواجهة بين العلم والخرافة
حسن الخاطر
أطياف للنشر والتوزيع



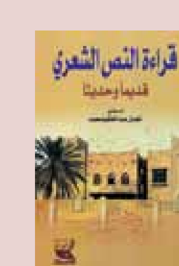
ما الذي تتمناه لأطفالك فعلاً
وين داير
ترجمة: داود سليمان القرنة
مكتبة العبيكان



الرأسمالية وأنماط الهيمنة الجديدة
محمد فرج
المؤسسة العربية للدراسات والنشر



مسائل في نظرية الأعداد
د. إبراهيم الرصاصي
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن - العبيكان



قراءة النص الشعري قديماً وحديثاً
د. شعبان عبدالحكيم محمد
الوراق للنشر والتوزيع



عروبة الجذور وفلسطين
ضرار هلال ديرية
الوراق للنشر والتوزيع



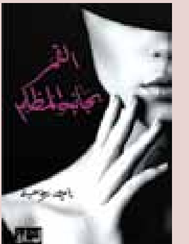
في اتساع الأفق - المشهد الثقافي البحريني
فهد حسين
بالتعاون مع شركة عبدالرحمن كانو



بيضة على الشاطئ
شريف صالح
جائزة دبي للإبداع



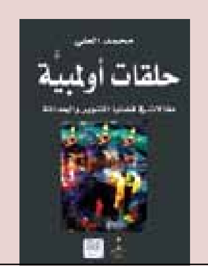
سراديب
حسن العلوي
دار فراديس للنشر والتوزيع



القمر بجانبه المظلم
ياسين رفاعية
دار الساقي



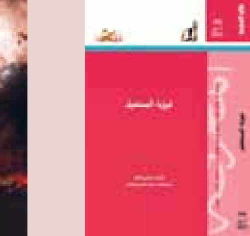
يجلس عارياً أمام سكايب
أحمد العلي
طوى للنشر والتوزيع



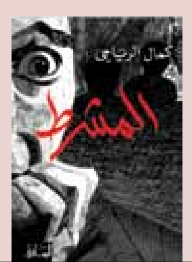
حلقات أولمبية
محمد العلي
مدارك




فيزياء المستحيل
ميشيو كاكو - ترجمة: د. سعد الدين خرفان
عالم المعرفة




الربيع الأسود
عبدالعزيز خليل المطوع
المؤسسة العربية للدراسات والنشر



المشرط
كمال الرياحي
دار الساقي



الظل الأليف
جمال الخيّاط
المؤسسة العربية للدراسات والنشر



تهذيب الدر المنظوم
أبو عبدالله سالم بوجمعة التواتي
الميراث النبوي للنشر والتوزيع



الثمرات الحلية في شرح نظم الآجُرُّوميَّة
محمد وفيق الونشريسي
الميراث النبوي للنشر والتوزيع

امرأة لا تعرف البكاء
نوال الحوطة
دار الوسط للنشر

التائهون
أمين معلوف
الفارابي



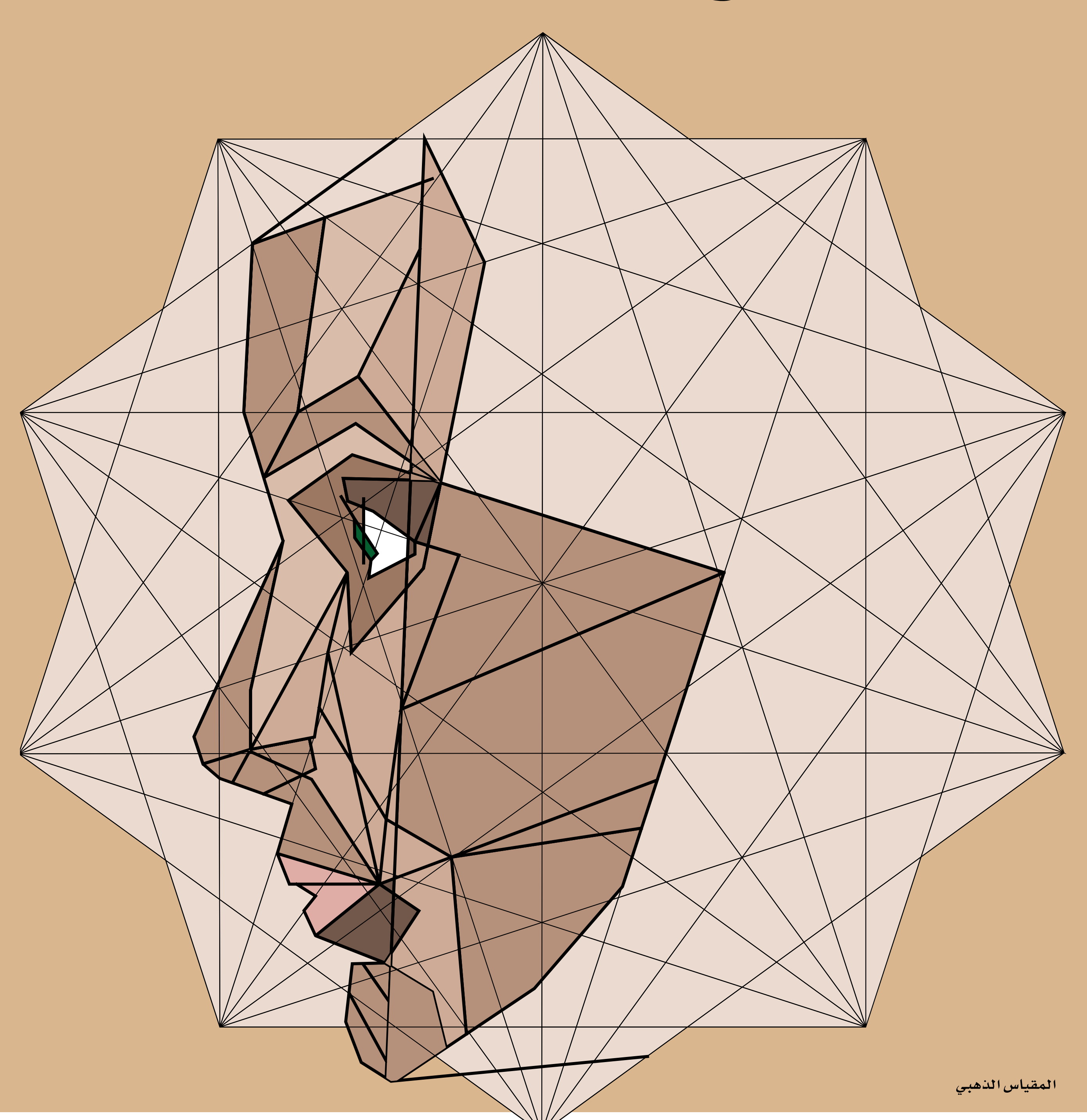
الحرية والمسؤولية
أ. د. أسعد السحمراني
دار النفائس




السياق والأنساق
محمد عبدالكريم الحميدي
دار النفائس

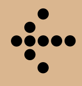
قضيتها ثقافية واجتماعية وأخلاقية

الجراحة التجميلية بين الضرورة والعبث



المقياس الذهبي

Illustration: Almohtaraf Alsaudi, Aya Albawwab, Sara Abu Alhoson



من بين كل الاختصاصات الطبية قد تكون الجراحة التجميلية هي الأكثر إثارة للجدل. فمقابل إنجازات علمية كثيرة متلاحقة في هذا القطاع، تشكِّل صورة تبعث على الزهو بما صار بمقدور هذه الجراحة أن تحققه، ثمة أسئلة مربكة يكاد بعضها أن يأتي مصحوباً بالجواب المثير للحزن أو القلق.

الدكتور حذيفة الخراط وسجا العبدلي يستعرضان هنا بعض أوجه هذه القضية المتمثلة في النمو الهائل الذي طرأ على جراحة التجميل خلال السنوات الأخيرة، والمصحوب في الوقت نفسه بتفاعل اجتماعي يكاد أن يتفلت من كل الضوابط، بحيث باتت جراحة التجميل طقساً عالمياً، أكثر مما هي ضرورة كما نفهم من عبارة «جراحة». فما الذي يدفع بالآلاف والملايين إلى وضع أنفسهم طوعاً تحت مبضع الجرَّاح الذي يتردد كثيرون في الخضوع إليه حتى في الحالات الطبية الحرجة؟



ما بين تعريف القاموس لجراحة التجميل من جهة، وصورة هذا الاختصاص العلمي في وجدان العامة، ثمة مسافة كبيرة تكاد أن تضع المفهومين موضع التناقض.

فالقاموس يقول لنا إن جراحة التجميل هي فرع من الجراحات يهدف إلى استعادة التناسق والتوازن والوظيفة لجزء من أجزاء الجسم الخارجية، لإزالة عيب قد يكون ولادياً أو نتيجة إصابة ما، ويقاس نجاحها بمقدار استعادة ما فُقد من مقاييس الجمال في الجزء المصاب. أما في الوجدان العام، فثمة ما حصل خلال العِقدين الماضيين على مستوى العالم بأسره، ورسم صورة مختزلة لجراحة التجميل على أنها أولاً وقبل كل شيء مكافحة آثار التقدم في السن، و«تجميل» القوام أو الوجه وفق مقاييس محددة.

وعلى الرغم من أن صورة جراحة التجميل في الوجدان العام قابلة للتفسير بطبيعة المناسبات التي يتم فيها تناول هذا الاختصاص الطبي في أحاديثنا اليومية، فإن هذه الصورة تكاد أن تجافي الواقع.

فجراحة التجميل علم واسع وعريق، ومجالاته التطبيقية كثيرة، ومعظمها أخطر من «معالجة مظاهر التقدم في السن». فجرَّاح التجميل مثلاً هو المعالج الرئيس لحالات الإصابة بالحروق بأنواعها ودرجاتها المختلفة، سواء تلك الناجمة عن التعرض للنار أو السوائل الساخنة أو المواد الكيميائية. ولجرَّاح التجميل دور رئيس في معالجة ضحايا الحوادث، وخاصة تلك التي يصاب فيها الجلد إصابة بالغة تستدعي تعويض ما فُقد منه، من خلال تقنيات جراحية متطورة ومعقَّدة تقوم على نقل شرائح من الجلد السليم

وزرعها في المكان المصاب. وتناط بجراحة التجميل أيضاً معالجة معظم حالات الأورام التي تظهر على جلد الإنسان، بنوعيها الحميد والخبيث. وثمة طرق عديدة لاستئصال هذه الأورام جراحياً، ليتم بعدها التعامل مع الأنسجة المصابة بالطريقة المناسبة.

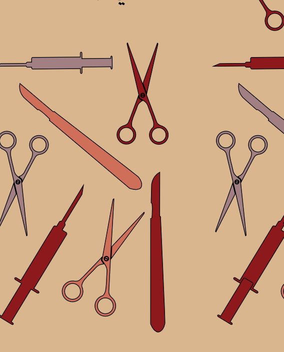
ومن الجوانب التي يعرفها كثيرون عن جراحة التجميل، هو دورها في معالجة ما قد يظهر على الجسم من تشوهات خلال مراحل العمر المختلفة، بدءاً بالتشوهات التي قد تكون ولادية، أي لوحظت على جسم المولود فور ولادته مثل حالات شفة الأرنب (المشقوقة) وسقف الحلق المشقوق، وتشوهات الأصابع أو الأذنين وما شابه ذلك.. ولكن هذا الجانب من مهمات الجراحة التجميلية ليس هو ما حوَّلها إلى قضية عالمية في يومنا الحاضر وصناعة عملاقة تدر على المستفيدين منها مليارات الدولارات، وتتسبب في الوقت نفسه باضطرابات نفسية واجتماعية يكاد العالم أن يقف أمامها موقف المتفرج مكتوف اليدين.

نمو مثير للعمليات الجراحية في أمريكا أيضاً

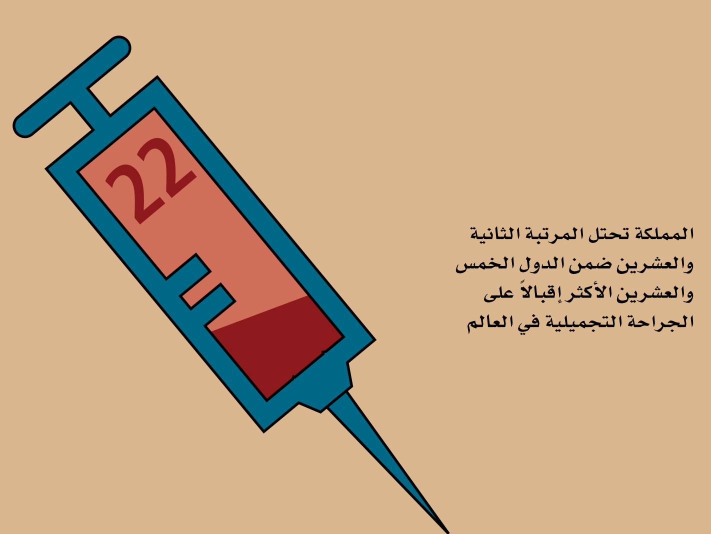
ما بين العامين 1995 و2005م، تضاعف حجم جراحة التجميل في أمريكا 700% استناداً إلى مصادر وزارة الصحة الأمريكية.. أما في السعودية، فصارت المملكة تحتل المرتبة الثانية والعشرين ضمن الدول الخمس والعشرين الأكثر إقبالاً على الجراحة التجميلية في العالم.

وللتأكيد على أن هذا النمو لا يعود إلى تكاثر الحالات الخطرة التي تستدعي تدخل جرَّاحي التجميل مثل حوادث السير أو الحرق أو التشوهات الولادية، نشير إلى حجم الإقبال عليها في دولة ذات تعداد سكاني صغير نسبياً كدولة الإمارات مثلاً، حيث قام أكثر من 30 ألف شخص بإجراء جراحات تجميلية خلال عام واحد، وفي دبي وحدها..

ولعلَّ أكثر ما يعبِّر عن «ازدهار» هذه الصناعة، هو ما حصل في لبنان، حيث استيقظ الناس ذات صباح لتطالعهم



تضاعف حجم جراحة التجميل في أمريكا 700% بين العامين 1995 و2005م



المملكة تحتل المرتبة الثانية والعشرين ضمن الدول الخمس والعشرين الأكثر إقبالاً على الجراحة التجميلية في العالم

لوحات إعلانية ضخمة في الشوارع، يعرض من خلالها بعض المصارف تقديم نوع جديد من القروض تحت اسم «قرض التجميل»، وحملت أكثر من ألف لوحة انتشرت في البلاد صورة فتاة من الواضح أنها خضعت لعمليات تجميل عديدة..

لاقت هذه الإعلانات استحسان كثيرين، حتى أن القائمين على المصرف يقولون إنهم كانوا يتلقون يومياً مائتي اتصال هاتفي للاستفسار عن شروط هذا القرض!؟ وإن المصرف وافق في الأسبوع الأول على عشر طلبات فقط منها.

ويقول الجرَّاح الدكتور نزار شهاب إن عمليات التجميل الأكثر رواجاً في لبنان هي شفط الدهون، وشد بشرة الوجه وتجميل العيون.. أي مما لا علاقة له بالحوادث الطارئة ولا بالتشوهات الولادية، بل لتعديل بعض الملامح الخارجية لكي تصبح «أجمل» استناداً إلى مقاييس بات الكل يسلِّم بصحتها دون أن يناقشها.. ومما لا شك فيه أن هذه الفئة من عمليات التجميل هي التي تقف وراء تضخم هذه الصناعة أينما كان في العالم. وهي التي تطرح نفسها كقضية أخلاقية وثقافية واجتماعية بالدرجة الأولى، ليس من باب الاهتمام بالجمال، وإنما بسبب تحطم كل الموازين والمقاييس الخاصة بمفهوم الجمال والمغالاة في تقدير قيمته قياساً على قيمة الفرد وشخصيته بكل ما فيها من مكونات معرفية وأخلاقية ونفسية..

توحيد أمزجة الشعوب

الجمال أمر نسبي، وهو من ناحية فلسفية قضية معقَّدة وحساسة، كما أنه حصيلة أفكار ومعتقدات تشكِّل في النهاية رأي المجتمع بما هو جميل وما هو ليس كذلك. والجمال

شعور يترجم ما تراه النفس ويستقر في القلب، وهو حسّ يُدرك بالفطرة، حاول كثير من الفلاسفة والمفكرين أن يحددوه. فأينشتاين مثلاً يختصر الجمال في ثلاثة عناصر هي: بساطة الشكل وتناسقه وسموه. أما الجمال في عين سقراط فهو مصطلح مرادف للمفيد من الأشياء وللراحة النفسية التي يشعر بها الفرد أمامه.

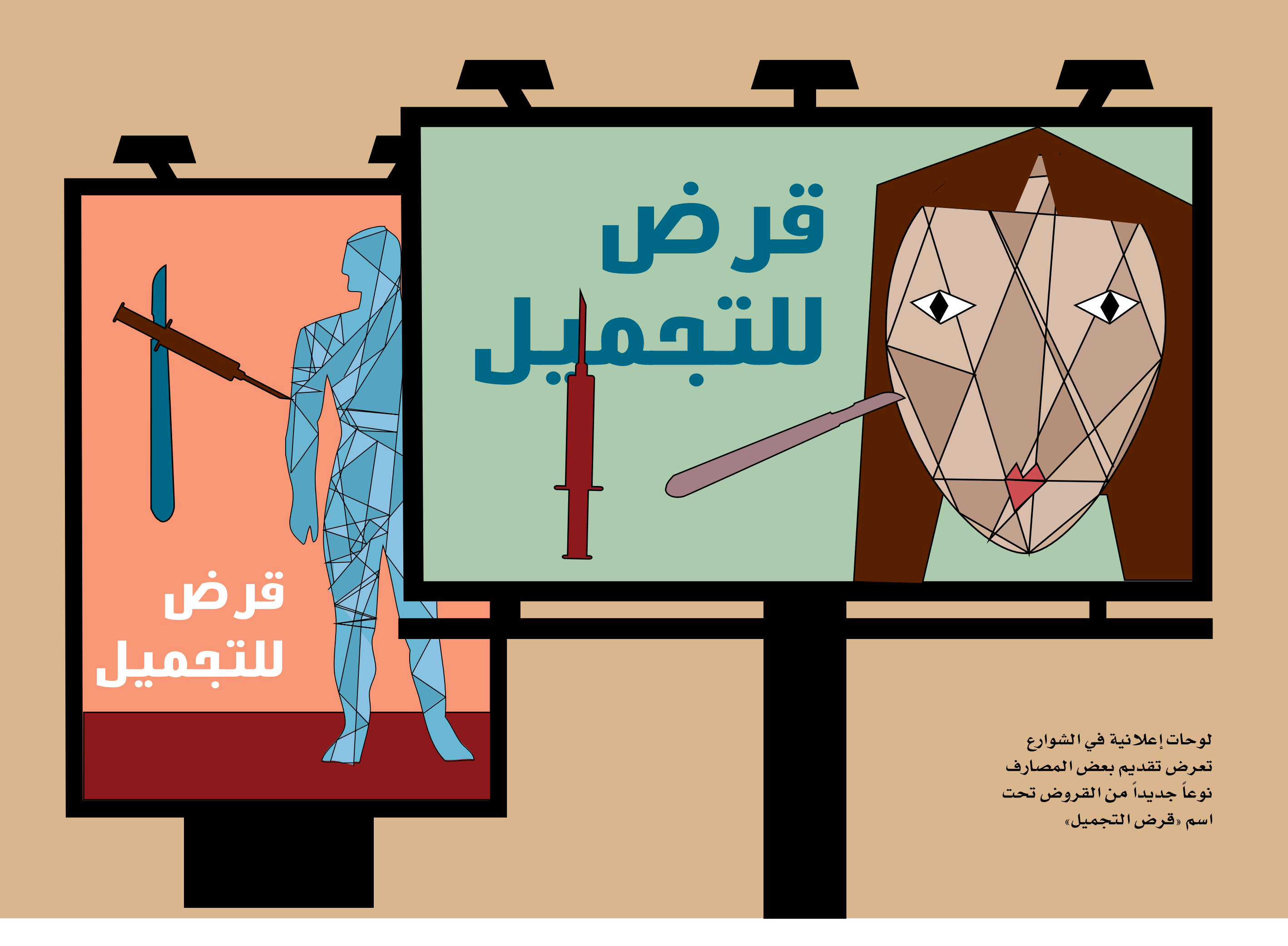
إذا كان العربي قد تغنَّى بِحَوَر العيون، فإن قبائل إفريقية أخرى فضَّلت حَوَل العيون، واعتبرته أساس الجمال فكانت الفتيات يعمدن إلى تدلية ضفائرهن أمام عيونهن بغية تعويدها على الحَوَل

ولكن أياً كانت التحديدات، فمن المؤكد أنه طوال التاريخ كان لكل شعب ومجتمع نظرته الخاصة إلى الجمال المنطلقة من ثقافته الخاصة المختلفة عن ثقافات المجتمعات والشعوب الأخرى. وكان هذا ينطبق على الفنون والآداب والعمارة والتزيين وكل ما هو منظور وصولاً إلى القيم غير المنظورة..

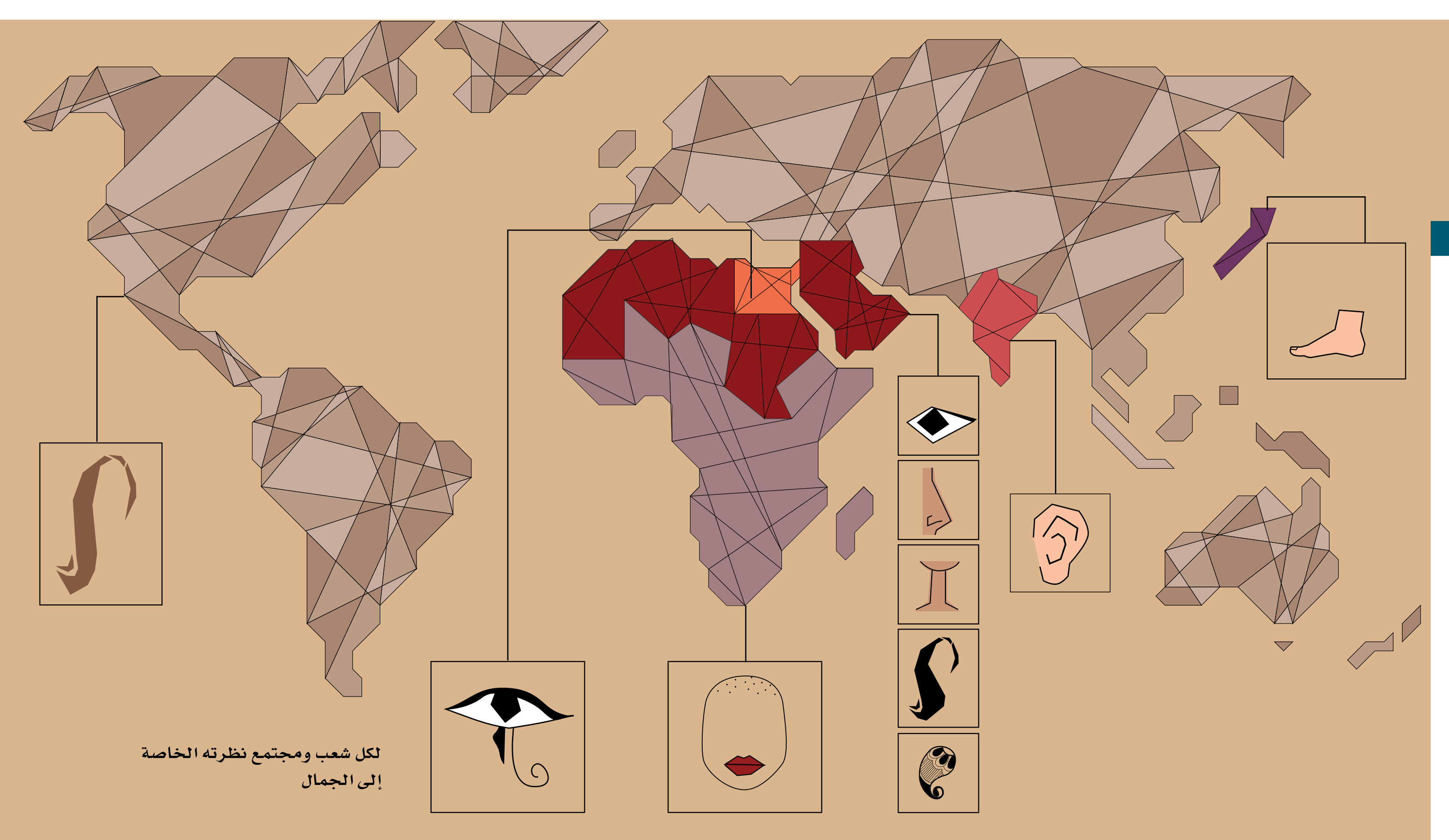
ولو أخذنا مظهر الأنثى مثلاً، لوجدنا أن النقوش الفرعونية تشير إلى أهمية «العيون الكحيلة» ضمن مقاييس الجمال، حتى أن المصريين القدماء جدُّوا في البحث عن أجود أنواع الكحل، إلى أن صنعوه من الأحجار الكريمة مثل اللازورد الأزرق والمالاكيت الأخضر. أما في اليابان، فتعتبر الأقدام الصغيرة من أبرز مواصفات المرأة الجميلة، إلى جانب صفاء البشرة والعنق، وفي الوقت نفسه كان اليابانبون يعيبون على المرأة طولها. ولشعب الأسكيمو مذهبهم الخاص الذي يولي الرائحة اهتماماً خاصاً ولا سيما رائحة الفم والجسم والشعر، ويذيع بينهم اختبار الرائحة قبل المبادرة إلى خطبة الفتاة والاقتران بها.

أما العرب، فاستحسنوا الأنف الدقيق والعيون الواسعة والعنق الطويل، وتغنَّوا بالشعر الأسود الطويل وأحبوا لون الخضاب والحناء. وإذا كان العربي قد تغنَّى بِحَوَر العيون، فإن قبائل إفريقية أخرى فضَّلت حَوَل العيون، واعتبرته أساس الجمال، فكانت الفتيات يعمدن إلى تدلية ضفائرهن أمام عيونهن بغية تعويدها على الحَوَل.

ومن عادات القبائل التي تقطن جزر بورنيو وبعض مناطق الهند، أن تثقب آذان المواليد لتعليق حلقات فيها تزيد من طولها، حتى أنها قد تتدلى لتصل إلى الكتف. وكلما ازداد تمدد الأذن، ازدادت الفتاة جمالاً في عيون راغبيها من الخطَّاب. ومقابل الطول الفارع



لوحات إعلانية في الشوارع تعرض تقديم بعض المصارف نوعاً جديداً من القروض تحت اسم «قرض التجميل»



لكل شعب ومجتمع نظرته الخاصة إلى الجمال

والشعر الطويل الذي تميل إليه المجتمعات الغربية، فإن مجتمعات إفريقية عديدة تفضِّل النساء حليقات الرؤوس، المائلات إلى البدانة.

كان هذا فيما مضى. إذ يبدو أن تعزيز وسائل التواصل ما بين الثقافات المختلفة يؤدي حكماً إلى توحيد المقاييس. كل أنواع المقاييس. من مقاييس الأوزان مثل الكيلوغرام الذي اكتسح الليبرة والإقة والقنطار، إلى المتر الذي أزاح اليارد والذراع وغيرهما. وفي زمن العولمة يبدو أن الأمر وصل إلى «الجمال» على الرغم من كل خصوصياته المعنوية والنفسية والثقافية.. ولكن ما السبيل إلى وضع مقاييس لأمر معنوي مرتبط أولاً وأخيراً بالمزاج الفردي غير الخاضع للضوابط والمقاييس؟ حسناً! كان عليهم أولاً أن يوحِّدوا الأمزجة.

الإعلام ومقاييس الجمال

ليس من الصعب الكشف عن جذور عملية توحيد مقاييس الجمال في مظهر المرأة المعاصرة، لأنه لم يوغل كثيراً في القدم حتى الآن. فخلال ستينيات القرن العشرين، كانت أَوروبا قد أكملت إعادة بناء ما دمَّرته الحرب العالمية الثانية، ما مكَّنها من الانصراف إلى تطوير بعض صناعات الكماليات ومن أهمها آنذاك كان تصميم الأزياء الذي شهد نمواً وارتقاءً بصناعته إلى مستويات غير مسبوقة. وتحوَّل عرض الأزياء إلى فن متكامل يؤديه محترفون. وتعزيزاً للترويج التجاري، حوَّل الإعلام بعض المحترفين (أو المحترفات) في هذا المجال إلى نجوم عالميين. ومن أول الأسماء اللامعة عالمياً في هذا المجال كان هناك اسم العارضة تويجي، الشهيرة بقامتها النحيلة والطويلة، وتناسق مقاييس معالم وجهها، ثم أعقبها جيل ثانٍ من العارضات النجوم ضم لورين هاتون وكريستي برينكلي وشيريل تيكس.. لتكر السبحة لاحقاً، بحيث باتت مئات عارضات الأزياء بشهرة أشهر ممثلات السينما، من دون أن يكون بينهن أية اختلافات شكلية ملحوظة، كما هو الحال بين العاملات في السينما.. فمقاييس القامة الجميلة صارت واحدة ومعروفة، وكذلك ما يجب على الأنف أن يكون عليه، والعينين والجبهة والشفتين والذقن والفك.. ولعب الإعلام دوراً بالغ الأهمية في نشر هذه المقاييس على مستوى العالم، حيث باتت المرأة الجميلة هي التي تمتلك هذه المقاييس والمواصفات، وكل ما عداها هو «قبيح»!.

طبعاً كان من الممكن أن تقف الأمور عند هذا الحد، ولكن الرخاء الاقتصادي الذي عمَّ دولاً كثيرة في العقود التالية، وتطور جراحة التجميل وتقنياتها، فتحا أبواباً عريضة أمام

المـرأة الراغبـة فـي اكتساب مظهـر أقرب إلـى «المظهر المثالي» المعتمـد عالمياً، أو تلك المصـرَّة على الاحتفاظ بشبابها الدائم في مواجهة تقدّمها في السن. فبدأ التهافت على جراحة التجميل لشدّ البشرة وإزالة التجاعيد، وشفط الدهون وتنحيل الخصـر، ونشر عظمة الأنف ليصبح خطاً مستقيمـاً، وغير ذلـك مما يصعـب إحصاؤه مـن عمليات مختلفـة. ولم يقـف الأمر عند عالم المـرأة، إذ سرعان ما امتـدَّ إلى عالـم الرجل، الذي بـات ينظر إلـى الصلع على أنـه عيـب، وإلى الأنـف المعقوف ولـو قليلاً علـى أنه عيب أكبـر.. وغير ذلك مما صار يدفـع بكثيرين منهم إلى أسرَّة المستشفيات، آمليـن أن يغادروها لاحقاً، وهم «أجمل» مما كانوا عليه.

> من الطبيعي أن يهاب الإنسان مظاهر الشيخوخة وهي تزحف على وجهه وجسمه، ومن الطبيعي أن يحاول وقف تقدُّمها ضمن حدود وبوسائل معقولة

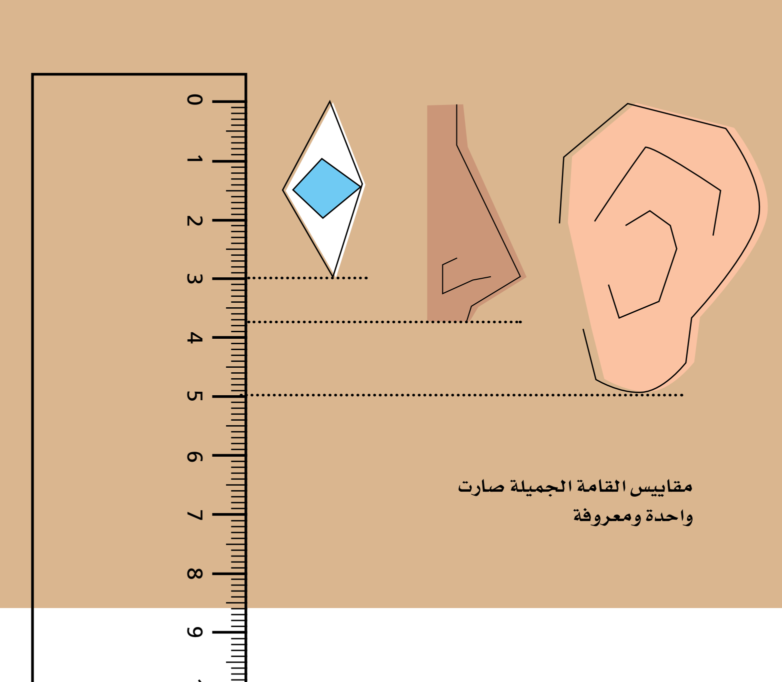
وبخبـث مـا بعـده خبـث، ولغايـات تجارية بحتـة، روَّج الإعـلام بألف طريقـة وطريقة لما تستطيع الجراحة التجميلية أن تجترحه مـن «معجـزات». وكلنـا نذكـر البرنامـج التليفزيونـي الأمريكي الـذي كان يُبث على بعض فضائياتنا بعنـوان «معالجة قصوى» (Extreme Make Over). حيـث كنا نرى فـي بداية كل حلقـة أناساً (رجـالاً ونساءً) ذوي مظاهـر غيـر جذَّابـة علـى الإطلاق، يخضعون لعمليات تجميل تحولهم في نهاية الحلقـة إلى أناس أفضل شـكلاً بكثير مما كانوا عليه.. والرسالة المبطَّنة التي ينطوي عليها البرنامج هي أن الأمر سهل.. وما عليك إلا أن تُقدم!.

على المستوى النفسي بين الانزعاج المبرر والمرض

فـي مواجهة هـذا الاهتمـام المتعاظم بالمظهـر الخارجي والجمـال الشكلي، يذهـب المثاليون إلـى الطرف الأقصى فيقولـون إن الجمال هـو الجمال الداخلي، جمـال النفسية والأخـلاق والعقل. وبإسقاط هذا الرأي على الواقع نجد أنه صحيـح في بعض الحـالات. فعقل أينشتايـن ينتزع احترام العالـم بغض النظر عـن مظهر وجهه، والأخـلاق أهم من رشاقة القوام عند من يحمل جائزة نوبل للسلام أو مؤسس دار لرعاية الأيتام.. ولكن لأن العالم ليس مؤلفاً من عباقرة العلـوم والمحسنين من أصحاب الأعمـال الخيرية، بل من أناس يكافحـون ويسعون إلـى النجاح والعمـل، فلا بد من الاعتراف بأن المظهر الخارجـي لهؤلاء يلعب دوراً متفاوت الأهميـة فـي تقبّلهم من قبـل شرائح اجتماعيـة تقف على مسافـة متوسطـة منهم فـي الأعمال وفي الحيـاة اليومية. ولـذا من الطبيعي أن يسعى هؤلاء إلى الظهور دائماً بأفضل صـورة ممكنة. صورة قد تشوبها أحياناً شائبة ظاهرية غير جذَّابـة، يشعـر صاحبها أنها تشكِّل عائقـاً أمام تقبل بعض الآخرين له.

يقـول الدكتـور أحمـد عيَّاش أخصائي الطـب النفسي: «إن المسائل التجميليـة تتعلق دائماً بنظرة الآخر ونظرة الشخـص إلى نفسه. ولا يوجد عمر معيَّن يبدأ من خلاله الشخـص في التفكير بتغيير صورتـه. فإذا شعر الإنسان أن صـورة مظهـره لا تتناسـب مـع المقاييـس الجمالية المطروحـة عالمياً، فسوف يشعر بإربـاك، وسيسعى إلى تغييـر مواضع الاختلاف. وإذا لم يستطع تغيير شكله بما يتناسـب مع المعايير المعتمدة، يبـدأ الأمر بالتأثير عليه نفسياً.. فتولَّد عنده حينها مسافة ما بين رغبته وإمكاناته الماديـة، ممـا ينعكـس اضطرابـاً أو اكتئابـاً، وشعـوراً بالعجز وبالنقـص وبالاختلاف عن الآخريـن اقتصادياً واجتماعياً. ويضيف: إن الأمر يتعلَّق بمدى قناعة الإنسان بذاتـه، وبأن ما يحصل من ثورة فـي عالم التجميل ليس بالضرورة الأمر الصحيح».

فـي البحث عن الحالات التي يمكن اللجوء فيها إلى عمليات التجميل، وجدنا أكثـر المواقف اعتدالاً فيما تقوله مصادر مستشفـى «مايو كلينيـك» الأمريكية، ومفاده أنـه «إذا كان الإنسان يشعر فعلاً بانزعاج دائم من وجود شائبة معينة في مظهر وجهه أو جسمه، ويمكن إزالتها بعملية بسيطة، فعليه أن يتقـدَّم لإجرائهـا، وإلا فالأمر ليس ضروريـاً». فالهدف السليـم من جراحة التجميـل وفق هذا المفهـوم المعتدل، هـو معالجة مشكلـة قائمة، وليس البحث عمـا هو «أفضل». ولكـن هذا الرأي المعتـدل ليس هو السائـد، إذ من السهل جـداً أن يخدع المرء نفسه ويرى في أي اختلاف بسيط بين شكل أنفـه مثلاً و«الأنف المثالي» مشكلـة خطيرة تستدعي المعالجة. وهنا نصـل إلى ما يسميه الطب النفسي «Body



مقاييس القامة الجميلة صارت واحدة ومعروفة

Dismorphic Syndrome»، وهـو الوصـول إلى حد الهوس بإعادة تشكيل المكونات الجسمانية. وهذا العارض النفسي هـو على مستوى من الخطورة بحيث أنه يؤدي في حال عدم معالجته نفسياً إلى شعور دائم بالإحباط والكآبة، ثم اليأس فالانتحار.

مـن أشهر الحالات المعروفة عالميـاً عن الهوس بالجراحة التجميليـة نذكـر حالـة عارضة الأزيـاء هانغ ميوكـو التي أجـرت من الجراحات ما جعـل الأطباء يمتنعون عن إجراء مزيـد. وأمام هـذا الرفض راحـت تشتـري السيليكون من السوق السوداء لتحقنه بنفسها في مواضع معيَّنة من وجهها وجسمهـا. ولما صـار جسمهـا يرفض السيليكـون، صارت تحقـن نفسها بزيـت الطبخ، حتـى تغيَّر شكلهـا إلى درجة مخيفـة، بحيث تعذَّر علـى أهلها التعرف إليهـا. ولما سعت إلى استعادة مظهرها القديم، خضعت لإحدى عشرة عملية تجميل باءت كلها بالفشل.



برنامج التلفزيوني الأمريكي
Extreme Makeover

وثمـة حالات مرضيـة أكثر شذوذاً مما تقـدَّم، مثل حالة الفتاة الأوكرانية أناستازيا التي كانت في التاسعة عشرة مـن عمرهـا عندما عملـت كل مـا بوسعها لكـي تصبح شبيهـة «فاكاسومـي» الشخصيـة الكرتونيـة التي تظهر في فِلـم رسوم متحركـة ياباني. فأنقصـت وزنها بشكل كبيـر ليبدو رأسها أكبر مـن جسمها على غرار شخصية الكرتـون تلـك، وأجرت عملية جراحية لعينيهـا لتبدوا أكبـر من حقيقتهما بغيـة تحقيق الهـدف نفسه، وكانت النتيجة.. مسخاً!

ومثـل هـذه الحـالات تطـرح أسئلـة، ليس حـول جدواها وقيمتهـا، فالأمـر مفـروغ منـه، بل حـول وظيفـة الطب والجراحـة التجميلية، وجواز القيام بمثـل هذه العمليات قانونيـاً وأخلاقياً.. إذ ليس من المعقـول أن تكون وظيفة العلـم والطبابـة تلبية نـزوات مريضة تسعى إلـى التشبه بمخلـوق آخـر، حتـى ولـو كان شخصيـة عامـة ناجحـة وشهيـرة، فكيف الحال عندما يكون المثـال الأعلى رسماً علـى الكرتون؟ هذا ما يقودنا إلـى جانب آخر من جوانب قضية جراحة التجميل.

أخلاقياً.. لماذا كل هذه الشبهات؟

مـن الطبيعي أن يهـاب الإنسـان مظاهـر الشيخوخة وهي تزحف على وجهـه وجسمه، ومن الطبيعـي أن يحاول وقف تقدُّمهـا ضمـن حـدود وبوسائـل معقولـة. ولكـن ليس من الطبيعـي مثلاً أن يبيـع بيته ليصرف ثمنه علـى شد بشرة الوجه أو تجميل العيون..

وحـالات السعـي إلـى «التحسيـن» و«الأفضل» تبقـى مهما شاعت قضية ثقافية واجتماعية، وحتى عندما تبلغ حدودها القصـوى، أي حدود الهوس، فإنها تبقـى في إطار المرض النفسـي. والمريض نفسياً لا يـلام، بل يعالـج. ولكن ثمة جانـب فـي قضيـة الجراحـة التجميليـة يتفلت مـن الأطر الاجتماعية والثقافية والنفسية، ليطرح نفسه على المستوى الأخلاقي. فالجراحة التجميلية هـي مع قضايا مثل «القتل

من السهل جداً أن يخدع المرء نفسه ويرى في أي اختلاف بسيط مشكلة خطرة

الرحيم» و«الاستنساخ»، من أكثر الاختصاصات الطبية إثارة للجدل والشبهات على المستوى الأخلاقي.

فهل يجوز للطبيب مثلاً أن يجري سلسلة عمليات جراحية لفتاة لمجرد أنها تريد أن تصبح شبيهة هذه الفنانة أو تلك؟ القانون لا يمنع ذلك، ويضعه في إطار الحرية الشخصية. ولكن من المرجَّح جداً أن للمنطق السليم والأخلاق الحميدة جواباً مختلفاً. أما كلمة الفصل فيبدو أنها للبعد التجاري.

في مواجهة هذا الاهتمام المتعاظم بالمظهر الخارجي والجمال الشكلي، يذهب المثاليون إلى الطرف الأقصى فيقولون إن الجمال هو الجمال الداخلي، جمال النفسية والأخلاق والعقل

فجراحة التجميل هي القطاع الطبي الوحيد الذي يحظى بترويج له من خلال الدعاية المباشرة في وسائل الإعلام، وكأنها سلعة استهلاكية يجب إقناع الجمهور باعتمادها من خلال الترغيب.. ولا غرابة في ذلك، عندما نعرف أن عوائدها على الأطباء والعيادات مجزية جداً. فعملية شدّ الجفون حول العينين مثلاً، تكلِّف نحو ثلاثة آلاف دولار في عيادة متوسطة، وشفط الدهون من حول الخصر يكلف ما بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف دولار في عيادة متوسطة أيضاً، ويمكن لهذه الأسعار أن تتضاعف عدة مرَّات إذا أجريت العملية في مستشفى مشهور أو على يدِّ جرَّاح معروف.

المفارقة الثانية تكمن في التطور التقني الذي طرأ على أدوات جراحة التجميل ووسائلها. وبدلاً من أن يكون هذا التطور نعمة كما هو الحال غالباً في كل المجالات العلمية الأخرى، وجدناه في جراحة التجميل «نقمة».

فالأجهزة الحديثة القادرة على تفتيت الدهون أو شفطها من دون شق الجلد، والأجهزة القادرة على شد البشرة من دون جراحة، باتت متوافرة لكل من يرغب بشرائها ويملك المال اللازم. فكثر إنشاء المراكز التي تقوم بعمليات التجميل لغايات تجارية بحتة. وغالباً ما تفتقر هذه الأماكن إلى الأطباء الاختصاصيين، فتكتفي بوجود تقنيين يعرفون كيفية تشغيل هذه الآلات. ولذا صارت تطالعنا أسماء مثل «مركز تجميل» إذا كان المكان يخلو من أي طبيب، أو «عيادة تجميل» إذا كان يحوي طبيباً واحداً غير اختصاصي، وربما كان ذلك لتلافي المساءلة القانونية. فتقريب «مركز التجميل» من «صالون الحلاقة»، يعفيه من التنطح للجراحات المعقدة، وربما أيضاً المساءلة القانونية.

وفي هذا الإطار، يقول الدكتور شهاب: «مع الأسف، يوجد في دول العالم الثالث تحايل كبير على القانون. إن الأطباء المنضوين في جمعيات جرَّاحي التجميل التابعة لنقابات الأطباء تتقيَّد بالمعطيات العلمية في العمليات التي تُجريها وبمبادئ المهنة. ولكن، مع الأسف، هناك كثير من أطباء التجميل الذين يسيئون إلى هذه المهنة. ومع العلم أن هناك قوانين تحاسب المسيئين، فمن النادر أن يطالب المريض بحقه أو أن يشكو الطبيب في حال ارتكابه خطأ».

والأخطاء في الجراحة التجميلية ليست قليلة.. صحيح أنها من النادر أن تؤدي إلى الوفاة، ولكن النتيجة المرجوة منها وهي «التجميل» ليست مضمونة حكماً في كل الحالات. طالما أن التخطيط لها يتطلب إضافة إلى الدراية التقنية والعلمية تصوراً دقيقاً مسبقاً لما ستكون عليه النتيجة، والأمر يتطلب خيال فنان قد لا يكون متوافراً عند الطبيب المعالج. فكم من العمليات الجراحية التجميلية أدَّت إلى تشويه الأصل بدلاً من تجميله؟ وكم من شخص سكت عن فشل عملية تجميل أجراها، من باب الإنكار وعدم الإقرار بأن مظهره ساء ولم يتحسَّن؟

إن جراحة التجميل، باختصار، تتطلب نفس الاهتمام الذي تتطلبه الجراحات الأخرى مثل جراحة القلب وجراحة العظم والمخ.. ولكن مشكلتها الرئيسة هي أن لا القائمين بها من بعض الأطباء ولا الساعي إلى إجرائها من «الزبائن» (وليس المرضى)، يتعاملون معها بالمهابة والجدية والوعي الذي يتعاملون به مع الجراحات الأخرى. فالمسألة مسألة وعي، مع كل ما يعنيه ذلك من سلامة قناعات، وثقافة أصيلة، وقدرة على التصدي للترويج الإعلامي، وقبل كل شيء، الرضا بما كتبه الله لنا.

أناستازيا

قول في مقال

التربص باعتباره مفتاحاً للفتنة..!!

مفاتيح الفتنة تصعب على الحصر، خاصة حين يكون الناس أقل علماً بالأشياء التي تحيط بهم، وحين ينخفض مستوى «الاستبصار» نتيجة ضغوط لا تمكن العيون والعقول من أن تنفتح كما يجب لتدرك حجم الأخطار التي تهدِّد سلامة الأفراد والأوطان. الكاتب محمد العصيمي، يتناول فيما يلي «التربص» باعتباره واحداً من أبرز وأثقل مفاتيح الفتنة، موضحاً أن أخطر مثيرات التربص هي سلطة الجماهير الهادرة في الميدانين: الواقعي والافتراضي.

التربص في معناه اللغوي المبدئي العام هو تحيُّن وقوع الشيء، خيراً أم شراً، فأنت تتربص بطبيبك بعد الكشف عليك لتستقبل الخبر، خيره وشره. لكنه، فيما يبدو، من ممارسات لغوية ومناجزات حوارية انتهى إلى ما وقر في أذهان الناس من معنى سلبي للكلمة، وهو أن (المتربِّص) من يستخدم إما المكان وإما الزمان أو كلاهما معاً ليوقع بضحيته. ولذلك جاز أن يكون التربص بالسلاح الخفيف والثقيل وبالمواقف، كما جاز أن يكون بالكلمة التي لا يسعى صاحبها إلى تحقيق فهمك بقدر ما يسعى إلى الإيقاع بك وهزيمتك.!!

إذن فإن (الكلمة) سلاح من أسلحة التربص وناطقها أو كاتبها يعلن عن نفسه متربصاً بالآخر متى استدعى مخزونه من اللغة ليسفه هذا الآخر أو يسحله لفظياً لكي يشوهه شخصياً بعد أن يشوه فكرته وأطروحاته التي تناجز ما لدى المتربص.

وهذا يبدو جلياً في وسائط التواصل الاجتماعي التي فَتحت، عربياً، أبواباً واسعة لطرح الآراء. كما يظهر، أيضاً، في برامج التلفزيون الحوارية، التي كثرت وتنوع ضيوفها من كل التيارات، وصار ممكناً في هذه البرامج، على نقيض ما كان سائداً في السابق، أن يتجاور المحافظ مع الليبرالي والمنفتح مع المنغلق في الاستوديو الواحد ليناقشوا قضية سياسية أو اجتماعية ساخنة.

لكن ما يبدو أنه غير ممكن، أو أقرب إلى المستحيل أحياناً، أن يأتي المتحاورن في الفضاء الافتراضي أو التلفزيون وهم يحملون هم التفاهم، فالغالبية، إن لم أقل الكل، يدخلون ساحات الحوار المتاحة ليزيدوها اشتعالاً. وهم في تصرفاتهم المشهودة الأعم يتربصون ببعضهم وكأنهم في ساحة حرب وليس في ساحة كلام ونقاش يجوز فيها ما تركته لنا حكمة الإمام الشافعي الخالده، من أن رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب.

وهذا الحوار المتربص، إذا اتفقنا على وجوده وتراكم ظواهره، له أسبابه المتعددة التي تصعب هنا الإحاطة بتفاصيلها، لكن أهم هذه الأسباب هو ما يبدو ظاهراً من سلطة الجماهير على الرموز، فقد وقع كثيرون في حبائل الإغراء الجماهيري، لتصبح الجماهير ورغباتها وشهواتها هي التي تقودهم بدلاً من أن يقودوها هم بالحكمة والقول الحسن. وقد حدث، وهذا طبيعي من وجهة نظري، من جراء الوقوع في أسر الجماهير سباق واضح محموم على (الأنا) أدى إلى

ظهور حرص شديد وأولوية قصوى، لا تسبقها أية أولوية، على (أيًّنا) جماهيريته أوسع وأسرع نفاذاً إلى ما يشتهي الناس ويترقبون.

ولذلك، أيضاً، أصبح واضحاً أن قائد الرأي، أو من يحسب على قادة الرأي، صار همه أن يرى، مثلاً، أكبر عدد من إعادة التغريد في تويتر لكلمة أو جملة قالها وكم أضافت له من التابعين وتابعيهم وتابعي تابعيهم. وهذا حتماً سيفوت عليه الفرصة بأن يكون أكثر حكمة وحذراً، بل ويجعله أكثر تسرعاً وخفة حين يلقي خطابه أو يرسل كلماته عبر وسائل الاتصال إلى الجماهير التي يخضع راضياً، أو مغيباً، لسلطتها. كما أن مصيدة الجماهير هذه، وأنا من شهود العيان عليها، أوقعت بعض الناس في أخطاء متوالية تراجعوا عنها قبل أن يجف حبرها.

وما هو أخطر أو أسوأ من ذلك أن السباق أمام المدرجات المكتظة بالمريدين، بالملايين أو بالآلاف، جَرّأت بعض الناس، الذين نحسبهم أعقل وأحكم، على بعضهم إلى درجة التنابز بالألقاب والتقليل من شأن الآخرين على أساس المحتد القبلي أو المذهب أو اللون أو الجنس. وكذلك كانت (الغيبة) المفرطه بحق أشخاص بعينهم رأى فيهم المتربصون، المتكسبون جماهيرياً، لحماً سائغاً للمضغ.

الأدهى والأمر من ذلك أن (النجم) المتربص الذي غيبته الجماهير عن إدراك خطورة الكلمة كسلاح فتَّاك بات مستعداً للمخاطرة حتى بنفسه لكيلا يسبقه أحد إلى الأضواء التي تخطف أبصار الناس. ولو أخذنا أمثلة من رسائل بعض نجوم التواصل الاجتماعي، سنجد كثيراً من (التضحيات) الشخصية غير المحسوبة على المستوى الشخصي ولا المعقولة على المستوى الاجتماعي. والبطولة، كما نعلم، شأن نفسي لايوجد بشري لا يسعى إليها أو يتمثلها، لكن ما يحوِّل البطولة إلى سفاهة هو أن تعتقد أنك ستلقي كلمتك القاتلة ثم تنفذ من سلطة النظام أو ردة فعل الجماهير المضادة الغاضبة. وهذا هو ما يفسِّر لنا وقوع كثيرين في العالم العربي كله في قبضة العقاب، سواء أكان سجناً أم جلداً أم تشهيراً.

الاستعداء، أيضاً، من نواتج أسباب التربص، فأنت حين تكون مصاباً بشهوات الأضواء ورغبات الجماهير تكون أكثر استعداداً لإيجاد العداوات لشخصك أولاً ثم للتيار الذي تنتسب إليه. ولا يستثنى من ذلك، بالمناسبة، أي تيار من التيارات التي تتصارع أمامنا، فكلها تستعدي على بعضها بعضاً وتبتعد بآلاف الكيلو مترات عن احتمالات التفاهم والالتقاء على كلمة سواء. وقد جربت شخصياً في أكثر من حوار تلفزيوني هذا الاستعداء، الذي يسبقه إصرار وترصد، إذ بمجرد أن أبدأ الكلام أشعر بأن من بجواري يلتقط كل حرف أقوله ليجعل منه مادة للهجوم اللفظي المسلح علي وعلى أفكاري.

وفي بعض البرامج التلفزيونية، التي شاركت فيها مع نجوم مستعدين سلفاً للتصادم، شعرت، أحياناً، أننا قاب قوسين أو أدنى من التعارك بالأيدي، أو أن كوب الشاي الذي يجلس أمامنا سيكون له حالاً وظيفة بيننا، حيث يمكن أن يهوي على وجه أو رأس أحدنا. وهذا يعني أن من دخلوا الاستوديو أتوا متربصين ولم يأتوا متفاهمين حتى لو ادعوا ذلك أو حاولوا أن يظهروا على غير طبيعتهم.

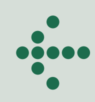
وعليه، نتيجة لكل ما سبق، يجب أولاً أن نعترف، وقد قدَّمت لكم بعض الأمثلة، بأننا نعيش في هذا الزمن حالة مزمنة من التربص ببعضنا، وأن كلاً منا يسن سكاكينه (اللفظية) ليسحق الآخر المضاد له في الأفكار والآراء والرؤى الوطنية، التي نقول أو نزعم أننا معنيون بها وببلورتها لتحقيق الصالح الاجتماعي العام على كل صعيد.

وإذا حدث هذا الاعتراف، وأنا شخصياً أعتقد أن حدوثه سيتأخر كثيراً، سيمكننا وقتها أن نحصل على المادة البديلة الصحيحة لجدلنا وحواراتنا وهي مادة (التفاهم) النافية قطعاً لرغبات التربص، لما تتمتع به من خواص حميدة أهمها أن المتحاورين صادقي النية في حواراتهم والوصول إلى حلول لاختلافاتهم تجنباً لموبقات التفرق والتمزق والفتن. وهذا سيتطلب جهداً وطنياً كبيراً يشارك فيه الجميع، يبدأ من رياض الأطفال وينتهي بمراكز القرار.

القارة السمراء على مشارف الأمل

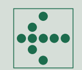
الغاز الطبيعي في شرق إفريقيا





تشير توقعات وكالة الطاقة الدولية وغيرها من كبار المؤسسات العاملة في أبحاث الطاقة إلى تزايد دور الغاز الطبيعي في مزيج مصادر الطاقة المستخدمة في العالم. وقد أسهم هذا الاعتقاد في إبراز أهمية الاكتشافات الحديثة من موارد الغاز الطبيعي الضخمة التي عُثر عليها في القارة السمراء. ومع هيمنة دول شمال القارة، وهي الجزائر ومصر وليبيا بالإضافة إلى نيجيريا، على إنتاج الغاز في إفريقيا بما تمتلكه هذه الدول من احتياطات هائلة من الغاز المرافق، فإن الاهتمام على وشك التحول باتجاه الشرق، بعد العثور مؤخرًا على احتياطات كبيرة للغاز الطبيعي تحت المياه قبالة سواحل تنزانيا وموزمبيق.

في هذا التقرير، يناقش الباحث عبد الرحمن الخلف، من أرامكو السعودية أهمية اكتشافات الغاز هذه واحتمالات مساهمتها في إحداث تحوّل شامل في الاقتصادات الضعيفة لهذه الدول، إلى جانب تسليط الضوء على الميزة التنافسية التي تختص بها هذه الاكتشافات بين المناطق المنتجة الأخرى في مختلف أنحاء العالم. ويبرز هذا التقرير، وهذا هو الأهم، التحديات التي تبدو في الأفق والتي يمكن أن تعوق استغلال هذه الموارد وتحقيق النتائج المرجوّة منها بصورة فعالة.

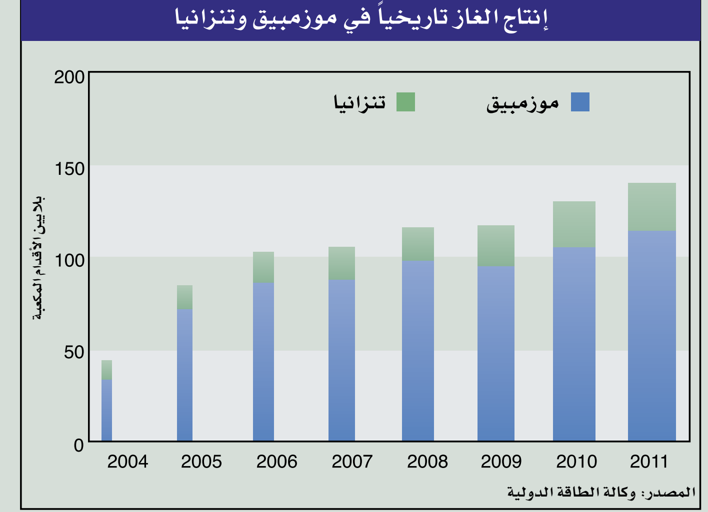


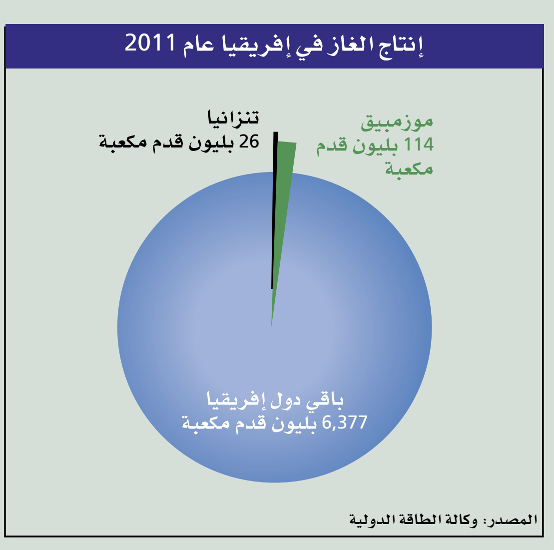
لمحة عن الموارد الطبيعية في شرق إفريقيا

لا يُعد إنتاج الغاز الطبيعي أمرًا جديدًا على شرق إفريقيا إلا أنه يعدُّ منخفضاً مقارنة بباقي أجزاء القارة. بدأ الإنتاج من موزمبيق وتنزانيا في عام 2004م حتى بلغ الآن 140 بليون قدم مكعبة في السنة للدولتين معاً. وهذه الكمية لا تمثل سوى 2% من إجمالي إنتاج إفريقيا الذي تحتلّ دول الشمال الإفريقي ونيجيريا مراتب الصدارة فيه.

كانت الرؤية السائدة توحي بأن منطقة شرق إفريقيا لم تحظَ بالقدر الكافي من أعمال التنقيب مقارنة ببقية مناطق القارة. وقد تمّ تأكيد ذلك مؤخراً بعد أن أدت عمليات التنقيب بين عامي 2010 و2012م إلى سلسلة من الاكتشافات في حوض روفوما البحري يصل إجماليها إلى نحو 130 تريليون قدم مكعبة من موارد الغاز الطبيعي القابلة للاستخراج في موزمبيق وتنزانيا، ليصبح هذا الحوض واحدًا من أغزر الطبقات المنتجة التي تحتضن الغاز التقليدي في العالم.

وبالنسبة لحوض روفوما الذي يمتد عبر أراضي تنزانيا وموزمبيق، فقد تم تقسيم الجزء التابع لموزمبيق إلى ست مناطق تنقيب تمت ترسية كل منها بموجب عقد امتياز منفصل، حيث مُنح ترخيص المنطقة الأولى إلى شركة أناداركو الأمريكية، والمنطقتين الثانية والخامسة إلى ستات أويل النرويجية، والمنطقتين الثالثة والسادسة إلى بتروناس الماليزية، والمنطقة الرابعة إلى «إي إن آي»







الإيطالية. في شهر يونيو من عام 2012م، وبعد حفر عديد من الآبار التقييمية الناجحة في المنطقة الأولى، صرَّحت شركة أناداركو عن اكتشاف 30 تريليون قدم مكعبة من موارد الغاز القابلة للاستخراج. وفي شهر ديسمبر من عام 2012م، أعلنت شركة «إي إن آي» موارد غاز تبلغ 75 تريليون قدم مكعبة في المنطقة الرابعة. ومع استمرار الاستكشافات في نفس المنطقة، أضافت الشركة مؤخراً في شهر سبتمبر من هذا العام 10 تريليونات قدم مكعبة.

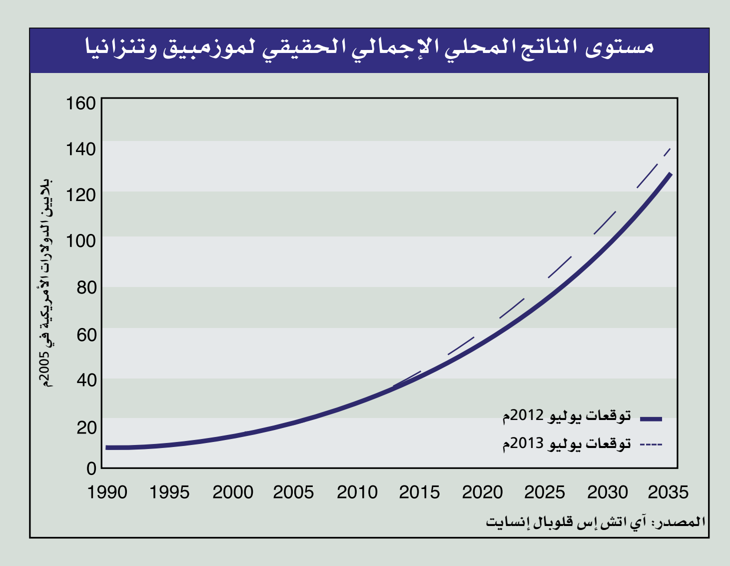
وعلاوة على ذلك، وبمحاذاة حدود موزمبيق، أدت أعمال التنقيب التي قامت بها شركات «بي جي» وأوفير إنرجي وستات أويل وإكسون-موبيل في المياه العميقة العائدة لتنزانيا إلى العثور على اكتشافات عديدة رفعت إجمالي اكتشافات الغاز إلى أكثر من 23 تريليون قدم مكعبة.

أما في الجارة الشمالية كينيا، التي أوضحت عمليات التقييم المبدئي وجود مناطق واعدة كبيرة غير مستكشفة بها، فإن أعمال التنقيب القائمة حالياً لم تسفر حتى الآن عن اكتشاف أي آبار ذات إنتاج بكميات تجارية.

سبيل واعد لتحقيق الاستقرار الإقليمي

ما زالت موزمبيق تكابد، منذ استقلالها عن البرتغال في عام 1975م، نتائج الحرب الأهلية. وعلى الرغم من توقيع اتفاقية السلام منذ عشرين عاماً، لا تزال البلاد تعاني تصاعد التوترات السياسية، في ظل تفاقم مشكلات العجز الاقتصادي، المجاعات، والجفاف الشديد منذ بداية العقد الحالي. أما تنزانيا فلم تكن أسعد حظاً من جارتها. يعيش غالبية سكان هاتين الدولتين تحت خط الفقر، وتمثل المعونات الأجنبية نحو نصف ميزانيتيهما. وتعاني كلتا الدولتين حالياً من مشكلات التضخم والبطالة، إذ يقدَّر معدل التضخم في موزمبيق بـ 10.4% وفي تنزانيا بـ 12.7%، أما معدل البطالة فبلغ 21% في موزمبيق و8.8% في تنزانيا. وهو ما يمكن أن يؤدي إلى استمرار حالة عدم الاستقرار الإقليمي والاضطرابات وارتفاع في معدلات المخاطر الاستثمارية والجيوسياسية، مما ينفِّر تدفق المال الأجنبي اللازم لدعم اقتصاد هاتين الدولتين. وقد احتلت موزمبيق المرتبة قبل الأخيرة وجاءت تنزانيا قبل الأخيرة بخمس مراتب في مؤشر تنمية الطاقة الذي تصدره وكالة الطاقة الدولية. وبلغت نسبة عجز الميزانية في موزمبيق 6.5% وفي تنزانيا 5.7% من الناتج المحلي الإجمالي. وهناك عدد من المؤشرات الأخرى التي تعبِّر عن تدنّي المستوى الاقتصادي والتنموي في هاتين الدولتين.

وهنا تَبْرُز قيمة اكتشافات الغاز في هذا الوقت الحرج وفي ظل هذه الظروف الاقتصادية المتدهورة، مما يبشر





شرق إفريقيا بإمكانات كامنة تستطيع أن تحولها إلى منطقة ناهضة في مجال الطاقة على الصعيد العالمي. وفي موزمبيق، هناك توقعات متفائلة بأن ترتفع وتيرة نمو الناتج المحلي الإجمالي على المدى المتوسط بعد أن أصدر البنك الدولي مؤخراً تعديلاً تصاعدياً في التوقعات الاقتصادية لموزمبيق، حيث يتوقع زيادة سريعة تبلغ 9.29% في إجمالي الناتج المحلي سنويًا خلال الفترة من 2013 إلى 2017م. وفي شهر يوليو 2013م، قدَّمت شركة «آي إتش إس قلوبال إنسايت» تعديلاً متفائلاً لتقريرها عن إجمالي الناتج المحلي المستقبلي الذي صدر في يوليو 2012م قبل أن تتبلور اكتشافات الغاز بصورة كاملة. وتشير هذه التوقعات إلى أن استغلال اكتشافات الغاز الجديدة سترفع من إجمالي الناتج المحلي لكلتا الدولتين بنحو 140 بليون دولار خلال الفترة من 2018 إلى 2035م بمعدل 6.2% سنوياً في المتوسط. وحتى في ظل العجز المالي الذي يتوقعه صندوق النقد الدولي، ستؤدي صادرات الغاز إلى معادلة الحسابات الجارية مع حلول عام 2020م.

> **إن التحدي الفوري الماثل أمام موزمبيق وتنزانيا يبدأ في تطوير التجهيزات الأساسية الضرورية لاستغلال اكتشافات الغاز وتحويلها إلى ثروات**

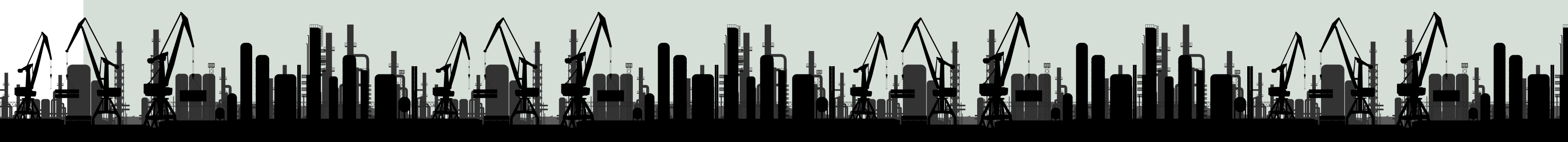
بنية تحتية غير مهيأة

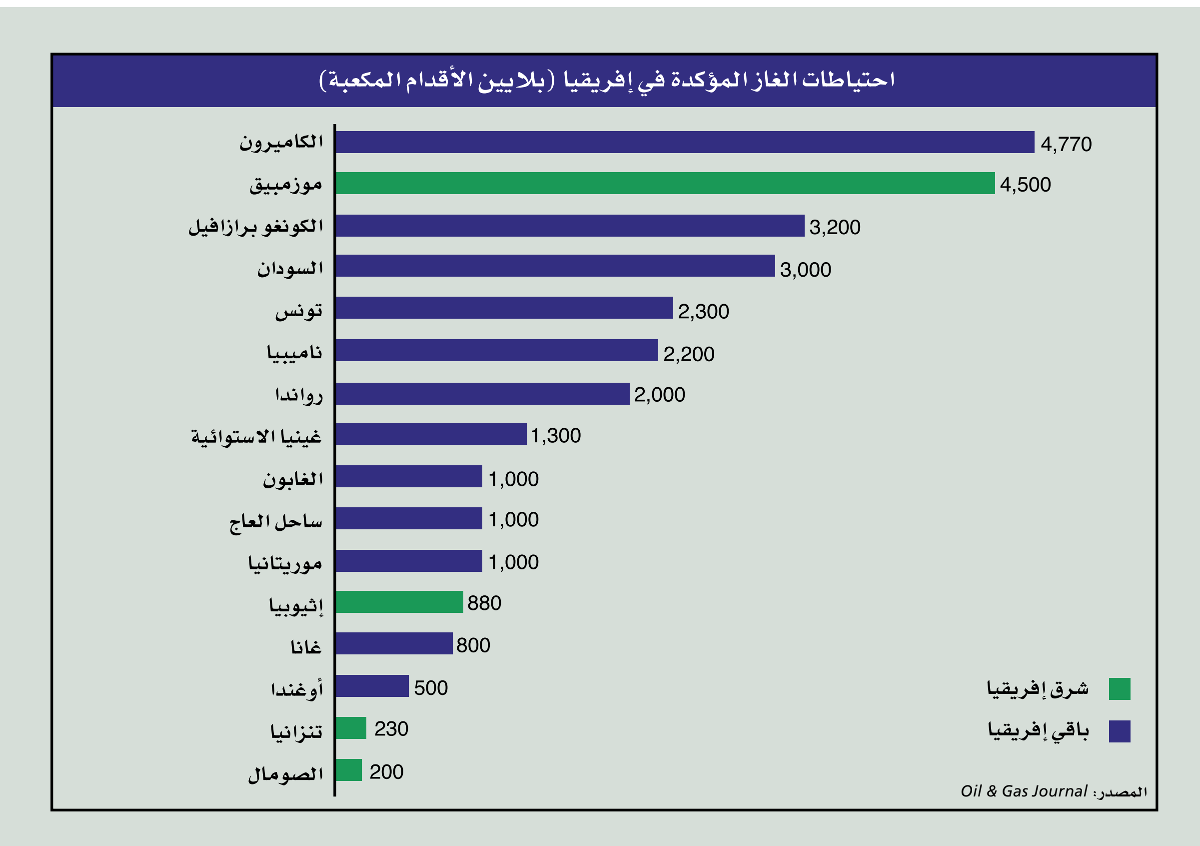
لم تظهر تلك المؤشرات المتفائلة إلى الواقع بعد، حيث لم يقدِّم الإنتاج المتواضع للغاز الطبيعي حالياً في كلتا الدولتين إسهامات كبيرة في القطاع الصناعي. فبينما تستهلك تنزانيا جميع كميات الغاز التي تنتجها دون أن تترك نطاقاً للتصدير، نجد أن نقص التجهيزات الأساسية وضعف القطاع الصناعي في موزمبيق جعلها تعجز عن استهلاك الغاز الطبيعي محلياً مما اضطرها إلى تصدير ما نسبته 95% من إنتاجها عن طريق خط أنابيب إلى جارتها جنوب إفريقيا. ووفقًا لما ذكرته «بيزنس مونيتور إنترناشيونال»، فإن القطاع الصناعي الموزمبيقي كان خاضعاً على الدوام لهيمنة عمليات استخراج الفحم الذي يوفر نسبة كبيرة من صادرات موزمبيق، ومعظمها إلى الهند.

وتزداد الصورة سوءاً عندما ندرك حقيقة أن موارد الفحم الموزمبيقية البالغة 172 مليون طن، وفقًا لتقرير صدر في عام 2010م، يمكنها أن تجعل من موزمبيق دولة رائدة في تصدير أنواع الفحم الصلب على نطاق عالمي إلى الأسواق الرئيسة، غير أن غياب البنية التحتية المناسبة قد أعاق استغلال هذه الموارد وتحقيق الثروات. ولذلك فإن صناعة التعدين في موزمبيق كانت هي المحفز الأساسي وراء تطوير بعض البنية التحتية المتوافرة ومن ثم المصدر الأساسي للسيولة التي موّلت مشاريع شبكات النقل الضرورية لربط المناجم بالموانئ، حيث إن حكومة موزمبيق لا تملك القدرة على دعم تطوير بنيتها التحتية الخاصة، ولذلك كان الاعتماد على تلك الشركات التعدينية الأجنبية الغنية بالنقد كونها الممول الرئيس لتطوير التجهيزات الأساسية للنقل بما فيها السكك الحديدية والموانئ. وعلى هذا المبدأ، تُقدِّر مجلة «ماينينق ويكلي» المتخصصة بشؤون التعدين الاستثمارات اللازمة من رؤوس الأموال بحوالي 22 بليون دولار لتوفير البنية التحتية للنقل و10 بلايين دولار أخرى لتمويل مشاريع إمدادات تطوير الطاقة والكهرباء.

ويُفهم من ذلك أن التحدي الفوري الماثل أمام هاتين الدولتين يبدأ في تطوير التجهيزات الأساسية الضرورية لاستغلال اكتشافات الغاز هذه وتحويلها إلى ثروات. حيث تقدِّر الدراسات أن تكلفة التجهيزات الأساسية والخدمات المصاحبة لها تتراوح بين 12 و20 بليون دولار. وتشير الإيرادات غير الكافية في كلتا الدولتين إلى ضرورة جذب استثمارات خارجية لتلبية هذه المتطلبات التمويلية لدعم صناعة الغاز بالطريقة نفسها التي دعمت فيها هذه الاستثمارات الخارجية أعمال التعدين. ولعل الموقف في تنزانيا أكثر صعوبة، حيث إن انتشار المناطق الواعدة بالغاز الطبيعي في مساحات شاسعة ومتباعدة يتطلب بنية تحتية أعلى تكلفة. وحتى بعد التغلب على المشكلات المتعلقة بتدبير الأموال، فإن صندوق النقد الدولي يتوقع أن تؤدي هذه الأموال الخارجية والقروض إلى مزيد من التشوه في الميزانية إذ إنها ستزيد العجز المالي في موزمبيق من 26% إلى نحو 40%، وفي تنزانيا من 9% إلى نحو 15%، من إجمالي الناتج المحلي في عام 2014م.

غير أن التحديات تتجاوز المتطلبات المالية التي يمكن أن تؤخر استغلال هذه الثروات، حيث إن الأيدي العاملة





ذات المهارة الفنية المطلوبة تكاد تكون منعدمة في هذه المنطقة. وبالإضافة إلى ذلك، فهناك فجوة واسعة في إطار الحوكمة تحرم الحكومة من سنّ الحوافز التشريعية والتجارية اللازمة لجذب التمويل الخارجي المطلوب.

ومع التأكيد على الأهمية الحيوية للدخول في شراكات مع شركات البترول العالمية، يطالب الخبراء بعناصر لا تقل أهمية من سابقتها للنجاح في استغلال موارد الغاز وتحويلها إلى إيرادات مادية. تفتقر الدولتان إلى خطط رئيسة لتطوير الغاز الطبيعي. ففي المقام الأول، تحتاج حكومتا تنزانيا وموزمبيق، وأيضاً المنظمات غير الحكومية لديهما، إلى صياغة خطة رئيسة لتطوير الغاز

إجمالي طاقة تصدير الغاز الطبيعي المسال في موزمبيق وتنزانيا بحلول عام 2020م			
الدولة	الشركة المشغلة	الموعد المقرر للبدء	الطاقة الإنتاجية (ببلايين الأقدام المكعبة في اليوم)
موزمبيق	أناداركو	2018	0.66
تنزانيا	مجموعة شركات ب جي	2018	0.87
موزمبيق	أناداركو	2019	0.66
موزمبيق	إي إن آي	2020	1.32

تتناول الجوانب الضريبية والتراخيص والاستثمار والتدريب والتوظيف وغيرها.

خطط طموحة للاستغلال التجاري

يبلغ إجمالي احتياطات الغاز المثبتة القابلة للاستغلال 4500 بليون قدم مكعبة في موزمبيق، و230 بليون قدم مكعبة في تنزانيا. تشير بعض التقديرات المتفائلة في تحقيق درجة من النجاح في تطوير هذه الاحتياطات إلى مستوى إنتاج غاز يبلغ 9 بلايين قدم مكعبة في اليوم في عام 2035م من كلتا الدولتين، أي ما يمثل 50% من النمو المتوقع في إنتاج القارة الإفريقية للغاز خلال هذه الفترة.

وإلى جانب إنشاء فرضة مشتركة للتصدير، هناك ثلاثة مشاريع لإقامة فرض جديدة في موزمبيق وتنزانيا في طور التخطيط، ليصل إجمالي طاقة تصدير الغاز الطبيعي المسال إلى 3.4 بليون قدم مكعبة في اليوم بحلول عام 2020م.

وعلى الصعيد المحلي في موزمبيق، فإن أقرب مجال واعد لاستغلال الغاز الطبيعي هو كما يبدو قطاع توليد الكهرباء الذي يعتمد بصورة كبيرة على الطاقة المائية ومن ثم يعاني من الانقطاعات المتكررة. وفي شهر ديسمبر من العام المنصرم، أرست موزمبيق عقداً بقيمة 180 مليون دولار لإنشاء محطة كهرباء ضخمة تعمل بالغاز مع المرافق

المسانـدة لها. مما يعد بمزيد مـن المشاريع التي ستشجع فـي تعزيـز الاستهـلاك المحلـي للغـاز بكفـاءة أعلى من المستوى الحالي.

موقع جغرافي منافس

لقـد اجتذبت هذه الاكتشافـات الجديدة اهتمام العالم بصـورة عامـة، وعلى الخصوص الشـركات الآسيوية المتعطشـة للغاز. وتقـوم الشركات العالميـة العملاقة فـي الوقت الحالي بتقديم عروضها لامتلاك الحصص المطروحـة فـي اكتشافـات الغـاز الطبيعي فـي المياه الموزمبيقيـة، حيث إن حجم هـذه الاكتشافات قد برر التخطيط لإنشاء فرص تصدير للغاز الطبيعي المسال. فـي شهر يناير الماضي، توصلـت الشركتان الرئيستان المشغلتان للمنطقتيـن الأولى والرابعة، وهما إي إن آي وأنادارکو، إلى اتفاقية لتطوير مجمع غاز طبيعي مسال موحد علـى اليابسة يخدم اكتشافات الغـاز التي سيتم إنجازها بحلول عام 2018م.

ومن شأن قرب موقع هذه الاكتشافات من السوق الآسيوية، التي تتمتع بمعدلات نمو سريعة مقارنة مع الأسواق الأخرى، أن تُوجد ميـزة تنافسية لصادرات الغـاز الطبيعي المسال مـن شرق إفريقيـا بحيث تنافس صـادرات الدول الأخرى. ويترقب المستهلكون الآسيويون هذه التدفقات المحتملة من الغاز بحماس، ليس فقط لأنها تقلل من تكاليف النقل، ولكن أيضـاً لأنهـا تمثل وسيلة ضغـط على مورديهـم التقليديين لخفض السعر.

ولهـذه الأسبـاب، أبـدت كل من الصيـن والهنـد اهتماماً بالغـاً بموارد هذه المنطقة، حيث ترغبـان في تلبية الطلب المتصاعد لديهما على الغاز الطبيعي وعلى التكيف مع نمو اقتصاديهمـا. وبالنسبة لهاتين الدولتين، فـإن الإمدادات مـن منطقة شـرق إفريقيا تُعد أكثـر أمناً بصـورة نسبية، وبصـورة مؤكدة أرخص من الإمدادات الأسترالية. وبنفس القـدر فإن إمدادات الغاز فـي المنطقة تُعد مجدية بصورة مشابهة بالنسبة للدول الأخرى المستوردة للغاز في منطقة الشرق الأوسط المجاورة التي تمتلك رأس المال الضروري لتطوير هـذه الموارد؛ وهـي صفقة ستكون مفيـدة ومغرية لكلا الطرفين.

توقعات متفائلة وتحديات

إجمـالاً، فـإن اكتشافات الغـاز الطبيعي الجديـدة هذه في شـرق إفريقيا تأتي في الوقـت المناسب الذي يمثل العصر الذهبي للغاز. وعلى الأرجح، ستؤدي إلى تحول شامل، ليس فقط فـي الاقتصادين المتهالكين لهاتيـن الدولتين، ولكن أيضًـا في المشهد العالمي لتجارة الغـاز الطبيعي المسال، بالنظـر إلى قرب هـذه الاكتشافات نسبياً مـن الدول ذات الموارد الشحيحة من الطاقة في آسيا.

وفي ظل التوقعات الاقتصادية المتفائلة على المدى القريب والمتوسـط، لا ننسى التحديات المتعلقـة بتزايد المخاطر الاقتصادية في الدولتين، التي تزيد من حدتها الاختلالات الحالية والمحتملة في ميزانيتيهما بسبب ارتفاع الطلب على السيولـة وإمكانية الحصـول على القروض والاستثمارات الأجنبيـة، مما قد يبطـئ الوتيرة المرجـوة لاستغلال هذه الثروات.

ومن هنـا، فإن استغلال هـذه الأصول وتحويلهـا إلى رخاء مالـي لن يتم دون وضع اعتبار للتحديـات التجارية والفنية أمام توفير البنيـة التحتية، وتطوير التجهيـزات الأساسية المطلوبـة، وصنع المناخ التشريعـي والاستثماري، وتدريب الأيـدي العاملـة المحليـة، والأهـم مـن ذلـك الدخول في شراكات استراتيجية مع شركات البترول العالمية.



المستهلك.. في عصر العولمة

أصبح الاستهلاك سمة الحياة العصرية، ومنذ أكثر من قرن من الزمان لم يعد الاستهلاك يقتصر على نطاق الضروريات، بل امتد ليشمل كثيراً من السلع الترفيهية، عبر عملية ترويج هائلة قلبت في طريقها كثيراً من المفاهيم والقيم، وكونت ما أصبح يعرف بالمجتمع الاستهلاكي.

لقد توسعت أنماط الاستهلاك منذ أصبح متاحاً لكل فرد أن يشتري سيارة، ويحمل هاتفاً محمولاً، ويرتدي أحدث صيحات الموضة، ويكون عالماً افتراضياً من الأجهزة ووسائل التواصل والمقتنيات الرقمية، أصبح الاستهلاك ثقافة، كما أصبح محركاً جديداً للاقتصاد، وأصبح الاستهلاك يحكم الحياة الاجتماعية بكل أبعادها. من السلع الغذائية والخدمات إلى العلاقات الاجتماعية كما الثقافة والفنون.

ولم يعد الاستهلاك محصوراً بطبقة اجتماعية أو ثقافية محددة. فعمليات الترويج الاستهلاكي العملاقة تمكنت من أن تصهر الطبقات. فالمجتمع الاستهلاكي ينحو إلى صهر التباينات والاختلافات في ثقافة واحدة وسلوكيات متشابهة.

وإلى ذلك فإن النزعة الاستهلاكية تقوم بمهمة اجتماعية وإصلاحية أساسية؛ فهي تؤدي إلى إشباع رغبات وتطلعات الفرد في تحقيق ذاته.

في المقال التالي يتناول الباحث أمين نجيب ثقافة المستهلك، والنزعة الاستهلاكية، وتكوينها الثقافي والاجتماعي.

في كتابه «الديمقراطية في أمريكا»، 1835م، لاحظ الكاتب الفرنسي ألكسيس دو توكفيل، إبان رحلته إلى أمريكا في ثلاثينات القرن التاسع عشر، انتشار ظاهرة جديدة هي الديمقراطية، تلازمها ظاهرة أخرى متعلقة بها هي الاستهلاك. وهذا، يجلب «الراحة وحسن الحال». وتوقع بشكل مسهب وعبقري في الوقت نفسه، انتشار هذه الظاهرة على نطاق العالم. لقد أعطى دو توكفيل مدلولاً لغوياً للاستهلاك لم يكن شائعاً في ذلك الوقت يتصل بمفهومنا الحالي له.



لكن عندما أطلق ثورشتاين فيبلين الاقتصادي الأمريكي نظريته المعروفة حول الاستهلاك، في أواخر القرن التاسع عشر، بعد أكثر من نصف قرن على ملاحظة دو توكفيل، استهجنها كثير من المهتمين بهذا الحقل الجديد. خصوصاً أن تلك الفترة، كانت تُعد في أمريكا وأوروبا عصر النظريات الكبرى في علم الاجتماع والاقتصاد والفلسفة، وكذلك الاختراعات العلمية والتكنولوجية الفذة. فتساءل كثيرون: ما هي هذه النظرية التي تنبثق من شيء تافه: الاستهلاك؟.

يقول فيبلين إن لبعض السلع، بجانب قيمتها الاستعمالية الأساسية كالغذاء والملبس وغيره، فإنها ترمز إلى «البريستيج» أو «المكانة». وظهر ما يعرف بـ«تأثير فيبلين». فيما بعد، تأثر كثير من علماء الاقتصاد والاجتماع بنظرية فيبلين وذهبوا بها بعيداً جداً لطرح فكرة المجتمع الاستهلاكي المختلف اختلافاً جذرياً عن المجتمع ما قبله في كافة تركيبته ووظائفه.

الإنتاج يغيِّر العالم

النزعة الاستهلاكية التي لاحظها دو توكفيل باكراً جداً، رغم كونها لمَّا تزل في طور جنيني، وغير واضحة للعيان، التقطها بعد حوالي سبعين سنة، وبشكل لا يقل عبقرية، هنري فورد صانع السيارات.



كانت حيازة السيارة في بداية القرن العشرين مقتصرة على أصحاب الطبقات العليا. وكانت صعبة الاستعمال. إذ كان صاحبها بحاجة إلى سائق وميكانيكي وعدة كثيرة لاستعمالها. فقلما تنجو رحلة واحدة من تعطلها. كانت بالفعل ترمز إلى ما وصفه فيبلين قبل أكثر من عقدين بـ«البريستيج». فسأل هنري فورد نفسه: لماذا لا تكون السيارة أقل تعقيداً وأسهل استعمالاً وسعرها بمتناول العامة؟ ولم تمضِ سنوات معدودة من بدئه صناعة أول سيارة حتى كان يتباهى سنة 1914م أن أي عامل لديه يستطيع شراء سيارة موديل «فورد ت» بمعاش شهرين فقط. إذ إنه استطاع تخفيض سعر سيارته من حوالي 1200 دولار سنة 1907م إلى حوالي 270 دولار سنة 1914م بواسطة ما يعرف اقتصادياً بإنتاج السلسلة. وكان قد رفع أجور العمال إلى خمسة دولارات للعامل في اليوم على الرغم من معرفته أن أجور العمال كانت تشكِّل نسبة كبيرة من تكلفة السيارة. وقد عمد فورد إلى الترويج لصناعته من خلال شركات الإعلان. لكنه في فترات لاحقة، عندما بدأ إنتاج السيارات بالملايين والطلب عليها فاق العرض، توقف لفترات طويلة عن الترويج إذ لم يكن بحاجة إليه. فقد كان حديث السيارات وإنتاجها شاغل الصحف والأمريكيين جميعاً. لقد حول هنري فورد السيارة إلى سلعة ضرورية لكل فرد أمريكي. فترك هذا أثراً عميقاً جداً على المجتمع الأمريكي. ويمكن أن يتخيَّل المرء ما يقتضيه، في ذلك الوقت، وجود عشرات ملايين السيارات من صناعات أخرى متصلة بها، من مصانع التعدين إلى المطاط والجلد والزجاج وغيره وغيره. دون وجود أي بنية تحتية لذلك. فشقُّ آلاف الكيلو مترات من الطرقات بحد ذاته يتطلب كثيراً من المشاريع الأخرى. وكذلك صناعة النفط، ومحطات الوقود، ومرائب التصليح، وغيره مما يرافق ذلك من نشاطات اقتصادية كثيرة. هذه العملية، أي الإنتاج على نطاق واسع، مع تمكن الأمريكي العادي من الشراء، غيرت وجه أمريكا، والبعض يقول إن هنري فورد غيَّر وجه العالم.

دور الإنتاج يتراجع

بعد مائة عام، ما هو حال الإنتاج ودوره في الاقتصاد وتغيير حياة الناس مقارنة بعصر هنري فورد؟ سنتناول سلعة حديثة أخرى واسعة الانتشار، ومعولمة من ناحية الإنتاج والاستهلاك ولها مغزى يتعلق بموضوعنا، خصوصاً قيمة الدلالة، التي سنتوسع بشرحها لاحقاً، هي جهاز الهاتف المحمول الذكي «الآيفون» الذي تنتجه شركة «أبل» الأمريكية. وسنعتمد على دراسة واسعة قامت بها ثلاث جامعات أمريكية، هي: جامعة كاليفورنيا – أيرفين، وجامعة كاليفورنيا – بيركلي، وجامعة سيراكوس سنة 2011م. ذلك، إثر الأصوات الصادرة من بعض الأوساط حول ابتعاد أمريكا عن الإنتاج الصناعي من خلال نقله إلى الخارج والاعتماد على الاستهلاك والخدمات. فجاءت نتيجة الدراسة مذهلة.

تصنع شركة «أبل» «الآيفون» في الصين بوساطة شركة «فوكسكون» التايوانية التي تشغل حوالي 240 ألف عامل صيني. وتبلغ تكلفة الإنتاج الإجمالية هي 27.1% من السعر النهائي «للآيفون»، موزعة على الشكل التالي: العمالة الصينية هي 1.8% فقط وتكلفة ما تبقى من الإنتاج في الصين هي 3.5%. أما بقية كلفة

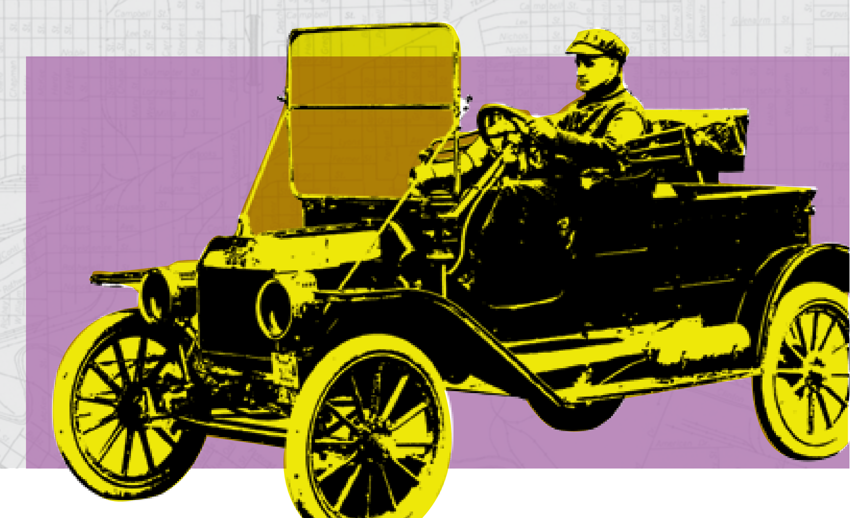
الإنتاج فهي 21.9% موزعة عالمياً: الرقاقات الإلكترونية من كوريا الجنوبية وبقية المواد من شركات أمريكية ويابانية وأوروبية وتايوانية. أما حصة الأسد فتبقى لشركة «أبل» وهي 58.5%. هذه هي قيمة الدلالة التي يدفعها المستهلك حول العالم ثمن الماركة «أبل» وتشمل الترويج والتصميم والإدارة. هذه كلها موجهة نحو المستهلك الذي أصبح يتصدر النشاط الاقتصادي وحل محل هنري فورد من ناحية الاهتمام والأهمية.

ضعف الاستهلاك مقابل قوة الإنتاج

في بداية القرن العشرين وصلت حُمى الإنتاج إلى حدود لم يكن في استطاعة النزعة الاستهلاكية الوليدة أن تستوعبها. فحصل إذ ذاك الكساد الكبير في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات. وانهار الاقتصاد بكامله، حيث امتدت آثاره إلى كافة الأسواق العالمية. أدى ذلك لإطلاق ثورات استهلاكية لا تزال تتوالى فصولاً بوتائر متزايدة. ويقارن بعض الباحثين عملية إطلاق حرية المستهلك، بعملية تاريخية أخرى، هي تحرير العبيد ابتداءً من القرن السابع عشر. إثر بروز الحاجة الماسة إلى اليد العاملة الجديدة التي لم تكن تعرف من قبل. إذ كان النظام الاجتماعي قائماً على ثنائية الأسياد والعبيد. فتم تحرير العبيد من النظام الإقطاعي ليعملوا في المصانع التي بدأت للتو بالتوسع. آنذاك تحوَّلت المجتمعات الغربية إلى ما يشبه الورشة الكبيرة لإزالة العوائق أمام تقدم المستهلك. ليس فقط الاقتصاد كله تحوّل من التركيز على الإنتاج إلى التركيز على الاستهلاك، بل مؤسسات التعليم والتربية والثقافة والمؤسسات الحكومية انتقلت للتركيز على المحاسبة، والتسويق، والمبيعات، وسلوكيات المستهلك..الخ. إن كليات ومدارس جديدة أصبحت تفرخ في كل زاوية، وأدى ذلك إلى إطلاق العنان لحرية المستهلك كسجين فك أسره.

تطور الاستهلاك

الاستهلاك هو سبب وجود الحياة. عالم الحيوان وعالم النبات يستهلك الغذاء ليبقى ويستمر. ولعشرة آلاف سنة خلت، كان الإنسان لا يزال في مرحلة الصيد والتفتيش عن الغذاء، كما بقية الحيوانات. وتمحورت علاقاته حول هذا النشاط. فإذا نظرنا إلى تلك المجتمعات من منظور عصري، فسنجدها مجتمعات فقيرة جداً. ولم يكن الفرد يمتلك أي شيء. لم يكن هناك عمل بالمعنى الحديث. ولم يحتاج الفرد لأي حسابات اقتصادية؛ ولم يجمع لنفسه أي شيء، فلم يكن هناك حاجة للتبادل.



ويقول «مارشال ساهلين» عالم الأنثروبولوجيا، إن هذه المجتمعات، بعكس الاعتقاد السائد، كانت مجتمعات الوفرة. لإن حاجاتهم كانت محدودة بالغذاء؛ والطبيعة كانت توفرها بشكل غير محدود. لم تكن اللغة تحوي كلمات كالفقر والغنى. وفكرة العمل لم تظهر بعدُ.

لكن الإنسان تفرَّد من بين الكتلة الحيوية كلها بربطه الاستهلاك بما عرف لاحقاً بالسلعة. التي هي شيء، بجانب قيمته الاستعمالية في غذائه وفي حياته اليومية، يمكن مبادلته مع أناس آخرين بسلعة أخرى. تطورت إدارة هذا التبادل مع الوقت لتصبح تجارة داخل البلد الواحد ولاحقاً مع البلدان الأخرى. وإنتاج السلع بدأ بالزراعة وتطور إلى الصناعة. إن إدارة إنتاج السلع ومبادلتها عرف لاحقاً بالاقتصاد. الكلمة العربية كما مرادفها الغربي، «الإكونوميكس»، تعني الإدارة والتوفير، ولاحقاً أصبح يُعرف الاقتصاد في أول درس جامعي أنه الموازنة بين حاجات لامحدودة وموارد محدودة. هذه العملية شكلت القاطرة للحضارة البشرية وتقدمها. لكن منذ حوالي 100 عام توسع الاستهلاك خارج نطاق الضروريات ليصبح شاملاً. فتحوَّل كثير من السلع الترفيهية، التي كان يقتصر استهلاكها من قبل الطبقات الميسورة، إلى ضرورية، عبر عملية ترويج هائلة قلبت في طريقها كثيراً من المفاهيم والقيم. هذا ما ندعوه المجتمع الاستهلاكي. هذا التحول في انتقال كثير من السلع من خانة الرفاهية إلى الضرورية على نطاق واسع، ليس بالمسألة البسيطة التي يمكن أن يتخيلها المرء. لقد أطلق هذا التحول مسار تغيير كبير في العادات والتقاليد والسلوك الفردي والجماعي، وامتد إلى الثقافة والعلاقات الاجتماعية.

والحال، أن ظاهرة الاستهلاك، في عصرنا الحالي، توسعت وتعمقت وتجانست لتصبح بحد ذاتها القيمة الأساسية للعولمة الحديثة. وخلال تطورها هذا لم تحدث فقط تغيراً جوهرياً في مسلمات علم الاقتصاد التقليدي، بتغيير اتجاهه من التشديد على الإنتاج إلى الاستهلاك، بل أحدثت تغيراً كبيراً في القيم الاجتماعية السائدة في كثير من المجتمعات على صعيد العالم.

أهم العناصر المؤثرة في انتشار الاستهلاك

1 - الترويج

يتمحور الاقتصاد السياسي التقليدي حول التنافس على صعيد الإنتاج من خلال تخفيض التكلفة وتوسيع المنتجات. والدعوة الأساسية في هذا النوع من النشاط كانت تتمحور حول التوفير لضخه في توسيع القاعدة الإنتاجية. بالمقابل، في المجتمع


shutterstock

الاستهلاكي انتقل التنافس إلى الترويج من خلال ابتداع حاجات جديدة إضافة إلى الأساسية منها. مما أدى إلى ظهور ما يسمى «قيمة الدلالة» مثل الماركة. فالكثير أو معظم المستهلكين اليوم مستعدون لدفع سعر إضافي لسلعة معيَّنة من ماركة ما حتى لو امتلكت نفس القيمة الاستعمالية لواحدة من ماركة أخرى. الموضة جعلت المستهلك يختار الزي وليس الحاجة. كما جعلته في سباق محموم مع النسخة الجديدة.

هل يستطيع أي أب أن يقاوم رغبة ابنه أو ابنته في شراء الموديل الجديد لهاتف محمول «موبايل» معيَّن إذا رآه مع زميل له؟ أحياناً كثيرة تكون مسألة التقادم بالأشهر وليس بالسنين. والماركة تغني المستهلك أو المستهلكة عن هَمّ التفتيش عن الموضة السائدة؛ إذا ما لبست إمرأة معيَّنة لباساً من آخر ما أنتجته «برادا» مثلاً، فلن تقلق أبداً من أنها لا تتماشى مع الموضة.

لسد هذه الحاجات الإضافية تطلب ذلك نقيض التوفير. فاختفت الدعوات إليه، التي كانت محور الاقتصاد فيما سبق، وحل محلها الترويج إلى الاستهلاك حتى من سياسات الدولة. ومن أوضح مظاهر الترويج الرسمي للاستهلاك الظهور الأول لبطاقات الائتمان في الولايات المتحدة خلال الخمسينيات من القرن العشرين التي انتشرت فيما بعد كالنار في الهشيم حول العالم. ولسان حالها: «اشترِ الآن وادفع غداً». إن هذه البطاقة، التي هي أداة للدين، حررت المرأة من رقبة الرجل وأطلقت نزوعها الجامح إلى الاستهلاك. لم تحدث تغيراً كبيراً في عادات التسوق وحسب، بل أطلقت تغييراً اجتماعياً هائلاً. سنة 1880م صرف على الترويج الإعلاني في الولايات المتحدة 30 مليون دولار. ارتفع إلى 600 مليون سنة 1990م، وارتفع اليوم إلى 120 مليار دولار. هذا الإحصاء لا يشمل قيمة الترويج خارج الولايات المتحدة.



2 - المتاجر الكبيرة

المتاجر الكبيرة، التي كانت قد بدأت بالظهور في القرن الثامن عشر، اضطلعت بوظائف ثورية. أصبحت البضائع تعرض مع بيئة كاملة من الأضواء والموسيقى والأزهار والألوان. حضرت إلى المتجر الكبير الطبيعة بكاملها. وربما عرف مُروِّجو الدعاية بلاوعيهم وباكراً ما اكتشفه علماء الجينات لاحقاً من أن في جيناتنا موروثات من المعلومات تعود إلى ملايين السنين، حين كنا نعيش في الطبيعة التي كانت ترمز في أسطورة سيدنا آدم وحواء إلى الجنة التي طردنا منها، واضطررنا للعمل كي نحيا ونعيش. وها هو المتجر يعيدها إلينا بكل عبقها وألقها.

الوفرة هنا هي الكلمة المفتاح. التوجه إلى الأماكن التي تتراكم فيها السلع بكثرة، حيث ينجذب إليها المستهلك بقوة. الكمية الكبيرة توحي بالوفرة. الفرد في المجتمع الاستهلاكي يرتاح إلى الوفرة. لا يريد العودة مطلقاً إلى حالة الشح. بشرائه واحدة يشعر أنه ينتمي إلى هذا العالم الوافر. لذلك ترى الدكاكين الصغيرة غير قادرة على مقاومة إغراء الإحساس هذا عند المستهلك الجديد. فتراها تتساقط كأوراق الخريف.

3 - انتشار القيم الاستهلاكية

الإنسان المعاصر لم يعد محاطاً بأناس آخرين؛ برجال ونساء وأطفال، كما في المجتمعات السابقة أو حتى الصناعية، أكثر من إحاطته بالأشياء: بالسلع والآلات والأجهزة...الخ. إن الأجهزة في بيوتنا هي العبيد المعاصرين. نمسك الريموت ونمارس سلطة على القنوات التلفزيونية والفديو وألعاب الكمبيوتر..الخ، أين منها سلطات الاستبداد القديم. لقد أعطى هذا المستهلك ثقة بالنفس وشعوراً بالسيادة لم يعرفها من قبل. ما جعله يفض عزلته ويدخل غمار المجتمع بكل قوة. وهكذا لم نعد نشاهد كثيراً من الحركات «الاغترابية» التي كانت تنتشر بكثرة في فترات متباعدة من القرن العشرين كالـ«هيبيز» وغيرها في الستينيات والسبعينيات. لم يعد هناك وقت لذلك. فالوقت أصبح مادة للاستهلاك. أوقات الفراغ تصرف بالطريقة التي تنتج فيها العلاقة الاجتماعية الجديدة. إن آلاف، إن لم يكن الملايين، من الأفراد يلتقون اليوم في أوقات فراغهم في غرف الدردشة على نوع الشيء الذي يمتلكونه: مثلاً أولئك الذين يمتلكون سيارة من نوع معيَّن؛ حيث تدور الأحاديث حول هذا الموضوع. في أحاديثهم الخاصة، ويتماهى كثيرٌ من الشباب مع ما يمتلكون فيقولون إن فلاناً من جماعة «البراند» أو العلامة التجارية المعينة أو أولئك من جماعة المتجر كذا. هؤلاء يلبسون جينز كذا.

لقد أصبح الاستهلاك يحكم الحياة الاجتماعية بكل أبعادها. من السلع الغذائية والخدمات إلى العلاقات الاجتماعية كما الثقافة والفنون. الفرد هنا لا يستهلك في سبيل إشباع رغباته وتحقيق ذاته فقط، بل لإيجاد مكان له في النظام الاجتماعي الجديد. لم يعد المطلوب التمرد على المجتمع بل الدخول إليه بشغف.

4 - ذوبان الفوارق الطبقية

في المجتمع التقليدي، الاستهلاك هو حقل تتفاعل فيه، وأحياناً تتصارع فيه مجموعة من القيم والثقافات والأذواق



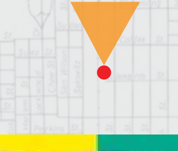
shutterstock

الاجتماعية المختلفة حسب أحوال مختلف عناصرها. إن الأفراد الذين ينتسبون إلى الطبقات العليا يحاولون، دون وعي منهم، تكريس سلم من الأذواق تكون فيه واضحة الحدود بين كافة المستويات كقواعد سلوك إزاء كافة الذين هم دونهم في المنزلة الاجتماعية.

يندرج في هذا السياق، وخصوصاً في المجتمعات الغربية، ليس فقط السلع الغذائية والمادية، بل أيضاً أنواع الموسيقى، والأوبرا، والمسرح، والكتب، ومعرفة اللغات الأجنبية، وفنون الرسم الحديثة.....الخ. هذه السلع لا يستخدمها أصحاب المداخيل المحدودة والعمال. بل أحياناً ينظرون إليها بازدراء.

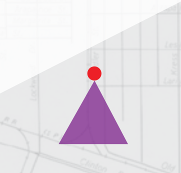
سابقاً، كان المستهلك من الطبقة الدنيا يعتقد أن الثقافة والمعرفة مرتبطتان. يعتقد أن «هكذا تجري الأشياء». ما يستهلكه «الكبار» يأتي من معرفة لا تتوفر لديه. فيقول: «أنا لا أعرف في الفن، لكنني أعرف ما أحب».

لقد تنبَّه خبراء التسويق وعلماء سلوكيات المستهلك باكراً إلى هذه الخاصية المهمة وركزوا إعلاناتهم وكافة وسائل الدعاية المباشرة إلى هذه الناحية بالذات. فتحولت مؤسسات بكاملها إلى مدارس للتدريب وتعليم كيفية الاستهلاك، بما فيها التلفزيون والراديو والصحف والمجلات. حتى أن السينما دخلت في عملية التحول هذه، فظهرت أفلام مثل «سيدتي الجميلة»، «إمرأة جميلة»، «تثقيف ريتا» وغيرها وغيرها جعلت المستهلكين الصغار يتنبهون إلى أنه ما يميز بائع الشارع عن الفتاة الغنية، في هذا الخصوص، قليل جداً من الثقافة ودروس في كيفية التكلم. فالغاية من الاستهلاك لم تعد سد الحاجة والمتعة فقط، بل الانتظام في ثقافة اجتماعية سائدة. ذلك سمح بدخول جيوش هائلة من المستهلكين الجدد إلى السوق لم يشهده الاقتصاد أبداً.





قبل ثورة الاستهلاك هذه، كان هناك كثير من الأماكن المخصصة للنخبة. من الأسواق والمتاجر ومؤسسات التعليم إلى المسارح وحفلات الموسيقى وغيرها. أما اليوم، وعلى الرغم من وجود كثير منها، إلا أنها تنحصر أكثر فأكثر في مجالات معينة.



المجتمع الاستهلاكي ينحو إلى صهر التباينات والاختلافات في ثقافة واحدة وسلوكيات متشابهة، وهذه تتوسع إلى زوايا الأرض الأربع.

إيجابيات الاستهلاك

تقوم النزعة الاستهلاكية بمهمة اجتماعية أساسية لم يستطع الاضطلاع بها معظم المشاريع الإصلاحية التي سبقتها؛ إنها تؤدي إلى إشباع رغبات وتطلعات الفرد في تحقيق ذاته. بواسطة الاستهلاك الحديث، لم يتم فقط القضاء على البشاعة، خصوصاً عند النساء، بل القضاء على كافة سلبيات الجسد.

والحال أن النزعة الاستهلاكية أدت إلى إخماد كثير من الحركات المسببة للاضطراب، وكانت المساهم الأكبر في القضاء على النزعات التي طالما اعتبرها الغرب مضرة به. ما زلنا نتذكر كيف كان الناس في الاتحاد السوفياتي السابق يتلهفون على السلع الاستهلاكية الآتية من الغرب، إلى أن هدموا كل الأسوار التي حالت دون حصولهم عليها. ويقول بعض المحللين إنه لو كانت النزعة الاستهلاكية سائدة أيام النازية لما وُجدت الأخيرة.

والاستهلاك على نطاق واسع أدى إلى انتعاش اقتصادي كبير وأوجد فرص عمل كثيرة. بالإضافة إلى أن النزعة إلى شراء العلامات التجارية الجديدة باستمرار يؤدي إلى تحفيز التطور العلمي والتكنولوجي.

سلبيات الاستهلاك

يقول «معهد الرصد العالمي» ومركزه واشنطن دي سي في تقريره تحت عنوان «حالة العالم 2010»: أن النزعة الاستهلاكية القوية السائدة هي المسؤولة الأولى عن تدهور البيئة واحترار الكرة الأرضية. و«لمنع انهيار الحضارة الإنسانية فلابد من تغيير إتجاهات الثقافة السائدة، التي يجب أن ترفض النزعة الاستهلاكية وتستبدلها بأخرى تركز على الاستدامة». وتعقب جريدة «الإندبندانت» البريطانية على هذا التقرير بعنوان: «نهاية النزعة الاستهلاكية: أسلوب حياتنا ليس قابلاً للاستمرار». ثم تستطرد: «يجب الرجوع إلى أسلوب حياة أساسي مثل استعارة الكتب وألعاب الأطفال من المكتبات بدلاً من شرائها، وأن يعود كل مواطن لإنتاج جزء من غذائه في الحديقة».

لقد أضيف المدمنون على التسوق والاستهلاك إلى لائحة أمراض أطباء النفس. يقول الدكتور «لورين كوران» أستاذ علم النفس في جامعة «ستانفورد»، «إن المدمنين على التسوق في الولايات المتحدة والذين يتم علاجهم هم بالملايين». ثم يعلِّق «أنه ليس فقط الأفراد مدمنون على التسوق والاستهلاك، بل أيضاً الاقتصاد هو كذلك».

بالأمس، كان تلمس الخلاص يتم من خلال الروح، اليومَ من خلال الجسد وإشباعه، وتجميله بالمواد الاستهلاكية وبالوصفات والعلاجات وأنظمة الريجيم. هكذا حلت المتاجر الكبيرة مكان الكاتدرائيات في المجتمع الغربي المعاصر.

جاري هامل: الإدارة الناجحة بحاجة إلى «أخلاق الفلاحين»



لا يزال الباحثون الاقتصاديون والإداريون غارقين في قراءة وتحليل أسباب أزمة المال العالمية التي انطلقت من الولايات المتحدة الأمريكية في سبتمبر 2008م وتمتد إلى أوروبا ودول آسيوية، لتصنَّف بأنها الأسوأ من نوعها منذ «الكساد الكبير» سنة 1929م. الباحث الأمريكي جاري هامل (Gary Hamel) أحد أبرز المحللين الذين عكفوا على دراسة تلك الأزمة وانتهى به المطاف عام 2012م إلى إصدار كتاب عنوانه «أهم المهمات الآن: كيف تفوز في عالم متنافس لا تتوقف فيه عجلة التغيير والابتكار؟». هشام محمد قربان، قلَّب صفحات هذا الكتاب (288 صفحة من القطع الوسط) وأعد هذه المراجعة.

يستمد كتاب «أهم المهمات الآن: كيف تفوز في عالم متنافس لا تتوقَّف فيه عجلة التغيير والابتكار» أهميته من أمرين. الأول أن موضوعه يستشرف علم الإدارة في المستقبل، والثاني أن مؤلفه جاري هامل من القامات العلمية الفذة التي تفخر بها «مدرسة لندن لعلم الإدارة»، كما أن «وول ستريت جورنال» اختارته واحداً من 5 خبراء مؤثرين في العالم هم بيل جيتس، وتوماس فريدمان، ومالكولم جلادويل، وهوارد جاردنر. وهو أيضاً مؤسس لكثير من الجمعيات الرائدة والمشهورة في مجال الإدارة.

ويرى هامل أن الأسس اللازمة لبناء منشآت تجمع بين أهليتها وجاهزيتها للتحدي المستقبلي ومواءمتها للفطرة الإنسانية، تتمحور حول خمس قضايا جوهرية هي: القيم، والابتكار، والمرونة، والشغف، والأيديوليجيات.

نهضة أخلاقية

ينطلق هامل في مؤلفه، من فكرة أساسية مفادها أن المستقبل يحتاج إلى نهضة أخلاقية. والأساس المتين لهذه النهضة، هو الاعتراف بأخطاء الأمس التي أفرزت التأزم الاقتصادي العالمي والتعلم منها، فالعقلاء يقرون – بعد وقوع الفأس في الرأس – بالآثار السيئة لسياسة الإغراق في الديون الناتجة عن تسهيل الاقتراض غير المنضبط لشراء العقارات، التي شجَّع عليها وأعانها ذلك الشعور الواهم بالأمن الذي نسجته شركات التأمين، ووقع كثيرون ضحية لعوامل معقَّدة وممارسات رأسمالية خطأ قوامها الطمع في الربح السهل، وقصر النظر، وتزييف التقارير السنوية، والخداع، والإنكار، وتقديم مكاسب الساسة وأعضاء مجالس الإدارة على المصالح العامة، وغياب الشفافية، والاستهتار بحقوق المستهلكين.

نحن جميعاً في حاجة مُلحة إلى إعادة اكتشاف ونشر وتعلم «أخلاق الفلاحين»، الذين كانت حياتهم ولا تزال مدرسة لكثير من القيم التي نسيناها مثل العمل الجاد، والكرامة، والتضحية، والتوفير، وتنويع المحاصيل للمحافظة على جودة التربة، والحصانة من إغراءات العروض البنكية، انطلاقاً من المقولة الشهيرة «لا تشترِ إلا ما تملك ثمنه».

فالمستقبل يدعونا – في النظام الرأسمالي خصوصاً– إلى التخلص من متاهة النرجسية، والشعور بالكمال الزائف، وضرورة نقد الذات، وإعادة النظر في كثير من المفاهيم والفرضيات الأساسية المتعلقة بالأهداف الحقيقية للمنشآت، ومن هو المستفيد الفعلي من أعمالنا؟ وما فائدة ما نعمل وما هي قيمته المضافة؟ لا بد للنهضة الأخلاقية من التخلص من الأفكار الهدامة والسامة وإبدالها بقيم جميلة وبناءة، فلم لا نجعل تحسين حياتنا كبشر الهدف الرئيس لأعمالنا بدلاً من سعينا القديم وراء الربحية؟ ولم لا يجاوز منظورنا لعملائنا الحدود الضيقة في كونهم من يشتري ما ننتج، ويتعداها إلى منظور شامل إلى كونهم بشراً تتأثر حياتهم بمشاريعنا وقراراتنا؟ هل نبني علاماتنا التجارية على أساس من عرض الفوائد الحقيقية لمنتجاتنا أم على أساس الاستثمار في خطط تسويقية جوفاء ومكلفة؟

ضمان المستقبل

ليس الابتكار ترفاً أو موجة عابرة، بل هو ضرورة

من الرف الآخر.. اقرأ

تدفعنا إليها تحديات حياتية كبيرة، فالابتكار الذي تُحتِّم أهميته علينا إعادة النظر في تعريفنا له، يعيننا على إيجاد حلول لمعضلات ضخمة يشكل كل منها نظاماً معقداً متعدد الأبعاد والعوامل والمتغيرات مثل التغير المناخي العالمي، والأوبئة الجديدة، والجريمة، والفساد، والتغول السياسي.

ومن المهم في هذا السياق التعرف إلى خمسة أصناف مختلفة للابتكار والمبتكرين، والدروس المستقاة من كل صنف تختلف في سياقها عن غيرها، ولكن تجارب الأصناف الخمسة -في مجموعها- تعطي مفهوماً أرحب وأكثر شمولاً للابتكار، وهي:

1 - **الصواريخ:** مصطلح يشير إلى بعض الشركات الناشئة ذات النماذج الجديدة والجريئة، التي أحرزت نجاحات سريعة جعلتها تزاحم بعض الشركات الكبرى، وهي تُصنَّف من ضمن الشركات الأكثر ابتكاراً في العالم، مثال: Gilt Group, Hulu Web TV, Spotify Music، ولكن التحدي الذي يواجه هذا الصنف هو المحافظة على القدرة على الابتكار. والصواريخ – كصورة رمزية - كما نعرف تسير في مسار بيضاوي، تبدأ بالانطلاق بعيداً، ثم ما تلبث أن ترجع إلى نقطة انطلاقها.

2 - **الكبار:** مصطلح يصف الشركات الكبرى مثل Microsoft, Novartis, Intel التي تواصل الابتكار عاماً بعد عام، وذلك يرجع إلى استثماراتها الضخمة في مجال البحث والتطوير، ولكن القدرة على الابتكار لدى هذه الفئة تظل محدودة، وكثيراً ما تفشل أمام شركات صغيرة. ففي الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال، حصلت شركة سامسونج على 4551 براءة اختراع عام 2010، لكنها ليست العلامة التجارية الأكثر رواجاً في أمريكا في مجال التلفزيون ذي تقنية LCD، بل تنافسها شركة صغيرة ناشئة اسمها VIZIO يعمل فيها 200 عامل، وتتجاوز مبيعاتها السنوية 2.5 بليون دولار.

3 - **الفنانون:** وهو تصنيف يشير إلى نمط من الشركات يختص بإنتاج الابتكار نفسه والتركيز عليه، وتمثل في مجموعها ثلث عدد الشركات الابتكارية، مثل BMW Design Works ، IDEO، Grey New York للإعلان. فهذه شركات تديرها نخبة من الفنانين، تثمن الأفكار الجريئة، وتبني عليها، ولا تتعجل في الحكم عليها وتصنيفها، وتحرص على استدرار أكبر عدد من الأفكار.

4 - **الرجل ذو القوى الخارقة للعادة:** ومثال هذا الصنف شركات رائدة تعيش وتتنفس الابتكار في أغلب أمورها وأساليبها الإدارية غير النمطية، مثل Apple, Amazon Google.

5 - **التائبون الجدد:** وأمثالهم شركة FORD, Procter & Gamble, IBM، وهي شركة قديمة اعتنقت الابتكار أخيراً، وبدأت رحلة مضنية وجادة للتغيير.

المرونة والقدرة

من أهم الدروس في هذا المجال هو الاعتراف بحاجتنا إلى تغيير أنماطنا في عصر تتسارع فيه المتغيرات، ويتبدل فيه كثير من المسلمات في العلوم ومجالات أخرى، ولعل أهم سؤال ينبغي طرحه في كل منشأة للبحث عن إجابة مقنعة: هل تواكب منشأتنا التغيير من حولنا؟ لعل الإجابة بالنفي هي الأصح، ولعل الناظر في صناعة الهواتف المحمولة يرى ما نقصد بالمرونة وتغيير طريقة التغيير. فلقد أسست هذه الصناعة شركة موتورولا التي ظنت في حينها أنها آمنة من المنافسة، حتى أتت شركة نوكيا، ثم زاحمتها شركة بلاك بيري، ثم نافستها شركة أبل بالأيفون.

أقوى من التحدي

يقر هامل بأن مبحث «اجعل منشأتك أقوى من التحدي المستقبلي»، جدير بأن يؤلف فيه كتاب خاص، ويذكر هنا ستة عوامل رئيسة تعتمد عليها قدرة أي منشأة على التكيف لتكون أقوى من التحدي المستقبلي، ثلاثة من هذه العوامل تتعلق بأنواع التكيف:

1 - **التكيف المعرفي:** عن طريق تحدي الفرضيات وتنويع الموارد والتشجيع على خلاف التنوع.

2 - **التكيف الاستراتيجي:** من خلال تنويع الخيارات الاستراتيجية وإجادة فن جذب الأفكار الكبيرة وتقليل تكلفة التجريب.

3 - **التكيف الهيكلي:** أهم نصيحة هنا هي عدم حصر المنشأة لصورتها الذاتية وكينونتها في سوق محددة أو منتج متخصص، وأفضل من هذا تعريف المنشأة نفسها على أساس مهاري ومنصات عمل واسعة النطاق.

أما العوامل الثلاثة الأخرى فتتعلق بتوقعاتنا وهي: التنويع، وقيم استيعاب الأخطاء وسرعة معاودة الكرة، والتعلم من جديد.

أما توقعاتنا، فلا مفر لنا من مواجهة التغيير الذي لا يمكن منعه، وينبغي ألاَّ يقتصر تعلمنا من بؤرة التغيير، ولنتعلم من الأطراف البعيدة، كما نحتاج أن نتخيل أنماط المستقبل المحتملة (سيناريوهات): لا تكفي رؤية الموجة المستقبلية من بداياتها، ولا بد من تخيل مآلات الأمور لهذه الموجة، والطرق المختلفة لتفاعلها وتطورها، وهذا يقوي مرونة المنشأة وجاهزيتها لاحتمالات مختلفة قبل حدوثها.

4 - **الشغف:** كلنا لا نحب أن يعالجنا طبيب يقتل مرضاه، وكذلك فإننا لا نأمن شرطياً إذا علمنا أنه ارتكب عدداً من الجرائم يفوق عدد التي منع حدوثها، وأمثال هذه الحالات الشاذة تغضبنا، ولكننا في المقابل نتصرف ببرود ولامبالاة حينما تواجهنا أبحاث موثَّقة تبيِّن مسؤولية الإدارة في خنق نار الابتكار والحماس داخل المنشآت ومحاربتها للجهود الابتكارية بدلاً من تشجيعها واحتضانها. وفي هذا السياق نستشهد بالدراسة الاستقصائية الكبيرة حول نسبة المشاركة الفعلية للعاملين (Engagement) التي أجرتها Towers Watson في عامي 2007-2008. شملت هذه الدراسة 90 ألف موظف في 18 بلداً، وأظهرت أن نسبة المشاركة الحقة من قبل العاملين في الشريحة المدروسة بلغت 21%، أما نسبة المشاركة الجزئية أو عدم المشاركة فبلغت 38%.

ولعل أهم الأسباب لتدني اهتمام بعض المسؤولين الإداريين برفع مستوى المشاركة: الجهل بتدني نسبة مشاركة العاملين، عدم الاهتمام، والإحساس بالعجز تجاه هذه الظاهرة غير الصحية.

مصلحة الأفراد

لمبحث «تقديم مصلحة الأفراد على المنشآت» صلة وثيقة بالشغف، فلا يتوقع ولادة هذا الشغف ونموه وسلامته في وسط لا يثمن الفرد لذاته وقدراته، ويقدِّم مصلحة المنشأة على مصلحة أفرادها. ومن المؤسف أن نجد عدداً لا يستهان به من البحوث والاستبانات يشير إلى تدني مستوى الثقة في المنشآت. فمثلاً تذكر إحدى الدراسات الأمريكية، تدني مستوى الجدارة بالثقة للساسة والإداريين التنفيذيين، في حين تذكر دراسة أخرى أن 75% من الأمريكيين يرون تدني مستوى المصداقية للمعلومات التي تصلهم من الرؤساء التنفيذيين في الشركات.

ويقترح جاري هامل عدداً من المنطلقات التي نبني عن طريقها منشآت تتمحور حول خدمة الإنسان الذي يعمل بها وهي: البعد عن المركزية، والشفافية، والحرص على بناء جماعات متآلفة داخل المنشآت بعيداً عن الطبقية، وإعطاء العاملين الصلاحية في تقييم أداء من يقودهم، المكافأة على أساس المشاركة والأثر (وليس على أساس السلطة والمسمى الوظيفي)، واستبدل التقييم الوظيفي بالتقييم بين الأنداد بدلاً من تقييم الأعلى للأقل رتبة وظيفية.

تحدي الأيديولوجيات

لعل البعض ينكر وجود هذا المسمى في عالم المنشآت، ولكنه موجود وإن اختلف مسماه. وفي هذا السياق تبرز ثلاثة أسئلة: ما هي الأيديولوجية الإدارية المتمثلة في اللب والحقيقة المركزية لمفهوم الإدارة؟ ما هو النقيض الفكري لهذه الحقيقة المركزية؟ وكيف نؤسس منشآت يتجاذبها الطرفان في توازن وتجاذب خلَّاق ومبدع، فلا يفوز جانب على حساب الآخر؟

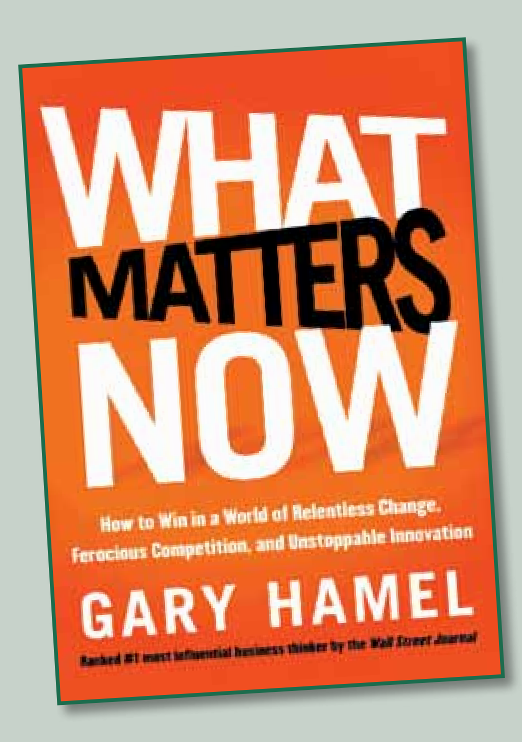
إن التحول الإداري من المفهوم الطبقي إلى الإدارة بلا طبقية، تجربة واعدة وجديرة بالتأمل، ومن أجمل الأمثلة Gores & Associates، وهي شركة أسسها مهندس كيميائي W. L. Gore في عام 1958 يعمل فيها 9 آلاف مشارك في 50 بلداً، وتنتج 1000 منتج، ولم تخسر هذه الشركة منذ إنشائها قبل 50 عاماً.

وتصف الرئيسة التنفيذية لهذه الشركة تيري كيلي الممارسات التي يستغربها الناظر من خارج الشركة، فتقول: ليس لدينا طبقية، فلا يوجد لدينا رؤساء ونواب رؤساء، واتخاذ القرار لا يخضع لأي طبقية، فبإمكان أي عامل لدينا التواصل مع أي شخص للعمل أو اتخاذ قرار ما، ولا توجد في شركتنا ألقاب أو مناصب، فكل العاملين شركاء، وكل عامل لدينا حر تماماً في اختيار ما يمكنه عمله وما يمكنه إنتاجه، ولا يتم تعيين القادة من المناصب العليا حسب الأقدمية أو العلاقات، بل إن أتباع هؤلاء القادة – موظفون آخرون – ومن يثق بقدراتهم هم من ينصبونهم في مناصبهم القيادية.

وفي هذا السياق أسس جاري هامل مشروعاً يهدف إلى رفع سقف الطموحات وإعادة ابتكار علم الإدارة للقرن الحادي والعشرين هو «مجموعة حوار الابتكار الإداري».

ويقول جاري هامل، إن نشأة هذه المجموعة ترجع إلى لقاء متميز نسَّقه في عام 2008، ودُعي إليه 36 خبيراً من أهم المختصين الإداريين في العالم، ووجَّه إليهم سؤالاً مهماً هو: ما هي أحدث البحوث والتحديات الفكرية في علم الإدارة، التي توازي في مستواها وأهميتها تلك المشاريع العلمية مثل مشروع الجينوم البشري ومشروع تقنيات الحاجز الكربوني واكتشاف المريخ؟

واختار جاري هامل هذا السؤال لأنه لاحظ ظاهرة مقلقة وغير صحية، وهي أن كثيراً من الباحثين ومنسقي البحوث الإدارية منشغل بملاحقة وتوثيق أفضل الممارسات والتجارب، وبهذا فالإبداع والابتكار الإداري جزئي وبطيء، لأنه مشتت الذهن ومحدود وقاصر على متابعة النجاحات القائمة. فلماذا لا يوجد بيننا من يسأل أسئلة جوهرية حول إعادة اختراع الإدارة؟ أسئلة تشابه في تحديها تلك التي تشغل بعض المجالات العلمية مثل: اختراع آلة تفكر مثل البشر، وأساليب التحكم في التصنيع بتقنيات النانو.



واستخلص من هذا التساؤل 25 تحدياً فكرياً وأفاقاً ابتكارية جديدة تواجه المختصين منها: الارتقاء بأهداف الإدارة، وزيادة الثقة وإنقاص الخوف، وابتكار وسائل أفضل للتحكم، والتشجيع على القفزات التخيلية، وإضفاء المتعة على مفهوم العمل، وتجهيز نظام شمولي لتقييم الأداء.

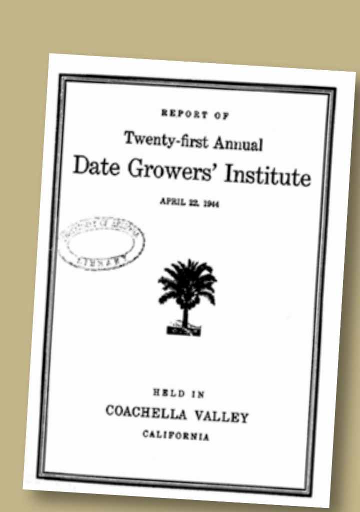
وقررت المجموعة توجيه بوصلة البحوث لهذه التحديات، ويعلن بين الحين والآخر عن مسابقات بحثية تتعرض لواحد أو أكثر من هذه التحديات، ويتم اختيار ما يعرض من التحديات بالتشاور بين المجموعة ودورية هارفارد للأعمال ومجموعة ماكنزي الاستشارية.

عشرون سبباً لاهتمام الأمريكيين بالنخلة

كيف هاجر النخلُ إلى أمريكا..؟

عُرفت النخلةُ بالشجرة القديمة، فهي تغرس جذورها في الأرض منذ أكثر من 6 آلاف سنة. حيث كان نخيل التمر أول نبات زرع في بابل والجزيرة العربية قبل أكثر من 4 آلاف سنة قبل الميلاد. ويطلق على شجرة النخيل: شجرة الحياة، وذُكرت النخلة أو الشجرة المباركة في جميع الكتب السماوية، حيث ورد ذكرها في التوراة، والإنجيل، والقرآن الكريم. وذكرت أيضاً في السُنَّة النبوية. ويُعد التمر من أهم مصادر الأغذية في المناطق الصحراوية في العالم القديم.

كانت المنطقة العربية وخاصة في شمال إفريقيا وبلاد النهرين والجزيرة العربية أهم مواطن نخيل التمر، ولم يعرفها العالم الجديد حتى ما قبل قرن ونصف القرن تقريباً، حيث قام باحثون أمريكيون بجلبها من الصحاري العربية ونقلها عبر البحار واستزراعها وتحسين سلالاتها وتعزيز منتجاتها وحمايتها بشبكة واسعة من الأبحاث العلمية التي تحافظ على هذا المنتج الحيوي وتعزز وجوده وتفتح الأسواق أمامه وتضع الحلول أمام الآفات الطبيعية والبيئية التي تعترضه، حتى أصبحت أمريكا اليوم واحدة من أهم الدول في إنتاج التمور، ويتمتع منتجها بالجودة والقيمة الاقتصادية. في المقال التالي يتناول الدكتور خالد بن ناصر الرضيمان، عضو هيئة التدريس في جامعة القصيم، قصة هجرة النخيل إلى الولايات المتحدة، ويُعدد عشرين سبباً لاهتمام الأمريكيين بالنخلة وثمارها.


REPORT OF
Twenty-first Annual
Date Growers' Institute
APRIL 22, 1944

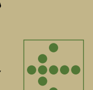
HELD IN
COACHELLA VALLEY
CALIFORNIA



Corbis

مزارعون يقطفون محصول التمر في أريزونا

الدكتور والتر سوينجل يتفحص محصول التمر



على الرغم من أن المشرق العربي كان موطن النخلة، فقد عرفت الولايات المتحدة الأمريكية زراعة النخيل في العام 1857م، حيث تمت زراعتها في الولايات الجنوبية مثل أريزونا وكاليفورنيا ونيفادا، وتمت زراعتها بوساطة المزارعين الإسبان الذين زرعوا النخيل عن طريق البذور، وكانت بداية إنتاج التمر في عام 1877م ولكن نوعية التمر لم تكن جيدة.

ولعبت وزارة الزراعة الأمريكية دوراً مهماً في نشر زراعة النخيل في أمريكا، حيث قامت بتمويل الأبحاث العلمية المتعلقة بالنخيل والتمر وخاصة عن طريق محطات التجارب التابعة لها في ولايتي كاليفورنيا وأريزونا اللتين لهما دورٌ مهمٌ في تطور النخيل وخاصة في مجال الأبحاث التطبيقية التي تؤثر في نمو النخيل، وأيضاً على كمية وجودة التمور المنتجة تحت الظروف البيئية في الولايات المتحدة.

في العام 1890م استوردت وزارة الزراعة الأمريكية من المغرب والجزائر وتونس ومصر والعراق وسلطنة عمان مجموعة من فسائل النخيل المختلفة معظمها صنف «دجلة نور» من دول شمال إفريقيا، وصنف «البرحي» من العراق، وتمت زراعتها في محطات الأبحاث الخاصة بالوزارة في كل من ولاية كاليفورنيا، وولاية أريزونا وفي تكساس، ونيومكسيكو. وبعد نجاحها وإنتاجها فسائل جديدة، تم توزيع هذه الفسائل على المزارعين الراغبين في زراعة النخيل مجاناً، والباقي زُرع في مراكز الأبحاث التابعة لوزارة الزراعة لأغراض الدراسة والبحث وتطبيق التجارب الحقلية عليها.

المؤسس الحقيقي

وتولى الدكتور «والتر سوينجل» الذي كان يعمل في وزارة الزراعة الأمريكية وكان متخصصاً في علم النبات عمليات الاستيراد، وبذل مجهوداً كبيراً من أجل استيراد مجموعة من فسائل النخيل من الدول العربية. وقد واجهة صعوبة في شرائها خاصة من واحات الجزائر في الصحراء، حيث كانت تلك الفسائل تنقل بوساطة الجمال إلى المدن الغربية في الجزائر، ثم يتم نقلها بوساطة القطار البخاري حتى الساحل، ويتم بعدها النقل بوساطة السفن البخارية إلى مدينة نيويورك، ثم تنقل من هناك بوساطة القطار البخاري إلى محطات الأبحاث الزراعية في مدينة ياما بولاية أريزونا، ومحطة أنديو بولاية كاليفورنيا. وخلال هذه الرحلة الطويلة كان الدكتور والتر سوينجل يرافق هذه الفسائل منذ بداية الشراء حتى غرسها في هذه المحطات. وقد أقام الدكتور والتر سوينجل فترة من السنوات في مدينة انديو ليتابع تجاربه البحثية العلمية التطبيقية حتى نجحت زراعة الفسائل، وهو كان المشرف على محطة الأبحاث في مدينة انديو. وبعد نجاح زراعة الفسائل تم توزيعها على المزارعين الراغبين في زراعة النخيل مجاناً، وانتشرت بعد ذلك زراعة النخيل في الولايات الجنوبية، وقد تفوقت هذه الأصناف المستوردة من الدول العربية في الجودة على الأصناف المحلية التي تم تكاثرها من طريق البذور بوساطة المستوطنين الأمريكيين في تلك الفترة. وكان أحد أهم أسباب انتشار زراعة النخيل في أمريكا قيام الدكتور والتر سوينجل بمهمة استيراد فسائل النخيل من الدول العربية وزراعتها هناك، لذا أطلق عليه المؤسس الحقيقي لزراعة النخيل في الولايات المتحدة.

وفي بداية العام 1913م تم إنشاء جمعية مزارعي النخيل في وادي كوتشيلا في جنوب كاليفورنيا من قبل مزارعين يمثلون القطاع الخاص الذي يلعب دوراً مكملاً لدور وزارة الزراعة الأمريكية في توطين زراعة النخيل، واستورد آلاف من فسائل النخيل من الدول العربية وخاصة صنف «دجلة نور»، كما استورد بعض مزارعي النخيل الفسائل لمشاريعهم التجارية وخاصة في جنوب كاليفورنيا، ومدينة ياما في ولاية أريزونا. ونتيجة لزيادة الإنتاج والطلب على التمر في ولاية كاليفورنيا وغيرها من الولايات، أنشأت جمعية مزارعي النخيل مصنعاً للتمر لمساعدة جميع أعضائها فيما يحتاجون من خدمات زراعية وتقديم الإرشاد الزراعي والاستشارات الزراعية في مجالات النخيل والتمر وخدمات ما بعد الحصاد مثل: التعبئة والتخزين والتسويق باستخدام وسائل الإعلام المختلفة.

كما أشرفت جمعية مزارعي النخيل على إصدار مجلة متخصصة لنشر البحوث ونتائج الندوات والمؤتمرات واللقاءات العلمية عن النخيل والتمر في الولايات المتحدة ودول العالم الأخرى المعروفة بأوجه نشاطها العلمية عن النخيل والتمر. وقد ظلت هذه المجلة التي تحمل اسم (date




Shutterstock

شجرة نخيل في كاليفورنيا

growers inst) تصدر بانتظام حوالي 50 سنة متصلة، ولم تتوقف عن الصدور إلا في الربع الأخير من القرن العشرين بعد أن أوقفت وزارة الزراعة الأمريكية الدعم المادي عن أبحاث النخيل والتمر.

جواهر الصحراء

في كاليفورنيا يُطلق على النخيل: «جواهر الصحراء» Jewels of The Desert. ويعكس هذا المصطلح اهتمام الأمريكيين بحماية وحفظ هذه الجواهر، وخاصة فيما يتعلق بحمايتها من الآفات الزراعية. لكن تحدي الطبيعة كان قاسياً، ففي شهر يناير من عام 1937م، أصابت كاليفورنيا موجة صقيع قاسية حيث وصلت درجة الحرارة 13 درجة على مقياس فهرنهايت في جنوب الولاية لمدة ثلاث ليالٍ، مما تسبب في حدوث أضرار أصاب سعف النخيل، وشمل هذا الدمار ما بين 50 إلى 90% من السعف، وكانت نتيجة هذا الصقيع حدوث انخفاض كبير للغاية في إنتاج التمور ذلك العام، كما إن النوعية كانت رديئة. وفي سنة 1938م كان الطلع قليلاً أيضاً، واستمرت المشكلة لمدة ثلاث سنوات حتى تحسن الإنتاج والنوعية للتمر بعد اختفاء أضرار الصقيع.

أما من حيث الآفات، فقد اهتمت وزارة الزراعة الأمريكية بجميع الأمراض التي تصيب النخيل حتى تتمكن من تشخيصها في مرحلة مبكرة من الإصابة ليسهل مكافحتها، وأيضاً تعرفت إلى الأمراض والآفات التي تصيب النخيل في دول العالم الأخرى لمنع دخولها إلى الولايات المتحدة عن طريق فرض قوانين الحجر الزراعي الخارجي وذلك من أجل حماية النخيل.

وقد استمر التوسع في زراعة النخيل سواء في ولاية كاليفورنيا أو ولاية أريزونا، ونجح الأمريكيون في زراعته وخدمته، وتوصلوا عن طريق الدراسات إلى أفضل النتائج في زيادة الإنتاج وتحسين صفات الثمار عن طريق بحوث التسميد والريّ ومقاومة الآفات الحشرية والأمراض الفطرية وتلافي العوامل الجوية المعاكسة. كما تم الاهتمام بتعبئة التمور وتبخيرها وتصنيعها وتخزينها وتسويقها بأساليب مختلفة تحقق رغبات المستهلكين في أمريكا وخارجها.

وقد بلغ إنتاج التمور في الولايات المتحدة الأمريكية 16511 طناً وبلغت المساحة المزروعة بالنخيل 2102 هكتار وأصبح ترتيب الولايات المتحدة التاسع عشر على المستوى العالمي في كمية إنتاج التمور. وتزايد الطلب على استهلاك التمور ليس فقط في أمريكا وحدها بل على المستوى العالمي، وبلغ إنتاج التمور على المستوى العالمي سبعة ملايين طن، وبلغت المساحة المزروعة بالنخيل أكثر من 12 مليون هكتار (كما يشير الكتاب الإحصائي لمنظمة الغذاء والزراعة 2010م).

عشرون سبباً

أما لماذا أقبل الأمريكيون منذ أكثر من قرن ونصف القرن على زراعة النخيل، والاهتمام بها ورعايتها، مثلما اهتموا بزيادة إنتاج التمور وتحسين جودته، فهناك أسباب عديدة رسخت الوعي بقيمة النخلة، يمكن تحديد عشرين سبباً منها:

1 - تتحمل زراعة نخيل التمر الظروف البيئة القاسية من درجة حرارة عالية، وملوحة التربة، ومياه الري، وقلة الاهتمام بالتسميد، والخدمات الفنية الأخرى. كما تتحمل الجفاف في الولايات الجنوبية الأمريكية، وقلة الأمطار والرياح الجافة.

2 - تعد الظروف المناخية في بعض ولايات أمريكا مثل: كاليفورنيا وأريزونا وتكساس ونيفادا وبعض الولايات الجنوبية مناسبة لزراعة النخيل وإنتاج التمور.

3 - وجود مصادر المعلومات عن النخيل والتمور في الولايات المتحدة ومن أهم مصادر المعلومات: وزارة الزراعة الأمريكية، وكذلك بعض الجامعات الأمريكية؛ ومنها جامعة كاليفورنيا في ريفر سايد، وديفيز وجامعة أريزونا وبعض الجامعات الأخرى في البلاد.

4 - أسهمت جودة التمور ومنتجاتها الثانوية، وخاصة حين حظيت بحملات تسويق قامت بها وسائل الإعلام المختلفة، التي أبرزت القيمة الغذائية والعلاجية للتمور في تشجيع كثير من المستهلكين في الولايات المتحدة على استهلاكها.

5 - ذُكرت النخيل والتمور في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والقرآن الكريم، ففي التوراة جاء ذكر النخيل والتمور أكثر من 50 مرة، أما في القرآن الكريم فذكرت 20 مرة، وهي الشجرة التي يُطلق عليها أسماء جميلة من بينها «شجرة الحياة».

6 - يدخل التمر في أكثر من 200 وصفة أو طبخة غذائية في أمريكا، حيث إن كثيراً من محلات بيع التمور المتخصصة في جنوب كاليفورنيا وأريزونا وتكساس تقدِّم أصنافاً متنوعة من الأغذية المحتوية على التمور منها العصائر والآيسكريم المكونة من التمر، وأيضاً وجود التمر في كثير من الأسواق ومحلات بيع الأغذية في جميع الولايات الأمريكية مما ساعد على انتشار استهلاك التمر.

7 - أنشأت وزارة الزراعة الأمريكية أول مركز متخصص لأبحاث النخيل والتمور في عام 1904م بمدينة أنديو في كاليفورنيا، وعمل في هذا المركز كثيرٌ من الباحثين المتميزين. وتم إنجاز كثيراً من الأبحاث العلمية التطبيقية المختلفة عن النخيل والتمور التي تهم المزارعين والعاملين في مجال النخيل والتمور، كما صدرت من المركز كثير من



الأبحـاث العلمية والنشـرات والكتب والتقارير الفنية عـن النخيل والتمور استفـاد منها كثير من المزارعيـن والباحثين والمهتمين بالنخيل والتمـور داخـل أمريـكا وخارجهـا، وكان لهذا المركز أعظـم الأثر في تعميـق الوعي بأهمية النخيل وتقديم الاستشارات في مجال زراعتها.

8 - أصبحـت زراعة النخيل تقليـداً شعبياً، حيث يقـام احتفال سنـوي عـن النخيل والتمـور لمدة عشرة أيام في شهر فبراير من كل سنة في مدينة أنديـو بولايـة كاليفورنيـا. ويُقـام هـذا الاحتفال سنويـاً منذ العـام 1945م، ولايـزال يحافظ على بريقه منذ 67 عاماً تقريباً. حيث يحتوي على عدة نشاطات مختلفة اقتصادية واجتماعية وترفيهية، ويحضـره آلاف الزوار من داخـل كاليفورنيا ومن الولايـات الأخـرى، كمـا يحضـره زوار من خارج الولايات المتحدة.

9 - حظي النخيل المزروع في الولايات المتحدة بتطبيـق نظـام الممارسـات الزراعيـة الجيدة أو «جلوبـال جاب» أو الزراعـة النظيفة. ويوجد كثيـرٌ من المزارع التي تستخـدم نظام الزراعة العضوية، أي بدون استخدام أسمدة كيميائية أو مبيـدات كيميائية، أو أي مواد أو معاملات تضر بصحـة الإنسان وتؤثر على البيئة. وتطبِّق وزارة الزراعـة الأمريكية أنظمة الزراعـة المستدامة التـي تحافظ علـى المصـادر الطبيعيـة وتهتم بصحة الإنسان وسلامة البيئة.

10 - وعى الأمريكيون للقيمة الغذائية للتمور، حيث تحتوي التمور على العناصر الغذائية والفيتامينات والأليـاف، وتُعد مصـدراً مهماً وجيـداً لمضادات الأكسـدة. ومـن المميزات الغذائية للتمـور أنها لا تحتوي على الدهون والصوديوم والكوليسترول، ولا يُستخـدم معها أي مواد حافظة أو مواد ضارة على صحة الإنسان والبيئة.


مهرجان التمور الوطني في مقاطعة ريفرسايد

11 - تحتـوي التمـور علـى نسبـة عاليـة مـن السكريـات، لـذا يُطلـق عليهـا الحلـوى الطبيعية (Natural Candy) لذلك من السهل جداً تحويلها إلى سكر التمر. كما أن التمر مصدر جيد للأغذية الصحية للمستهلكيـن أو الأشخاص الذين يتبعون حميـة معينة أو وجبـات متخصصـة حيث تحتوي التمـور علـى نسبة عالية مـن عنصـر البوتاسيوم وعنصـر الماغنسيـوم وعنصر الحديـد والأليـاف والفيتامينـات والانزيمـات وكميـة قليلـة جداً من الدهون والصوديوم ولا تحتوي على الكوليسترول.

12 - يحتـوي التمـر علـى كميـة عاليـة جـداً من مضادات الأكسدة، ويُعد من أكثر الفواكه المحتوية علـى مضـادات الأكسـدة (1600 ملجـم/100 جـرام)، بينما التفاح - مثلاً - يحتوي على (256 ملجـم/100 جـرام)، والكرز يحتـوي على (458 ملجـم/100 جـرام)، والموز يحتـوي على (157 ملجـم/100 جرام)، والعنـب الأحمر يحتوي على (95 ملجم/100 جرام).

13 - تتميز التمور بأنها تضاف بأشكال مختلفة إلـى الأغذية مثـل الحبوب والخبـز والحلويات والمعجنـات والكيـك والآيسكريـم والعصائـر وأغذية أخرى، وتدخل التمور في أكثر من 100 وصفة او طبخـة غذائية في ولايـة كاليفورنيا، وأكثر مـن 200 وصفة أو طبخـة غذائيـة في الولايات المتحدة.



مهرجان تذوق التمور في أمريكا

14 - اعتمدت هيئة الغذاء والدواء الأمريكيـة التمـور كأغذيـة صحيـة وخاصـة لمدارس الأطفال.

15 - يُستخـدم مطحـون التمر أو بـودرة التمر بدلاً عـن السكر العادي في بعض المشروبات والأكلات الأمريكية وأحياناً بديلاً عن العسل.

16 - التمـور فـي الولايات المتحـدة خالية من المواد المعدلة وراثياً، ولا يوجد بها مواد تسبب الحساسية للأشخـاص الذين لديهم حساسية من بعض الأغذية.

17 - مـن أسبـاب انتشـار استهـلاك التمـور في أمريكا وجـود أعداد كبيرة مـن المسلمين حيث بلغ عـدد المسلمين في الولايات المتحدة أكثر مـن 10 ملايين مسلم بسـب الهجرة إلى أمريـكا أو اعتناق كثير مـن الأمريكيين الدين الإسلامي.

18 - سهولة حفظ وتخزيـن وتداول التمور في درجة الحرارة العاديـة، وأيضاً إمكانية حفظه لمدة أكثر من سنة في درجة حرارة منخفضة.

19 - كثرة أصنـاف وتنوع التمور مع الاحتفاظ بنفـس القيمة الغذائيـة لأنواع التمـور. فمثلاً: يكثر استهـلاك صنـف «دجلة نور» و«المجدول» و«البرحـى» فـي الولايـات المتحـدة بخـلاف الخليـج العربـي الـذي يكثـر فيـه استهـلاك أصنـاف «الخلاص» و«السكـري» وغيـره من أصناف التمور.

20 - أسعار التمور في الولايات المتحدة مقارنة بالفواكه الأخرى رخيصة. حيث إن متوسط سعر الكيلوجـرام مـن التمور مـن خمسة إلـى عشرة دولارات. وتعتمـد الأسعار على الصنف والجودة والعبـوات المستخدمـة، وقـد أسهـم رخـص الأسعـار في انتشار استهـلاك التمور لدى جميع طبقات المستهلكين.


Corbis
مزارع النخيل في كاليفورنيا

1 الإفطار والذكاء

عند سـن السادسـة تكون القدرة المعرفية، من الناحية الشـفهية والأدائيـة، عنـد ذروة تشـكلها. فـي هـذه الحالة يكـون الدماغ في حاجة ماسـة إلى التزود بالوقود خصوصـاً بعد فترة صيام طويلة خلال النوم. فالدماغ في هذه الفترة لا يكون في حالة الاستراحة بل العمل. من هنا أهمية الفطور في هذا الوقت.

كمـا أنـه مـن الأهميـة بمـكان تنـاول الإفطـار بمعيـة الأهـل. فالتواصـل الاجتماعي مع الأهل في هذا الوقت والتحادث معهم، هي الفرصـة المثلى للطفل لامتحان قدراته المعرفية المكتسبة من المفردات اللغوية وجمعها وفهمها في سياقات مروية يومية. وذلك مع أناس لا يشعر أمامهم بأي حرج إلا وهم أهله.

لقد قام قسـم التمريض بجامعة بنسـيلفانيا بدراسـة واسعة على 1269 طفـلاً في سـن السادسـة في الصـين، حيـث للإفطار قيمة اجتماعيـة عاليـة. وتبيَّـن أن الأطفال الذين لـم يتناولوا الإفطار هـم أقل 5.58 نقطـة ذكاء فـي قدرتهـم الشـفهية و2.5 نقطة في قدرتهم الأدائية.

كمـا تبيَّـن مـن الدراسـة أن الذين لا يتناولـون الإفطار هـم أكثر قابليـة مـن الآخرين لاكتسـاب تصـرفات غير صـحية كالتدخين المبكر وتناول الكحول وعدم القيام بتمارين رياضية.


Shutterstock

2 هل رائحة الكبار مختلفة؟



عندمـا يقترب الصـغار من الكبار، ماذا يشـمون؟ هـل يتلقون نفس الرائحة؟

بعكـس الاعتقـاد السـائد بين معظم النـاس أن رائحة الكبار تصـبح منفِّرة، تبيَّـن لعالـم النفـس «جوهـان لاندسـتروم»، مـن مركـز التحسس الكيميائي في فيلادلفيا، أن ذلك ليس صحيحاً.

جـاءت هـذه النتيجـة بعـد اختبار واسـع على عـدة فرق مـن الأفراد مـن أعمـار تتراوح بيـن العاشـرة والتسـعين سـنة. المجموعة كلها استضـيفت فـي مـكان واحـد لأربعـة أيـام حيـث أعطيـت الوجبـات نفسـها، والصـابون خالي الرائحة ووضـع تحت إبط كل واحد منهم حفاظاً ماصـاً. فـي النتيجـة أن رائحة الشـباب كانت كريهـة وكبار السن سائغة. وعلَّق أحد المتطوعين على رائحة الكبار دون أن يعلم السن: أنها «ترابية».

ويعلِّـق الدكتـور لاندسـتروم أن ذلـك يرجـع إلـى أن الغـدد في جلد الشـباب تفـرز مـادة كيميائيـة تجلـب البكتيريـا. وهذه تتغيـر كلما تقدَّم الإنسان بالعمر.



Shutterstock

3 غزل الطاووس

ليس على الطاووس أن يتخفَّى أو ينعزل عند المغازلة. فهو يستطيع، في البداية، أن يصدر أنغاماً خفيضة لا يسمعها سوى الطاووسة. وحالما ترسل إشارة استجابة، يفتح ذيله، يكشكش ريشه ويرتعش ثم يعلو زقاؤه.

وتقول روزلين دايفس من جامعة كوينس الكندية، التي قامت بدراسة حول الموضوع، إن الطاووس يقوم بمحادثات تحت صوتية، بذبذبات أقل من 20 هيرتزاً، لا تستطيع الأذن البشرية سماعها.

وتؤكد أنجيلا فريمن، العالمة بسلوكيات الحيوان، أن الطاووس، بعد أن يظهر مجده بنشر ريشه الجميل، يهزه، فينتشر في الأنحاء القريبة تموجات يمكن للأذن البشرية سماعها بشكل حفيف، لكنها في الواقع هي طنطنات تحت صوتية تمتد لمسافات معيَّنة تستطيع نظيراته سماعها حتى لو كانت مختفية بعيداً بين الأشجار.

وكانت فريمن تقصد بهذا الاختبار دحض الاعتقاد السابق بأن الطاووس إنما ينشر ريشه منحنياً إلى الأمام قليلاً ليشكل صحناً لاقطاً للأصوات البعيدة.



4 الألوان والرؤية

هل الطيور والحيوانات ترى بعيونها ما نراه نحن؟ الرأي العلمي ومنذ زمن طويل يعرف أن للطيور قدرة للرؤية تفوق التي عند الإنسان. فهي ترى ألواناً أكثر بسبب طبيعة شبكية عيونها التي بإمكانها التقاط الأضواء ما فوق البنفسجية.

فلطالما تغنى الشعراء وعشاق الطبيعة بألوان الطيور المتألقة، فإنهم لم يعلموا أننا، بالمقارنة مع الطيور، نبدو مصابين بعمى الألوان. هذا ما تقوله «ماري ستوتدارد» من جامعة كامبريدج. كما أن بعض الزواحف وخصوصاً أبو بريص ترى الألوان في الليل كما نراها نحن في النهار. على الرغم من ذلك فإن معظم الحيوانات، كما الإنسان، لا ترى الألوان في الليل، مع أن بعضها يرى أضعاف ما نرى نحن كالكلاب والقطط.

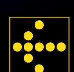
لكن ما لم يكن يعرفه العلم، كما بيَّنت دراسة قام بها قسم البيولوجيا في جامعة لاند السويدية، أن الطيور تحتاج إلى كمية ضوء ما بين 5 إلى 20 ضعفاً ما نحتاجه نحن لترى ما نراه. لذلك فعند عتبة الضوء، أي عند الفجر والغسق، وكذلك في الليل تخسر قدرتها على الرؤية.

التلوث الضوئي وفقدان الظلام

منذ أن قام أديسون باختراع المصباح الكهربائي عام 1879، تبدَّدت ظلمة الليل وطالت فترة العمل وتذللت عقبات كانت تعترض سير الحياة. فهذا الاختراع وضع اللبنة الأولى لنمو الحضارة الإنسانية، وجعل العالم يبدو أجمل وأروع. ولكن اختراعات البشر مهما بلغت من مراتب الدقة والإتقان، فإنها لن تصل إلى حد الكمال وتظل نواقصها كثيرة واستحقاقاتها كبيرة. فهذا الضوء الذي قهر الظلام وما يرتبط به من أخطار ومخاوف، أوجد في المقابل مشكلات خطرة غير متوقعة تهدِّد حياة الإنسان وتؤذي الأنظمة البيئية والكائنات الوحشية.

الباحثان عبده عبدالله عريشي ودرويش مصطفى الشافعي يبحثان في هذا التقرير ما أحدثه الضوء من تلوث ومساوئ على الإنسان وكذلك على عالمي الحيوان والنبات.

Corbis



كان البشر قبل نحو 90 عاماً، يستمتعون بمشاهدة السماء وما فيها من نجوم، ويستدلون بها لمعرفة اتجاه حركتهم. وكانوا، لقلة مصادرهم الضوئية، يخلدون إلى النوم مبكراً، فيما عاشت الكائنات الحية قبل هذه الفترة بشكل طبيعي وتمارس مهامها وتصطاد فرائسها في أوقات محددة من النهار أو من الليل بحسب تكيفها. وكذلك الحال في عالم النبات.

ولكن مع التطور المذهل والمتسارع في وقتنا الحاضر، ومع تزايد التقنيات الحديثة، استبدل الإنسان مصادره الضوئية المحددة والقليلة التوهج بمصادر ضوئية هائلة شديدة التوهج، فأضاء منزله وشوارعه وحدائقه وحتى متنزهاته، مما أدى إلى فوضى ضوئية قلبت ليله إلى نهار.

وكان لهذا الأمر عدة تأثيرات على حياة الإنسان والكائنات والنباتات، حتى السماء الجميلة لم تسلم هي الأخرى من هذا التلوث الذي صنف فيما بعد تحت مسمى «التلوث الضوئي». ويقول الحق تعالى: «والليل إذا يغشاها» (سورة الشمس، الآية 4)، أي يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق. فهذه فطرة الله وحكمته أن ينام الإنسان في الظلام الحالك وأن تبقى الظلمة لبقية كائنات الليل لتعيش وتستمر.

ولعل من أبرز مساوئ الإسراف في استعمال الضوء الصناعي ما يلي:

- تبدد السكينة والهدوء في الليل وشيوع الفوضى، وتناقص ساعات النوم
- ظهور عدد كبير من الأمراض الجديدة غير المسبوقة
- حدوث خلل في الأنظمة البيئية وسلوك الإنسان والحيوان والنبات
- زيادة معدل وقوع الجريمة وحوادث السير واحتدام الخلافات بين الناس وارتفاع نسبة الطلاق
- تدني مستوى التعليم والذكاء وتراجع القدرة على الإبداع

أثره على الإنسان

تتعدد تأثيرات «التلوث الضوئي» على صحة الإنسان وتتصدرها الأورام السرطانية إذ يؤكد الأطباء أن التعرض للضوء بشكل مستمر أثناء السهر يؤثر على تقليل إفراز الغدة الصنوبرية لهرمون الميلاتونين وهو مضاد قوي للأكسدة ولنمو الخلايا السرطانية. كما أن التعرض المستمر للضوء أثناء الليل، يعمل على حدوث استقلابات للدهون في بلازما الدم مما يزيد من معدلات السُّمنة لدى الإنسان. وكذلك ازدادت معدلات الاكتئاب للموظفين المناوبين ليلاً وغيرهم ممن يتعرضون للضوء نتيجة لتأثر ميكانيكيات الدماغ.

والميلاتونين هو هرمون تُفرزه بشكل رئيس الغدة الصنوبرية pineal gland التي توجد أسفل الدماغ بالقرب من الغدة النخامية فوق جذع الدماغ مباشرة، ويبلغ حجمها نحو 8 مليمترات ولا يزيد وزنها على 0,01 غرام. ويُصَنع الميلاتونين من حمض أميني يسمى هيدروكسيل التربتوفان Hydroxyl tryptophan بوجود ومشاركة المغنيزيوم وفيتامين البيرودوكسين ب6 والنياسين ب3.

وأطلق العلماء على الغدة الصنوبرية اسم «العين الثالثة»، لأنها تتفاعل مع الضوء القادم إليها من العينين، حيث يتوقف عملها وإفرازها بوجود الضوء، وينشط بغيابه، وبالطبع يجري ذلك تدريجياً. فالضوء الخافت يبطئ إفراز الغدة الصنوبرية للميلاتونين، وكلما اشتد الضوء تراجعت كمية الإفراز حتى بلوغها التوقف التام، ويحدث ذلك ضمن المجال (460-480) لومين Lumen. (اللومين وحدة قياس شدة الضوء).

وتتولى مستقبلات حساسة للضوء موجودة في العين، مسؤولية نقل الإشارة الضوئية تدريجياً إلى حزمة عصبية في الدماغ متموضعة في منطقة المهاد الدماغي Hypothalamus تسمى Suprachiasmatic nucleus. وتشكل هذه الحزمة العصبية ما يسمى بالساعة البيولوجية Biological Clock التي تضبط وتنظم مختلف إيقاعات الحياة مثل النوم والاستيقاظ والخمول والنشاط، والشعور بالجوع والعطش والرغبة الجنسية.

الساعة البيولوجية

ولما كان هرمون الميلاتونين يُفرز وينشط بغياب الضوء فقد سمي بهرمون الظلام. وكان يعتقد لحقبة زمنية طويلة وحتى السنوات القلية الماضية بأن دور ووظيفة الميلاتونين تتعلق بشكل رئيس بالنوم والاستيقاظ، ولكن الأبحاث العلمية الحديثة اكتشفت له أدواراً ووظائف كثيرة على درجة عالية من الأهمية تتعلق بسلوك الكائنات الحية جميعاً وبالصحة والمرض.



أديسون مخترع المصباح الكهربائي

وكشفت الأبحاث العلمية الحديثة وظائف غير متوقعة للميلاتونين، فقد بينت آخر الأبحاث المتعلقة بتأثير الضوء الصناعي على الصحة، أن أجسامنا تعمل أفضل خلال ساعات النوم المعتمة. وأكد باحثون من جامعة بنسل في فيينيا عام 1999، أن الأطفال دون السنتين الذين ينامون بوجود الضوء القادم من الشوارع المضاءة يتعرضون لقصر النظر خلال فترة الطفولة وخلال سن المراهقة.

ويقول أستاذ علم الجهاز العصبي والدماغ من معهد جيفرسون الطبي الدكتور جورج برنيارد: ليس هناك شك في أن الضوء هو منظم قوي للعمليات الحيوية في جسم الإنسان وأن التعرض للضوء الباهر يؤثر سلباً في كثير من وظائف الجسم الفسيولوجية، وذلك من خلال التشويش على الساعة البيولوجية مما يؤدي إلى أمراض فسيولوجية وسلوكية ونفسية.

ويقول الدكتور روبرت هان من مركز السيطرة على الأمراض في أمريكا، إن النوم في غرفة معرضة لأضواء الشوارع يؤدي إلى أمراض سرطانية متعلقة بالخلل الهرموني من بينها سرطان الثدي، فالضوء يؤثر بفعالية على إفراز الميلاتونين وهو هرمون يتعلق بوظيفة النوم والاستيقاظ وتعديل حرارة الجسم، وبالتالي فإن الذين يتعرضون للضوء الصناعي يصابون بمرض الحرمان من النوم المزمن.



بينت آخر الأبحاث تأثير الضوء الصناعي على الصحة

خدمة المجرمين

إلى ذلك، أثبتت دراسة بريطانية حديثة، أن معدلات الإجرام تزداد ليلاً بالأحياء التي تكون الإنارة بها كبيرة حيث يعمد المجرم إلى استغلال إضاءة المنازل الخارجية لمعرفة أماكن الدخول للمنزل بعكس الأمر عندما يستخدم مصباحه الشخصي حيث يكون من السهل كشف أمره. ولا ننسى أن جدران المباني المحيطة بمصابيح الشوارع تكون أكثر عرضة للكتابة من قبل المراهقين من تلك التي تكون في حالة الإظلام.

اقتصاد وبيئة

ولـ «التلوث الضوئي» أيضاً تأثير سلبي على البيئة والاقتصاد، إذ عندما يعمل مصباح واحد قدرته 100 واط على الدوام، فإنه يستهلك طاقة تبعث 360 كيلوجراماً من ثاني أكسيد الكربون في الهواء سنوياً، وبالتالي فإن كل مصباح من هذه المصابيح يحتاج إلى 17 شجرة لامتصاص الغازات التي تنتج عن تشغيله. وإذا كانت لدينا ملايين من هذه المصابيح، فكم سيكون حجم ثاني أكسيد الكربون المنبعث، وكم سنحتاج حينئذ من شجر لامتصاصه؟

هدر الإنارة

وإذا نظرنا إلى مقدار الطاقة التي تهدرها المصابيح التي يتم تركيبها بشكل خاطئ في شوارعنا، فنجد أنها تهدر 60% تقريباً من طاقتها في السماء من دون الاستفادة منها على الأرض، والسبب في ذلك هو أن بعضاً من هذه المصابيح يوجه إلى ناحية السماء، وكثير منها يشع في كل الاتجاهات من دون أن يتم تركيزه على نقطة معينة من الشارع، لذا لو تم توفير حجم هذه الطاقة المهدرة بالمعالجة الصحيحة لهذه المصابيح، فسيقل حجم الإنبعاثات الصادرة وتوفير احتياط هائل من الطاقة النفطية.

تضرر الكائنات الحية

أما فيما يتعلق بالكائنات الحية، فيظهر تأثير الضوء عليها في فترة المساء على الوجه الأخص، وذلك حينما تخلد بعض الكائنات إلى الراحة وتستعد أخرى لممارسة نشاطها ليلاً. فمثلاً نجد أن صغار السلاحف التي تفقس بيوضها على سواحل البحار، تتجه إلى المدن حيث مصادر الضوء الصناعي بدلاً من أن تتجه إلى مياه البحر حيث مكانها الطبيعي، وهذا بلا شك يؤدي إلى هلاك عدد كبير منها. وكذلك يمتد تأثيره إلى الطيور خصوصاً التي تهاجر عبر الدول، إذ تتسبب باختلال في البوصلة المغناطيسية لهذه الطيور، مما يتسبب في اصطدامها بالمباني وأعمدة الكهرباء. وفي عام 1954 قتل نحو 50 ألف طائر بواسطة أجهزة ceilometers ذات الإضاءة القوية بقاعدة الدفاع الجوي بولاية جورجيا الأمريكية.



كل مصباح قدرته 100 واط يحتاج إلى 17 شجرة لامتصاص الغازات التي تنتج عن تشغيله

السماء تتأثر أيضاً

لم يشهد التاريخ أن اختفت عن الرؤية أجرام سماوية من صفحة السماء، إلا أنه في وقتنا الحاضر لم نعد نشاهد النجم القطبي الشمالي وهو دليل المسافر لمعرفة الاتجاهات، كما اختفى كثير من كوكبات السماء التي تظهر في فصول السنة، وأصبحت من الصعوبة البالغة مشاهدة درب مجرة درب التبانة حتى من خارج المدن نتيجة لامتداد تأثيره إلى خارجها.

لذا واجه كثير من هواة الفلك، صعوبة في رصد السماء إلا بالابتعاد مسافة لا تقل عن 65 كيلومتراً عن المدن، مستخدمين فلاتر كثيرة عند تصوير الأجرام السماوية بغية الحصول على صور خالية من التلوث الضوئي. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل لجأ عديد من علماء الفلك إلى نقل مراصدهم مرات عدة إلى أماكن أكثر ظلاماً، كما أطلقوا مراصد إلى خارج غلافنا الجوي للتغلب على هذه المشكلة المتزايدة ومنها «هابل»، و«جمس ويب» الذي سيطلق خلال عام 2018.

مصادر التلوث

وللتلوث الضوئي مصادر متعددة تتمثل في إضاءة المنازل والشوارع وغيرها. وهذه المصادر يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع:

- الضوء المتعدي: وهو أن يتعدى الضوء الغرض المقصود إلى إنارة ما في جواره، كإضاءة الطريق التي تنير المباني والمنازل المجاورة.
- الضوء الوهج: وهو ذلك الضوء الذي يسبب صعوبة في الرؤية المباشرة بسبب وهجه المبهر والقوي.
- الضوء الصاعد للسماء: وهو ذلك الضوء الذي يكون موجهاً إلى السماء بشكل مباشر، ولا يمكن ملاحظة أثره إلا بوجود سحب أو غبار، وهو يعد أخطر أنواع التلوث الضوئي الخادعة.

ومصادر «التلوث الضوئي» هذه، نتجت عن عدد المصابيح الكهربائية التي نستخدمها في حياتنا اليومية. وهذه المصابيح تم تطويرها وزيادة كفاءتها مع مرور السنوات بسبب الطلب المتزايد عليها لاستخدامها في تزيين المباني من الداخل والخارج، إضافة إلى طلب أصحاب المتاجر والمؤسسات الإعلانية لجذب الزبائن. وهذه المصابيح يمكن تفصيلها حسب نوعيتها إلى ما يلي:

1 - مصابيح الهالوجين halogen lamp: هذه المصابيح إضاءتها بيضاء وأكثر فاعلية من إضاءة المصابيح التي تعتمد على تسخين الفتيلة، وعمرها الافتراضي قصير نسبياً. أما قدرتها فتتفاوت بين 300 و500 واط وتبعث أشعة فوق بنفسجية.

2 - مصابيح التنجستن الحرارية tungsten lamp: وتتحول الطاقة الكهربائية في هذه المصابيح إلى إشعاع حراري عن طريق تسخين سليكات التنجستن، وهي قليلة الفاعلية، كما أنها من أخطر الأنواع التي تسبب تلوثا ضوئياً بسبب عدم تغطيتها، واستهلاكها للكهرباء بشكل مفرط.

3 - مصابيح ميتال هالايد metal-halide: هذه المصابيح مصدر لضوء أبيض مزرق، ولها تأثيرات بيئية أكثر من غيرها إذ تستخدم قدرة واطية عالية، لذا لا يجب الإكثار من استخدامها.

4 - المصابيح الفلورسنتيه fluorescent lamp: وهي من الأنواع المشهورة في المباني الداخلية وتتميز بقلة ضغطها، ولكن من الصعب التحكم في شدتها، وهي من المصابيح التي تؤثر في مشاهدة أجرام السماء بشكل مزعج.

قياس «التلوث الضوئي»

ربما يصبح من الأهمية في وقتنا الحاضر، الاستعانة بوسائل وتقنيات عدة لندرك من خلالها مدى إسرافنا في استخدام المصادر الضوئية، لذا فقد تنوعت هذه الوسائل بحسبما وضعت لأجله. فمنها ما يستخدم لمعرفة مقدار لمعان السماء وتقدير إظلامها، ومنها ما وضع لقياس كثافة الإضاءة.

- مقياس بورتل للمعان السماء:

وضع العالم جون بورتل هذا المقياس ليستعين به الفلكيون هواة أو متخصصين، من أجل معرفة نسبة الإضاءة في السماء ليلاً، وذلك وفق جدول يوضح الفرق بين المناطق المظلمة والمنيرة وقسمها إلى 9 أقسام بحسب التباين في شدة الضوء لكل منطقة.

- مقياس كثافة الضوء:

وهو جهاز حساس جداً للضوء خصص لقياس كثافة الإضاءة الصادرة عن المصدر الضوئي. وتختلف كثافة الضوء التي يقيسها بناء على بعد الجهاز عن مصدر الضوء ويقاس بوحدة اللوكس lux.

تنظيم المدنية

ولا شك في أن التلوث الضوئي مشكلة عالمية، لكن كثيراً من الدول تقوم بتصميم المدن في مركز يضم ناطحات سحاب بمساحة لا تتجاوز 7 كيلومترات مربعة، ثم تأتي الضواحي وتمتد إلى عشرات الكيلومترات حيث تقل بها الإضاءة بنسبة 70% عن مركز المدينة. ولكن في الدول التي تعاني من سوء هذا التنظيم، تنتشر الكثافة الضوئية في كثير من الضواحي ومن دون تقنين، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

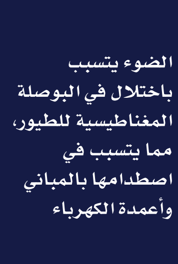
- إنارة التزيين التي تزين بها الحدائق والطرقات.
- مآذن المساجد التي تبقى مضاءة طوال الليل.
- الإنارة الجانبية للشوارع.
- قاعات المناسبات الخاصة والاستراحات.

الحلول المقترحة

وبعد أن تنبه العالم إلى مشكلة هذا التلوث، تم إنشاء

جمعيات متخصصة في إظلام السماء، وأخرى متخصصة في إظـلام المستوطنــات البرية. واتفقت هـذه الجمعيات مع كثير من المنظمات البيئيــة، على اتخاذ توصيات كفيلة بالتقليل من هذا الخطر الذي يحدق بنا في كل مكان وهي:

- إعــادة تصميم المصابيح الكهربائية بحيث تكون إنارتها لنقطـة محدد فـي الشــارع دون التعدي علــى المباني أو الأشجار المجاورة.
- تركيـب مفاتيح ضوئية تمكننا مــن التحكم في استخدام المصابيح بشكل موفر.
- التقليل مــن إضاءة الحدائق من أجـل ممارسة الكائنات لنشاطها بعيداً عن التوهج.
- التوقف عن إضاءة المنتزهــات البرية والبحرية البعيدة عن المدن.
- القيــام بحمــلات توعيـة للنــاس بأهميــة الاقتصــاد في استخدام مصابيح المنزل والتي لا تدعو الحاجة إليها.
- استبدال المصابيح ذات القدرة العالية بأخرى تكون ذات قدرة منخفضة.
- إنشــاء أماكن بعيــدة نوعا ما عــن المدن، تحظــر إقامة المشاريــع بها أو بالقرب منها وتكــون مخصصة للرصد الفلكي ولمحبي الرحلات البرية.


الضوء يتسبب باختلال في البوصلة المغناطيسية للطيور، مما يتسبب في اصطدامها بالمباني وأعمدة الكهرباء





"الميلاتونين" هرمون الشباب.. الضوء عدوه

أكـدت مئات الأبحاث العلميــة التي أجريت في المختبـرات في أنابيب اختبـار In Vitro وعلى المرضى، أهمية الميلاتونين في حفظ الصحة وعلاج الأمراض أو الوقاية منها، ومن بين أهم نتائج هذه الدراسات والأبحاث ما يلي.

- يعمــل الميلاتونيــن على استنهاضــ الخلايا المناعيــة المقاتلــة للسرطــان التــي تسمــى الخلايـا القاتلـة Suppresser t –cells والخلايا اللاهمة Macrophages.

- يمنع الميلاتونين ارتباط هرمون الإستروجين بالخلايا التــي تتدخل الهرمونــات الجنسية فــي عملها مثـل خلايــا البروستــات والثدي والمبيضيــن، وقــد بينــت تجــارب عملية أن السيــدات المصابــات بسرطــان الثــدي ويُعالجــن بالــدواء المسمــى الثاموكسيفين، قــد تراجع حجــم السرطان عندهــن بنسبة 28% بعد تناول الميلاتونين بشكله الدوائي. وفــي تجربة أخــرى جرت في أنبــوب اختبار In vitro أظهــرت قــدرة الميلاتونيــن علــى خفض نمــو الخلايــا السرطانيــة المأخوذة من الثــدي بمقــدار 75%، وخلايــا سرطان البروستــات بنسبــة 50%. ومــن خــلال المشاهدات والإحصاءات تبين وجود علاقة بيــن انخفاضــ مستــوى الميلاتونيــن وبيــن الإصابة بسرطان الثدي والبروستات، أي أنه عندما يهبــط مستوى الميلاتونيــن في الدم تتهيأ الظــروف المواتية لنمو وتكاثر الخلايا السرطانية.

- يعمل الميلاتونين على حماية المادة الوراثية الــ DNA الموجــودة في نــواة الخليــة وتلك الموجــودة في الميتاكوندريا من تأثير المواد السامــة والشــوارد أو الشقــوق الحــرة free radicals.

وقــد وجــد أن قــوة الميلاتونيــن المضــادة



يرتبط إفراز الميلاتونين بمدة الظلام من ناحية، وبالساعة البيولوجية من ناحية أخرى

للأكسدة تتفوق على قوة الإنزيم المشهور المسمى سوبر أكسيد الديزموتيز superoxide dismutase بخمس مرات، كما تتفوق بمرتين على قوة فيتامين (هـ) المضاد للأكسدة. وقد بينت إحدى الدراسات أن جسم الإنسان يتخلص من 80% من السموم والشوارد الحرة إذا ما ذهب إلى النوم قبل منتصف الليل، حيث يكون الميلاتونين في الجسم قد بلغ ذروته، ولكن بعد ذلك لا يتخلص الجسم إلا من 20% فقط من هذه السموم، وذلك لارتباط إفراز الميلاتونين بمدة الظلام من ناحية، وبالساعة البيولوجية من ناحية أخرى، فإذا ما قلَّت ساعات التعرض للظلام لفترة زمنية طويلة فإن كثيراً من السموم والشوارد الحرة ستتراكم في الجسم لتعيث فيه فساداً.

- يستطيع الميلاتونين اختراق الأغشية الخلوية الدماغية وجدران الأوعية الدموي فيصل إلى عمق الخلايا وينظفها تماماً من الشوارد الحرة الخطرة مثل أول أكسيد النيتروجين (NO2)، الأكسجين (O2-) والهيدروكسيد (OH)، وبهذه الطريقة يعمل الميلاتونين على حماية الخلايا الدماغية من عوامل الأكسدة، مما يمنع الإصابة بالخرف أو تأخير ظهوره على الأقل، وقد بينت تجربة على الفئران بأن إضافة الميلاتونين إلى الماء الذي تشرب منه، قد أطال مدة حياتها Life Span وزاد في حيويتها ونشاطها حتى المراحل الأخيرة من عمرها. وبسبب ارتباط هرمون الميلاتونين بالمظاهر الحيوية والنشاط فقد سُمِي بهرمون الشباب.

- يعمل الميلاتونين على تنظيم الدورة الشهرية من حيث موعد قدومها، غزارتها، مدتها وتوقفها، ويساعد على تخفيف الألم الذي يسبق مجيء الدورة الشهرية، وقد لوحظ أن الفتيات اللواتي يعشن في سكن جماعي له خصائص ضوئية محددة وثابتة يتأثرن فسيولوجياً بعد مرور فترة زمنية بالضوء، فتأتيهن الدورة الشهرية معاً في نفس الموعد وتنتهي في اليوم نفسه تقريباً مع عدم تجاهل العوامل الأخرى مثل الرائحة الخاصة التي تصدر عن الحائض، العوامل الوراثية والحالة الصحية.

- وللميلاتونين سيطرة على عمل الغدد الأخرى وإفرازاتها من الهرمونات مثل الغدة الدرقية التي تسهم إفرازاتها في ترسيب الكالسيوم والعناصر المعدنية الأخرى (معدنة العظام)، وبالتالي منع الإصابة بهشاشة العظام، ولهذا لم تسجل حالات هشاشة عظام كثيرة عند الأجيال السالفة، وذلك بسبب عدم تعرضهم للإضاءة الصناعية لمدة طويلة وذهاب الناس للنوم في وقت مبكر من الليل، بيد أن للظروف الغذائية الحالية دوراً أيضاً في الإصابة بهشاشة العظام، فالمشروبات الغازية المحتوية على حمض الفسفور والكافئين، وأقراص مقاومة الحموضة الزائدة في المعدة تسهم في هجرة الكالسيوم من العظام وتقلل مستوى ترسبه فيها.

- يسهم الميلاتونين في تعزيز الأداء الجنسي عند الرجل من حيث إثارة الرغبة الجنسية، زيادة قوة الانتصاب والخصوبة، كما يحسن وينظم إفراز المبيضين للهرمونات الجنسية. وفي حالة اضطراب هرمون الميلاتونين في الجسم يختل نظام إفراز الغدد الصماء بالكامل ونتيجة لذلك يظهر عدد من الأمراض من بينها، أمراض غير محددة السبب (المتلازمات)، فعند الأطفال على سبيل المثال، يؤدي تدني نسبة الميلاتونين إلى نقصان الوزن وضمور الكتلة العضلية وبطء النمو العقلي وتزيد لديهم أعراض انفصام الشخصية والصرع.

- يؤخر الميلاتونين ظهور أعراض الشيخوخة، مثل اضطرابات النوم، الخَرف، الالتهابات، تصلب الشرايين atherosclerosis، تجاعيد الوجه، الكآبة، وغيرها.

- يساعد الميلاتونين الإنسان على التكيف مع فرق التوقيت الناتج عن السفر من منطقة جغرافية إلى منطقة أخرى بعيدة، مثل السفر من بلدان الشرق الأوسط إلى أمريكا أو البلدان الإسكندنافية.

- يعمل الميلاتونين على تهدئة الأعصاب وتخفيف التوتر والنرفزة وسرعة الانفعال، ويقوِّي الذاكرة ويزيد في القدرة على الحفظ والتركيز والإحساس بالمحيط والتفاعل معه، ونقصه يعطي نتائج عكسية، وهذا ما يفسر كثرة حدوث المشاجرات، حوادث السير، جرائم القتل، حالات الطلاق خاصة إذا ما وصل تأثير نقص الميلاتونين إلى إضعاف القدرة الجنسية عند الرجل. ولعل تردي مستوى تحصيل الطلاب في دروسهم وعدم ظهور مبدعين بينهم مع توافر جميع الوسائل التعليمية والمراجع وتطور أساليب التعليم، هو بسبب طول مدة الإضاءة التي يتعرض لها هؤلاء الطلاب بسبب السهر المفرط الذي يسبب نقص مستوى الميلاتونين لديهم.

ومن فضل الله ورحمته تعالى، أن جعل لهرمون الميلاتونين مصادر أخرى غير الغدة الصنوبرية، فهو موجود بكميات قليلة في عدد من الأغذية مثل الجوز، القمح، الأرز، الشعير، الأسماك، البندورة، الحليب ومشتقاته، الموز، الكرز، زيت الزيتون، العنب، التمر، الفطر، الخمائر وغيرها، كما يُنتج بكميات ضئيلة في المعدة والأمعاء، وربما يكون ذلك من أسباب عدم حدوث اضطرابات صحية كثيرة عند سكان المناطق الشمالية من الكرة الأرضية بسبب تعرضهم لفترات زمنية متواصلة من الإضاءة وأخرى من لظلام المتواصل، علاوة على قيامهم بتعتيم بيوتهم عند الخلود إلى النوم.

قصة ابتكار

الـــتـــرمـــوس

كثيرة هي الاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية التي توجد بالصدفة. البنسيلين هو مثال واضح على ذلك. لكن ابتكار الترموس، أو «وعاء الفراغ» كما سمَّاه صانعه «جيمس ديوير»، إنما جاء بطريقة واعية وهادفة معتمدة بشكل صارم على تطبيق قوانين الفيزياء العلمية.

سنة 1892م كان جيمس ديوير الأسكتلندي، أستاذ الكيمياء والفيزياء بجامعة كمبريدج والمعهد الملكي البريطاني، منغمساً في أبحاثه المتعلقة بإسالة الغازات؛ وكان بحاجة ماسة لحفظها في درجة الانخفاض التي هي عليه لمدة كافية لدراستها. كان الجواب سهلاً بالنسبة لعالم مثله.

تتغيَّر الحرارة بفعل عوامل ثلاثة: التوصيل، الانتقال والإشعاع. إذا تمكنا من عزلها سنصل إلى المبتغى. والحرارة هي حركة وسرعة الذرات في درجة حرارة الصفر، ليس هناك من حركة. وكلما زادت الحرارة زادت السرعة كما أن هناك مواد محفزة لهذه الحركة كالحديد، وأخرى غير محفزة كالبلاستيك مثلاً.

لجعل الحرارة ثابتة لسائل معيَّن على ما هي عليه لأطول فترة ممكنة، وجب عزلها في وعاء عن محيطها. فبينما كان ديوير يقوم باختبار على تحديد حرارة معيَّنة لمادة «البلاديوم»، وضع هذه المادة في وعاء نحاسي داخل وعاء آخر تاركاً مسافة بين الإثنين بحيث أفرغها من الهواء ووصلها في الأعلى. إن عملية التفريغ لا يمكن أن تكون كاملة، فهذا متعذر، لهذا ما يتبقى من الهواء يوصل الحرارة ببطء. لذلك بعد فترة تأخذ الحرارة بالتساوي مع حرارة المحيط. لكن ديوير كان بحاجة إلى فترة غير طويلة.



والحال إن وضع وعاء داخل وعاء آخر يمنع عملية التوصيل الحراري. أما الفراغ فيمنع عملية الانتقال. يبقى عامل الإشعاع، خصوصاً الأشعة ما تحت الحمراء وهي بالتعريف العلمي إحدى ظواهر الاهتزاز والارتجاج الناتج عن الاتحاد الكيميائي للذرات. وهذه الأشعة تصدر عن معظم المواد. لدرء هذا الإشعاع، استعمل ديوير طلاء الفضة على الوعاء الداخلي ليعكس هذه الإشعاعات خارجاً. بهذه البساطة ابتُكر الترموس.

بعد ثلاث عشرة سنة، تنبه ألمانيان يعملان في حقل نفخ الزجاج، من بينهما «رينهولد بيرغر» إلى أن وعاء ديوير يمكنه أن يحافظ على حرارة السوائل المرتفعة مرتفعة والمنخفضة منخفضة. فقررا تسويقها وطلبا براءة اختراع لهما دون الرجوع إلى ديوير. وأطلقا على اسم الشركة «ترموس» وهي من أصل يوناني وتعني الحرارة.

لاحقاً في الولايات المتحدة تم التخلي عن هذا الاسم كماركة تجارية وأصبحت إحدى مفردات اللغة نتيجة لانتشارها الواسع جداً. ويقول الدكتور «أندي الكسندر» الأستاذ في جامعة «أدينبرغ» إن كثيراً من مختبرات العالم لا تزال تطلق على الترموس اسم وعاء ديوير.

بعد ذلك أدخلت تعديلات تقنية ومواد جديدة في صناعة الترموس. منها الزجاج والألمنيوم. وعند استعماله بأحجام كبيرة في بعض الصناعات لاحتواء بعض الغازات، أدخل عليه صمام لتخفيف الضغط منعاً للإنفجار.

يستعمل الترموس في المنازل لحفظ المشروبات، لكنه يستعمل على نطاق أوسع في كثير من الصناعات والمختبرات؛ وقلَّما يخلو مختبر كيميائي منه.

وقد استعملت وكالة الفضاء الأمريكية أوعية فراغ بكثافة لتخزين وقود الصواريخ في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين.

كما يستعمل في تصوير الرنين المغناطيسي، والرنين النووي المغناطيسي من خلال تهدئة المغناطيس فائق التوصيل في المختبرات والمعدات الطبية. ويستعمل أيضاً لحفظ بعض العينات البيولوجية من أنسجة الخلايا. إنه جزء أساسي من أي مختبر.

قصة مبتكر

ماريــون دونوفان



في السابعة من عمرها لم يكن اللعب هاجس ماريون كما باقي أترابها. في أوقات فراغها، وكانت قد أصبحت يتيمة الأم، كانت تؤثر الذهاب إلى مصنع والدها «ميل أوبراين» وأخيه التوأم «جون». الابتكار، هو الجو السائد في المكان وبين الأشخاص. أبوها هو مبتكر المخرطة التي كانت تُعرف في ذلك الوقت بـ «مخرطة ويست بند» التي كانت تصنع سبطانات البنادق والمسدسات.

كانت على الدوام تفكر فيما ستخترعه وتطرح ذلك على والدها الذي، بشخصيته الفذة، كان يشجعها. لقد طرحت عليه صناعة مسحوق للأسنان. وعلى الرغم من اعتبار ذلك فكرة غريبة كان يدفعها للبحث عن كيفية ذلك. لم تتحقق فكرتها، لكن ما تحقق أهم منها وهي روح التمكن من صناعة أي شيء، إنها روح المبادرة.

كانت تحلم بأن تصبح مبتكرة لأشياء كبيرة، لكن أقدار الحياة دفعتها إلى أن تصبح مبتكرة لأشياء صغيرة نستعملها في حياتنا اليومية.

تخرجت ماريون في الجامعة سنة 1939م بشهادة في الأدب الإنجليزي، وعملت مساعدة محرر الشؤون التجميلية في مجلة «فوغ» الشهيرة. هناك تعرفت إلى «جيمس دونوفان» وتزوجت منه. وعندما أنجبت أول أطفالها بدأت تعاني الأمرين من استعمال حفاظات القماش. فما أن يستيقظ الطفل من غفوة حتى يكون عليها أن تغيِّر ليس فقط الحفاظ بل شراشف الفراش وبعض ثياب الطفل. لم يعد هناك وقت لغير ذلك. فشعرت أن أحلامها الكبيرة بدأت تذوي. لكن ذهنها المتوقد دفعها لاكتشاف حل لذلك. فالتمع في ذهنها فكرة حفاظ مانع للتسرب. جاءت بستارة للدوش مصنوعة من النايلون وماكينة خياطة.

وهكذا بدأت سنة 1949م بصناعة وتسويق هذا الحفاظ الجديد. ونالت سنة 1951م أربع براءات اختراع هي الأولى لها. في السنة نفسها باعت ماريون دونوفان حقوق الاختراع، وكذلك شركتها الخاصة بها بمليون دولار لشركة «كيكو» المتخصصة في ملابس الأطفال.

فكرتها الثانية كانت لماذا لا يكون هناك حفاظ يستعمل لمرة واحدة يوفر عملية الغسل وإعادة استعماله. لتحقيق ذلك صممت دونوفان ورقاً قوياً وماصاً للرطوبة في الوقت نفسه ويجعل تكلفة الحفاظ أقل مما هو بكثير. وراحت تزور شركات الورق لصناعة هذا النوع. لكن معظم الذين استشارتهم كانوا يتهكمون عليها محاولين إقناعها بألاَّ لزوم لذلك.

خمدت فكرتها هذه لمدة غير قصيرة. ربما دفعها ذلك للتفكير بإحداث تغيير كبير في حياتها فقررت دراسة الهندسة المعمارية في جامعة يال ونالت شهادة الماجستير، وكانت في صفها امرأتان فقط.

بعد عشر سنوات على فكرة الورق المقوى، التقطها «فيكتور ميلز» الذي أسس شركة «بامبرز» العالمية الشهيرة التي لاقت نجاحاً باهراً حتى يومنا هذا.

وأكملت دونوفان ابتكاراتها المتعلقة بأشياء منزلية بسيطة منها: وعاء للصابون يمتص الرطوبة إلى البالوعة؛ وتر مطاطي يمكن وصله بسحاب الفسطان من الخلف بحيث إن المرأة تستطيع تسكيره من فوق كتفيها ثم نزعه بسهولة لاستعماله ثانية؛ خيط الأسنان، اسمه التجاري «دانتالوب»، مصنوع بشكل دائري يستطيع الذي يستعمله لتنظيف أسنانه من رؤية أفضل لما يقوم به؛ شماعة ملابس تستطيع أن تستوعب حوالي 30 قطعة بطريقة نظيفة ومناسبة.

كانت دونوفان تقوم بتسويق ابتكاراتها بنفسها. وقد قامت بزيارة مصانع ألمانية لترى الأنواع المختلفة من أدوات معالجة الأسنان. كما زارت بمعية ابنتها «كريستين» معظم عيادات الأسنان والصيدليات للترويج لـ «دانتالوب».

ولدت دونوفان سنة 1917م وتوفيت سنة 1998م وبحوزتها 20 براءة اختراع. ولو علمت نساء اليوم كم عانت جداتهن قبل ابتكار ماريون دونوفان لقدَّمن الشكر لها باستمرار.

اطلب العلم

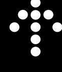
الأخطاء المخبرية الطبية

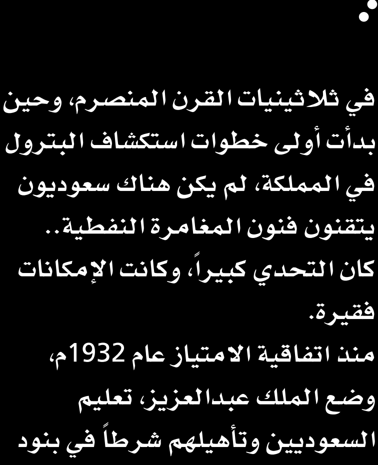
اكتسبت أخطاء المختبرات الطبية في الآونة الأخيرة زخماً كبيراً من الاهتمام وذلك لأهمية الدور المخبري في التشخيص الطبي، الأخطاء المخبرية الطبية تقع بصمت قبل إجراء التحليل وخلال إجرائه أو بعد ذلك، وقد رُسّخت أسس ضبط الجودة الداخلية والخارجية لضمان صحة سير العمل التشخيصي من ألفه إلى يائه ليحصل المريض والطبيب على خدمة ذات مستوى عالٍ من الدقة تساعد في إيضاح الطريق للعلاج. وقد أشارت الإحصاءات أن 13 - 32% من الأخطاء المخبرية تحصل خلال التحليل المعملي والباقي قبل التحليل أو بعده، وأكثر الأخطاء ما يحصل قبل التحليل.
ويُقصد بمرحلة ما قبل التحليل المرحلة التي تُؤخذ فيها العينات من المريض وتُكتب تفاصيل الاسم وغيرها على الأوعية التي تحتوي على العينات.. وفي هذه المرحلة أيضاً تُفصل الخلايا عن المصل الدموي للفحوصات التي تتم على المصل. وفي هذه المرحلة أيضاً يتم اختيار الأنابيب المناسبة للفحوصات بما تحتويه من مضادات للتجلط.. وفيها أيضاً يستخدم الرباط الضاغط لتسهيل سحب الدم، ومعروف أن الرباط الضاغط يؤثر على بعض النتائج المخبرية، وفي هذه المرحلة أيضاً قد يحدث تكسر للخلايا الدموية الحمراء مما سينعكس لاحقاً على نتائج مخبرية كثيرة.
ومن الأمثلة الشائعة على أخطاء ما قبل التحليل عدم تطابق الاسم المسجل على العينة مع المريض الذي أُخذت منه تلك العينة، وقد جاءت أنظمة الرموز المحوسبة وقارئاتها الضوئية لتقليل هذه الأخطاء ولكنها ما زالت في العالم العربي عالية التكلفة قليلة الانتشار. لقد جاءت التكنولوجيا الحديثة خادمة لكل جوانب الأعمال المخبرية مما قلل من الخطأ المخبري في المختبر الطبي.
إن العاملين في المختبرات الطبية يسعون بكل جهد لتقليل الخطأ مهما كان مصدره ولكن هذه حالة مثالية من الصعب الوصول إليها وإنما يمكن الاقتراب من القيمة الدقيقة للنتيجة المخبرية أكثر ما يمكن.
أما الأخطاء التي تحصل خلال التحليل المعملي فقد تكون ناتجة عن خلل في المحاليل المستعملة أو خلل في الأجهزة، أما الأخطاء التي تحصل بعد التحليل فقد تكون كخطأ في كتابة النتائج الرقمية أو تبديل بيانات متشابهة إلى حد كبير... وثمة أخطاء عشوائية تقع بالصدفة ولكن على المؤسسة الطبية والمختبر الطبيي اتخاذ كافة الإجراءات الكفيلة بعدم حدوث مثل هذه الأخطاء وكمثال على ذلك تسمية غير دقيقة للفحص المطلوب للمريض. وإجمالاً قد تحدث أخطاء مخبرية جذورها خارج المختبر.. فالمختبرات في المراكز الشفائية الكبيرة تستقبل العينات من مختلف الأقسام.. حيث يقوم بجمع العينات ممرضون مؤهلون.
أما داخل المختبر فمسموح فرق منطقي في نتيجة فحص لنفس العينة عند تكراره في نفس الوقت وفي نفس المختبر.. ومسموح فرق عند الإعادة لنفس العينة في مختبر آخر وقد حددت المصادر العلمية هذه الفروقات المسموحة لكل فحص ولكل حالة.
بعض الفحوصات لها نتائج ثابتة عموماً وبعضها تتغير نتائجها تبعاً لحالة المريض وتطور المرض لديه وما يتناوله من علاجات وأغذية.. وهناك فحوصات لها نافذة تشخيصية، أي يجب عملها في زمن معين بعد العرَض الذي يصيب المريض لتظهر النتيجة الصحيحة.. وأي أعمال مخبرية قبل ذلك ستعطي نتائج خطأ. وتضيف تكنولوجيا اليوم خطأ مخبرياً جديداً هو زمن الانتظار، فالأطباء والمرضى وصالات العمليات كلهم حاكمهم الوقت ولوائح الانتظار الطويلة مما يجعل المختبرات في بحث دائم عن تكنولوجيا سريعة بالنظر إلى الدقة.
إن قياس مشكلة أخطاء التحاليل المخبرية مسألة ليست بالسهلة، ومن هنا جاءت ضرورة إلزامية مراقبة الجودة وهي مقياس لدقة أو مدى جودة نظام القياس ليعيد إظهار نفس النتيجة تقريباً مع مرور الوقت وتحت ظروف التشغيل المختلفة. وجاءت شهادات الاعتمادية لتوحيد إجراءات وسياسات العمل المخبري مما ساعد على تقليل الأخطاء ورفع مستوى التوثيق ودقته وصارت المختبرات بمجملها تعمل بلغة واحدة تقريباً. وعلى إدارة المختبر أن تتمتع بالتواصل الجيد ما بين المختبر وبقية العاملين في المؤسسة الطبية وخصوصاً الأطباء وبقاء الخطوط مفتوحة لتسهيل وصول المعلومة بكلا الاتجاهين مما يساعد على تقليل الوقوع في الأخطاء المخبرية.
إن 75% من الأخطاء التحليلية يكون أثرها قليل على القيمة المخبرية واسعة الفترة المرجعية الطبيعية للمريض مما يجعل نسبة قليلة فقط من الأخطاء المخبرية تؤثر فعلياً على صحة المريض.. وهذا ليس لتقليل الاهتمام بالنتيجة المخبرية والمريض وإنما هو ناتج عن كون النتيجة المخبرية جزء من سلسلة من المعلومات يجمعها الطبيب المعالج عن المريض ويقف ملياً قبل اتخاذ القرار التشخيصي والعلاجي.. هذا الوقوف فيه دائماً فرصة للتركيز أكثر ومراجعة حثيثة للنتيجة المخبرية.
ومما لا شك فيه أن التدريب الجيد وبرامج الجودة الداخلية والخارجية والتكنولوجيا الحديثة تقلل من الأخطاء المخبرية.. وهذا لا يعفي المختبرات من جمع المعلومات وكتابة تقارير الحوادث للمساعدة في تحليل الأخطاء ووضع الحلول للأخطاء المخبرية.

عبد السلام الشويات

الفاصل المصوّر

الأيدي التي صنعت مجداً





في ثلاثينيات القرن المنصرم، وحين بدأت أولى خطوات استكشاف البترول في المملكة، لم يكن هناك سعوديون يتقنون فنون المغامرة النفطية.. كان التحدي كبيراً، وكانت الإمكانات فقيرة.

منذ اتفاقية الامتياز عام 1932م، وضع الملك عبدالعزيز، تعليم السعوديين وتأهيلهم شرطاً في بنود تلك الاتفاقية التاريخية.

وهكذا.. تسرَّب السعوديون إلى مراكز التدريب، وورش العمل، والبرامج الدراسية والمهنية، وبرامج الابتعاث نحو الجامعات العربية والغربية، ليبنوا أسطورتهم فوق الرمال.

لم يتردد مواطنو هذه الأرض في امتشاق سلاح العلم والمهنة. لم تقف مرجعياتهم من العادات والتقاليد والمفاهيم في طريقهم ليرتادوا الورش والمعامل والمصانع وساحات التخزين ومواقع الحفر والشحن ومدّ الأنابيب.

ذهبوا إلى البحر والبر ليقيموا شركة رائدة كانت وواصلت سيرتها لتبقى قلباً يضخ دم التنمية في أصقاع البلاد وجهات العالم.

في هذا العدد ستطالع -عزيزي القارئ- ملامح لإنسان جاء من أطراف الوطن شرقه وغربه، وشماله وجنوبه، ليصنع أسمى قيم العمل والمشاركة والبناء ويمهِّد لملحمة التفوق التي استمرت ثمانون عاماً، وما زالت تصنع طموحاتها الكبرى فوق هذه الأرض المباركة.

1964



1952



1946

1948

1951





1950



1950



1950



1964

1949







1950



1950

1951

حياتنا اليوم

التقنيات الذكية.. هل إثمها أكبر من نفعها؟

ربما حمل عنوان هذه المقالة مقاربة مختلفة ومغايرة لما نقرأه عادة عند الحديث عن تقنية جديدة أو تغير تقني ما، حيث يكون الحديث الإيجابي والمستبشر بسبق جديد ييسر ويسهل حياة الإنسان هو الغالب والمهيمن على وجدان الناس، ويقترح العنوان هنا احتمالية أخرى يحاول من خلالها أن يناقش وينبه إلى فكرة تقول: إنه ليس كل جديد –بالضرورة– لابد وأن يكون إيجابياً دائماً ومفيداً على أي حال.

فمن الملاحظ والمشاهد أن عصرنا الحالي (منذ الثمانينيات الميلادية تقريباً) فاق العصور السابقة التي نعرفها في نوعية التطور وفي سرعة ذلك التطور كذلك، فقبل قرن من يومنا الحاضر كانت التقنية تحتاج لمائة وخمسين سنة كي تتجدد ويظهر جيلها الثاني، في حين أن التقنيات تحتاج اليوم إلى مائة يوم فقط! حتى تبدأ دورة جديدة من التقدم والتوسع وتتوالد الأجيال سراعاً واحداً تلو الآخر. وما شأن حمى الهواتف الذكية بألوانها وأشكالها المتجددة كل شهر عنا ببعيد. إن عمر التقنية الآن قصير جداً، نقول شكراً لقانون مور الذي فسر مثل هذا الظاهرة ونظّر لها، ولعل النظرية لها من اسمه نصيب ولو لفظياً، فكلمة «مور» بالإنجليزية تعني مزيداً، وعلاقة مور بموضوعنا حكاية أخرى ليس هذا المقال مجالها.

آخر ما ولد في معامل التقنية من تقنيات هي فكرة «إنترنت الأشياء»، هذه الفكرة تعيد صياغة كل شيء من حولنا، تضفي لكل شيء روحاً جديدة، روح تقنية. تبث في كل شيء حولنا الحياة فيغدو كالكائن الحي، يستقبل ويستجيب. كل شيء، أعني بذلك النظارة والقلم والسبورة والكاميرا وحوض زراعة النباتات وحتى الكتاب! والمتابع يمكن أن يوافق على أنه بقدر تغلغل التقنيات الجديدة التي تستهدف راحة البشر، فإنه يلاحظ أن إدراكنا لكل شيء من حولنا بات له طابع الاستجابة السريعة والآلية، وهذه الاستجابة قد تلغي وظيفة العقل والإدراك عند البشر، فيتصرف بطريقة آلية هو الآخر، بلا وعي ولا إدراك، وهنا مربط الفرس في تساؤلي الذي يثيره عنوان المقال، فبمثل هذه التقنيات ينتقل التفكير دوماً إلى اللاوعي فلا فهم ولا إدراك وعقل. وبالطبع لا يفوتني أن أذكر بأنه لا يسعني أن أنكر بأن مثل هذا السلوك هو نعمة للإنسان، وإلا بدونها فلن ينعم بسهولة الحياة وسيصبح عقله مشغولاً بكل شيء، من أتفه الأشياء إلى أعظمها، ولاشك فإن غياب اللاوعي يسبب إرهاقاً شديداً وحملاً ثقيلاً على كاهل البشر وعقولهم. إن الخطورة في رأيي هي انعدام الوعي والإدراك لمثل هذا المفهوم، حيث من المتوقع أن يقود غيابه تدريجياً، شيئاً فشيئاً، إلى أن تجد الإنسان منا يقوم بأعمال متعددة في آن واحد، يقود سيارته ويتحدث بهاتف، ويفكر في وجهته التي هو يقصدها بلا تركيز وانتباه كافٍ.

ومع الوقت تضمحلّ قوة إدراكه ورغبته في تسيير حياته وفقاً لوعيه، وهذا ملاحظ، كم مرة تعود إلى شاشة هاتفك لتفقد الرسائل الجديدة؟ هناك فوبيا يسمونها الخوف من أن يفوتك شيء، FOMO, fear of missing out، وفي ظني أن الإنسان بدون وعيه ومتابعته لمهمات الأمور لا يغدو إنساناً، فهو أقرب إلى الإنسان الآلي الذي قد يسير بلا هدى، ووفقاً لأوامر تُملى عليه بدون وعيه.

وهنا تظهر أيضاً أخرى مرتبطة بحديثنا، وهي مسألة الاستهلاك والإنتاج، استهلاك الأشياء أسهل وأقرب، أن تقرأ أو تأكل أو تستمع –غالباً– ليس بصعوبة أن تمسك القلم وتكتب شيئاً، أو أن تبرمج، أو ترسم وتنتج وتصنع شيئاً من اللاشيء. وإن الاستهلاك المفرط يكلُّ معه العقل، ويفقد قدرته على التفاعل والتفكير والتحليل، لأنه يستسلم لكل ما يواجهه، فلا يتساءل ولا يناقش ولا يجادل الفكرة حتى يقتنع بها، وهذا مجرب، بخلاف الإنتاج ففيه خيارات وقرارات صغيرة وتجارب وتفكير، كلها نشاطات تشحذ العقل وتقوِّيه وتنمِّيه وتوجد فيه مسارات جديدة مضيئة تنير الأفكار من تلافيفه. فالواجب أن نتأمل في الحال، هل نستهلك أكثر مما ننتج؟ السؤال يبقيك حياً، ويفتح لك من الآفاق والفرص ما لا تعطيه لك إجابة ما، يقول الأديب السعودي عبده خال: «السؤال يمنحنا جناحين للتحليق بعيداً، أما الإجابات فهي شَرَك، نظل بقية العمر نحاول الفكاك منه».

واختصاراً، فإنني أخشى أن يكون كل هذا التبشير بعالم ذكي هو دعوة لتحويل غالبية البشر إلى كائنات آلية تسير دون وعي، أي تُحوله إلى كائنات لا تتحرَّك ولا تفكِّر ولا تتعلم ولا تبتكر ولا تتطور بوعي وإدراك. وأن تغدو مصطلحات الذكي والمريح والسهل لها أثر التخدير، وفي عقولنا وأفكارنا، فننسى قيمتنا الأساسية كبشر في إعمار الأرض وبنائها على الحق، ومقالي في مجمله دعوة للاستهلاك بوعي والتفاعل بالعقل والعاطفة معاً. فنحصد ثمرات التقنية ونزرع الخير في أنفسنا وفي نفوس البشر، ونعمِّر هذا الكوكب البديع الجميل المسخر لخدمتنا حتى يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها. وكما قال ستيف جوبز في خطابه لخريجي جامعة ستانفورد: «ابق متيقظاً، وابق متسائلاً»، فهذا ما يفرق البشر عن غيرهم.

علي الضويلع

استمراراً للاحتفاء بمرور ثمانينية أرامكو السعودية هذا العام، تعرض الصفحات القادمة رؤى ومشاهدات وذكريات عن بناء إنسان أرامكو، تشكيل وعيه الوظيفي، تطوره الوظيفي ومهاراته، تأثيره في المنطقة وتأثره بكافة العوامل المتشابكة من حوله: تعدد الجنسيات، العوامل الاقتصادية، الظروف الاجتماعية والبيئية، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال قيام منشأة بهذا التمدد والعمق والتاريخ دون أن يكون الإنسان هو ركيزتها الأولى الذي تثق أن الاستثمار فيه ليس له إلا نتيجة واحدة لا تحتمل المضاربة.. الربح! وفي هذا الصدد يقول السيد «سكوت مكموري» كاتب قصة تاريخ أرامكو في مقدمته: «إن بناء الأمم يبدأ من بناء مجتمعاتها ممثلة في الإنسان المنتج، فإذا ما أقصينا العنصر البشري عن تلك المهمة الوطنية النبيلة، فلن يتحقق شيٌ على الإطلاق».

من جانبه يسترجع الأستاذ علي الدميني بعضاً من ذكرياته في المقالة التالية.. يروي قصة حياة وطن من خلال التغلغل داخل موظف أرامكو ويعد ذلك مجلداً آخر من مجلدات الحضارة، التي ارتكزت على العقل والعلم والقدرات البشرية ومكاسب التقنية الحديثة.

أما الأستاذ محمد العباس ففي مقالته «ألبوم العائلة الأرامكوية» فيستقرئ المسافة الشاسعة بين ما كان عليه حال ووعي ومزاج ذلك الفصيل من القرويين والفلاحين والمزارعين والبحارة والرعاة والعاملين في الحرَفْ اليدوية من الذين التحقوا بالعمل في أرامكو، وبين ما صاروا عليه من مكانة وأناقة واحترافية. رحلة طويلة وجديرة بالتأمّل والدراسة، كما يلتقط بمجهر دقيق مجموعة من المقاربات المدهشة لاكتشافات منطقة ليست فقط مأهولة بالزيت.. ولكن بطاقة بشرية موهوبة.

بناء الإنسان.. يوماً بيوم



1 وقفات على «دروازة» أرامكو

علي الدميني



«الدروازة» و«أرامكو»، كلمتان وافدتان على اللسان العربي من خارج محيطه، فكلمة «الدروازة» تعود إلى أصول فارسية أو هندية، و قد تسلّلت إلى اللهجة العامية في منطقة الخليج العربي لتغدو علامة لغوية تدلّ على «الباب».. باب البيت أو المجمّع أو المدينة. أما «أرامكو»، وغالباً ما يتداولها الناس بـ «رامكو»، فقد سمّتها الشركات المؤسسة لعملية التنقيب عن البترول في المملكة، باسم «شركة الزيت العربية الأمريكية»، التي لم تكن شراكة عبر عدة عقود، ولكنها بعد ذلك تحوَّلت تدريجياً إلى شراكة حقيقية، ولم تبق كعلامة لسانية، وإنما أحالتها الظروف إلى دلالة على زمن البترول والرفاهية والتقدم لشعب المملكة.

ولذلك لم تعد «الدروازة» باباً لحراسة ما يقبع خلف «شبك أرامكو» وإنما استحالت إلى بوابة عين رائية تتأمل الذاكرة والماضي والحاضر، الذي كانت فيه «أرامكو»، باستخراجها للذهب الأسود، رفيقاً لإعلان تأسيس وحدة المملكة، وتقدمها، خلال ثمانين عاماً.

هذه العين الرائية -كما أراد لها القائمون على إعداد هذا المحور- ستحاول الوقوف على العناصر الأساسية التي أعانت «أرامكو» على توظيف مختلف القدرات والطاقات البشرية، من المستوى البسيط حتى المستويات العالية، التي جاءت من مختلف أرجاء المملكة، ومن مختلف دول العالم، لتحقيق هذه المنجزات، رغم ما اعتور مسيرتها من سلبيات - سأشير إليها في ثنايا حديثي - كان قد تم التعاطي معها، ومعالجتها تدريجياً، من قبل الحكومة السعودية، وشركة «أرامكو»، وسأعرض —من وجهة نظري— لكل ذلك خلال الوقفات التالية:

زمن «أرامكو»

حين فرغتُ من قراءة المجلدين الضخمين الذين أصدرتهما (أرامكو السعودية) عن تاريخها بعنوان « قصة أرامكو السعودية» رأيت أن الصواب يقتضي تعديل العنوان إلى « قصة أرامكو وأرامكو السعودية»، حتى لا تنفرد إحداهما بمجد الإنجازات، ومع ذلك فقد تذكرت —وإن على

مستوى مختلف– مجلدات قصة الحضارة التي أنجزها الكاتب العظيم «ول ديوارنت»، والتي ختمها بكلمة أختار منها قوله: «الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي تحقق –قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد– حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم أفضل للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من الميتافيزيقيا العقيمة إلى اجتهادات العقل في الشؤون البشرية».

ولا غضاضة عندي في القول بأن هذا السفر عن «قصة أرامكو السعودية» هو مجلد آخر من مجلدات الحضارة، التي ارتكزت على العقل والعلم و القدرات البشرية وإنجازات التقنية الحديثة، الذي قدّر لمحتواه بأن يقوم على أرض بلادنا خلال ثمانين عاماً، لا سيما في اهتمامه بتوظيف الطاقات البشرية المحلية، وفي هذا الصدد يقول السيد « سكوت مكموري» كاتب هذا السفر في مقدمته: «إن بناء الأمم يبدأ من بناء مجتمعاتها ممثلة في الإنسان المنتج، فإذا ما أقصينا العنصر البشري عن تلك المهمة الوطنية النبيلة، فلن يتحقق شيء على الإطلاق».

وإذا كان هنالك مكرٌ للتاريخ وأوجاع غائرة في ثناياه، فإن له أيضاً مصادفات سعيدة! إذ حين خرجت كثرة من دول العالم من الحرب العالمية الأولى وبدأت تحاول استعادة أنفاسها في زمن تغير موازين القوى وانهيار إمبراطوريات وقيام دول قوية جديدة، كان الملك عبدالعزيز يستكمل توحيد بلاده، ويرنو إلى أفق امتلاك مقومات البناء والتطوير من خلال حلم اكتشاف البترول وتصديره.

وحين نطلّ على نهاية تلك الحرب المدمرة التي انتهت إلى استسلام ألمانيا بتوقيع الهدنة في 11/نوفمبر/1918م، نرى أن الحلفاء المنتصرين يعقدون معاهدة فرساي في عام 1919م، لتقاسم الغنائم، ومن بينهم الولايات المتحدة الأمريكية، التي دخلت الحرب في أواخر عام 1917م، وخرجت من عزلتها خلف المحيطات، وقررت البحث عن دور جديد لها في أوروبا وفي مختلف أرجاء العالم.

وإذ ركز الحليفان الاستعماريان القديمان (بريطانيا وفرنسا) على تنفيذ معاهدة سايكس بيكو التي كانا وقعاها في عام 1915م، لتقاسم مناطق النفوذ في العالم العربي، نرى أن الولايات المتحدة الأمريكية، التي لم تكن من قبل دولة استعمارية خارج قارتها، تعمل وفق رؤية استراتيجية جديدة على تبنّي فكرة قيام عصبة الأمم، بهدف تعزيز الأمن والاستقرار في مختلف أرجاء العالم، بما يتيح لها استثمار مقدراتها الصناعية والاقتصادية والتقنية، التي لم تدمرها الحرب.

أما سلطان نجد وملحقاتها (الملك عبدالعزيز) الذي لم يدخل طرفاً في تلك الحرب، فقد استطاع استكمال إنجاز طموحه في توحيد معظم أرجاء الجزيرة العربية، منذ استيلائه على الرياض ومروراً بمؤتمر العقير (1922م) الذي رسم الحدود بين مناطق نفوذه من جهة وبين الكويت والعراق، حتى أتم رسم خرائط بلاده الجديدة وإعلان قيام المملكة العربية السعودية في عام 1932م.

ومنذ مؤتمر العقير، كانت الشركات البريطانية والأمريكية، ممثلة في شخصيات متنفذة ،تحاول كسب ود الملك عبدالعزيز لعقد اتفاقيات التنقيب عن النفط، ولكنه كان يتريث في اتخاذ قراره الحاسم في هذا الأمر. وحيث لم يكن الملك عبدالعزيز ولا معاونوه (من أمثال أمين الريحاني، والشيخ ياسين، والشيخ ابن سليمان) يرتاحون للعجرفة البريطانية ذات الإرث الاستعماري ، فقد فضلوا إبرام الاتفاقيات مع الشركات الأمريكية. وفي هذا الصدد يقول «سكوت مكموري» مؤلف «قصة أرامكو السعودية»: «إن السعوديين كانوا صريحين حين قالوا إنهم يفضلون أمريكا، وأخبروا هاملتون بأن أمريكا ليست لها مخططات استعمارية، فضلاً عن أنها بعيدة جداً عن المملكة» (قصة أرامكو السعودية –الجزء الأول – ص 55)، ولذا فقد تم توقيع الاتفاقيات التاريخية مع الشركات الأمريكية، في عام 1932م.

أرامكو في بيتنا!

حين ألفيتني أتذكّر ما يحدث حولي، كنت في الرابعة من عمري (ربما في عام 1952م) كنت أشعر بشيء من القلق والارتباك في هذا البيت، الذي يعمره طفلان، وأم وجدّة. أين أبي يا أمي؟ أين أبي يا جدتي؟، وكانت الإجابة تتكرر



دائماً «سافر ظهران يا ولدي، واشتغل في «رامكو» وبياجينا قريب إن شاء الله».

كان الأب يرسل لنا رسائل ومبالغ من المال تكفي لسد حاجتنا، مع القادمين من الظهران إلى منطقتنا (الباحة)، وكان فقيه القرية وإمام مسجدها هو الوحيد القادر على قراءة تلك الرسائل على جدتي، وهو القادر أيضاً على احتمال كتابة رسالة مقابلة للوالد. وحين كنت في الصف الأول الابتدائي رأيته يكتب على غلاف ظرف الرسالة: جبل ظهران!!، فظننت والدي يعمل في جبل قريب من جبالنا الصخرية العالية، ولم أكن أعلم أن جبل ظهران هو سلسلة من تلال تكوّن ما سمّاه الجيولوجيون بـ «قبة الدمام» التي اختاروها لبدء التنقيب عن الذهب الأسود، من عام 1933 وحتى عام 1938م، حين تفجرت بئر الدمام رقم (7) (بئر الخير بحسب تسمية الملك عبدالله ابن عبدالعزيز) بنافورات الأمل والوعد بإنتاج كميات تجارية من ذلك الذهب!

ولما عاد أبي من الظهران، بعد أربعة أعوام، كانت أرامكو حقاً تدخل بيتنا من خلال ما جلبه والدي من أرزاق، وسجاد لفرش البيت، وملابس، وأكملها بالدافور، والأتريك، وبالراديو الجديد الذي لا يحتاج لشبكة من الأسلاك لاستقبال الإرسال فوق سطح البيت، ولا إلى بطارية ضخمة تشبه بطاريات السيارة الآن، وإنما كان وقودها بطاريات صغيرة كانت تسمى «أحجار الكشاف»!

والدي، لم يكن أول الذاهبين من قريتنا أو منطقتنا إلى وعود جبل ظهران، بل سبقه آخرون إلى الجنة الموعودة على الأرض، ولكن كثيرين أيضاً مازالوا في تلك الأيام يغادروننا إليها كل عام، فهذا قريبنا ترك مهنة الزراعة الفقيرة ليصبح في أرامكو من أمهر عمال منصات التنقيب عن البترول، وذاك من أخوال أبي يلتحق بالشركة ليصبح من أمهر فنيي صيانة المعدات الثقيلة، أما أحد معارفنا من قرية مجاورة فقد حصل على بعثة من أرامكو للدراسة في الجامعات الأمريكية (د. مبارك البريك)، وكنت أكتب رسائل والدته إليه، وهي تبكي حنيناً وشوقاً له من قريتنا، وغيرهم كثيرون..

كانت أحاديث العائدين إلينا في إجازاتهم التي كانوا يحصلون عليها كل عامين تشعل في قلوب الشباب والصغار قناديل التشوف إلى هذا العالم الذي يمنح الفرص لكل القادرين على العطاء، لاكتساب مهارات



جديدة في التجارة، وقيادة السيارات، والكرينات الضخمة، وتعلـم اللغة الإنجليزية، والحصـول على الرعاية الصحية، والرواتب المجزية، وإكمال الدراسة المتقدمة.

أمـا مجلة «قافلة الزيـت» التي كان يجلبهـا القادمون إلينا وفيها صورهـم وهم يقومون بأعمالهـم التقنية، فقد كانت تفتـح الباب لأمثالي علـى فتنة الكتـاب والكتابة وجماليات المجلـة والجريدة، التي رافقتني منذ زمـن الطفولة وحتى اليوم!

الوَعَد «رأس تنورة»

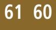
يتناقـل العاملـون في أرامكـو، منذ الأربعينيـات من القرن المنصـرم، أبيـات قصيدة مجهولـة النسب، أختـار منها البيتين التاليين:

وين انت يا اللي تبي ظهران
تـرا الـوعـد راســ تـنـوره
قـل لـه تـرانـا تـمـدنَّـا
كـــلٌ يـــولّـــع بـــدافـــوره

ومثلمـا كان البترول وعـداً بالخير والتطور الذي كان يطمح إلى تحقيقـه مؤسس وحدة بلادنا الملك عبدالعزيز –طيب الله ثـراه– فقد كانت أرامكـو التي أنتجته، تشـكّل بالنسبة لكثيريـن مـن أهالـي القـرى، ولنا كأطفـال أيضـاً، جنتنا الأرضية القادمة.

ولـذا كان هذا المخيال الحلمي بالنسبـة لي، محركاً كامناً قادنـي منـذ كنت طالبـاً فـي الثانوية إلـى اختيـار القسم العلمـي، لكـي ألتحق بعـد تخرجي منهـا في كليـة البترول والمعـادن فـي الظهران، لأكـون قريباً من ذلـك المخيال. وحيـن اخترت تخصص الهندسـة المدنية علمت بعد ذلك أن هذا التخصص لا يحظى بفرص أكيدة للعمل في أرامكو، ولذلك غيرته إلى الهندسة الميكانيكية.

وفـي صيـف عـام 1974م، تخرجـت فـي كليـة البتـرول والمعادن، وعملت كطالب متدرب في الصيف مع أرامكو في رأس تنورة، وكانت الفرص واسعة أمامي لأعمل فيها ضمن حقلـي التخصصي، ولكنني فضلت وعـود الظهران، لأعمل فـي عدة إدارات خلال أكثر من ثماني سنوات. وعلى الرغم مـن عدم تميزي فـي أي عمل خلال تلك الفتـرة ، إلا أنني، علـى رغم ما حققته من إنجـازات وظيفية متقدمة في عدة مؤسسـات كبيرة أخرى خارج محيط أرامكو، ما زلت أحمل أجمل مشاعـر الحنين إلى تلك البيئـات العملية المنظمة، والدقيقة فـي الإنجاز واحترام العمل والنظـام، في أرامكو التي غادرتها في عام 1983م.



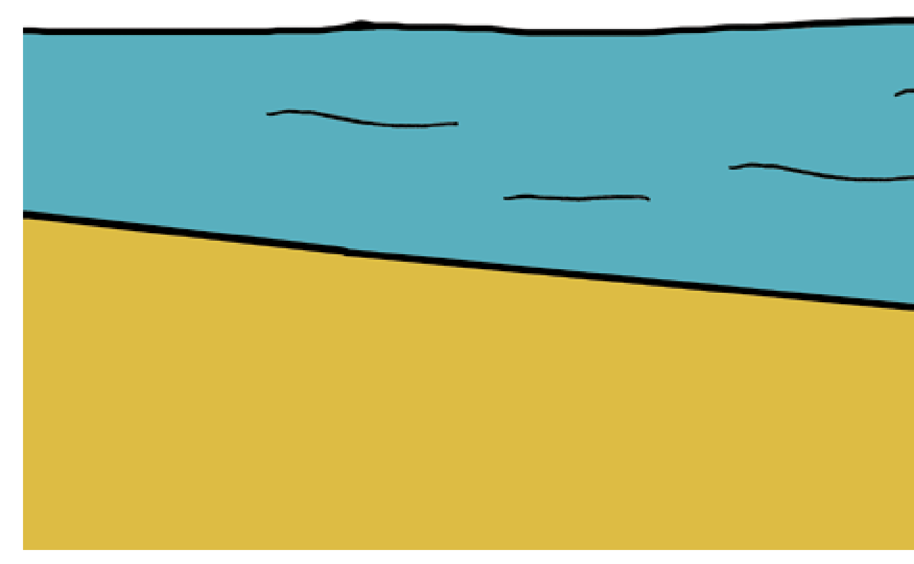
الطريق إلى القمة

لم يكن الطريق، أو الطرق العديدة التي تنكّبت «أرامكو» سيرها فيها، ممهّدة أو مستقيمة أبداً، و لكن هذه المؤسسة التي انتهجت رؤية إدارية متطورة، استطاعت التكيّف مع التحديات، وتفهّمها، والعمل على تجاوزها صوب قمة جبل ظهران، التي غدت مقراً لأكبر شركة بترولية في العالم.

و قد نجَحَت في ذلك لأنها صنعت بيئة عمل شديدة الكفاءة، استطاعت عبرها إدماج كل الطاقات البشرية التي عملت معها، من خلال برامج التدريب والتأهيل والتحفيز، وترسيخ قيم الجدية و الالتزام والإنجاز في العمل، كأسلوب إداري حديث، يجعل الكفاءة فيصلاً في إمكانات التطور وآفاق التمكين الوظيفي في كافة المجالات. ويبدو لي أن عوامل عديدة ، ومنها ما أحدده الآن – في تكاملها وفي تعارضاتها أيضاً – قد أعانت «أرامكو» على بلوغ هذا الإنجاز، ومنها:

1 – في عام 1932م تم الإعلان عن قيام « المملكة العربية السعودية» كدولة حديثة مستقلة، و في عام 1933م تم توقيع اتفاقية امتياز التنقيب عن البترول. وهذا الترافق، الذي يشير إلى البدء من الدرجة صفر في مواجهة التحديات، كان نبتة جديدة ، لا تحمل آثاراً سلبية من علاقات سابقة بين طرفي الاتفاقية، وهو ما سهّل مهمة تدشين مرحلة الأمل في غدٍ أفضل لحكومة المملكة وشعبها، وللشركة أيضاً!

2 – على مدى قرون طويلة، كان سكان الجزيرة العربية يعيشون على حياة الكفاف، في مجالات الزراعة و رعي المواشي، وصيد السمك، وتبادل السلع والخدمات البسيطة، أما حين تفجرت آبار البترول بوعود الخير، فقد كانت أدنى الأجور التي يحصل عليها العامل في أرامكو ، حافزاً كبيراً يغري الآلاف من أبناء المملكة للالتحاق بالعمل فيها، أو بممارسة أعمال مساندة أخرى إلى جوارها. لذلك فقد كانت جدية العمال السعوديين ورغباتهم في تطوير مهاراتهم أمراً طبيعياً لتحسين مستوى معيشتهم وضمان مستقبل عائلاتهم، وكان ذلك مدعاة لتقدير الشركة وعملها على الإفادة منه، واستغلاله أيضاً.



3 – تشكّلت الكوادر القيادية في أرامكو وفي مختلف التخصصات والمهن من مواطني الشعب الأمريكي، الذي يتحدّر معظم أفراده من جنسيات وأعراق مختلفة. وقد ورث هذا الشعب ثقافة الدستور (1788م) و وثيقة الحقوق (1791م)، فتجاوزوا عقدة إبادة الهنود الحمر، ومأساة استعباد السود الذين تم تحريرهم في عام 1862م، ليدشنوا مرحلة حضارية جديدة ، تؤمن بالتعددية واحترام الأقليات، واحترام المعتقدات، وحقوق الإنسان، والتأكيد على أن قيم العمل والجدارة والكفاءة هي أساس حقوق المواطنة. لذلك استطاعت تلك النخب الأمريكية أن تتأقلم بفاعلية عالية مع العمال السعوديين وغيرهم من الجنسيات الأخرى، وأن تؤهلهم إلى مستويات عملية أعلى.

ومن ضمن الأمثلة على استثمار الطاقات الكامنة في المواطن السعودي، نورد ما دوَّنه مؤلف كتاب «قصة أرامكو السعودية» عن الاستفادة من مواطن ذكي ونبيه وغير متعلّم، هو خميس ابن رمثان حيث يقول في هذا الصدد: «أمضى بارقر (رئيس الشركة فيما بعد) وستاينكي (الجيولوجي الكبير) وخميس بن رمثان أسابيع عديدة على مدى السنوات القليلة التالية (لعام 1934م) جنباً إلى جنب في أثناء النهار وهم يعدون خرائط الارتفاعات ويبحثون عن النتوءات الجيولوجية وغيرها من العلامات «...» وخميس لا يمكن أن يتوه في الصحراء أبداً، فبالإضافة إلى حاسته السادسة التي هي بمنزلة بوصلة داخلية لا تخطئ، فإنه يتمتع بذاكرة غير عادية تمكّنه من تذكّر شجيرة مرّ بها عندما كان شاباً، أو طريق إلى بئر أخبره بها أحدهم قبل عشر سنوات». (المجلد الأول ص 84، 85).

وأخيراً

سأقول، وبيقين متجرد من التحيز، إن أرامكو كانت مدرسة صناعية وتقنية وإدارية لبلادنا، حكومة وشعباً، أسهمت في إرساء دعائم تقدم بلادنا وازدهارها، وخلّفت لنا إرثاً مهنياً وتقنياً وإدارياً متمثلاً في «أرامكو السعودية»، وكان على مؤسساتنا الحكومية والأهلية منذ زمن بعيد أن تستفيد من تلك التجربة، في كافة الحقول المعرفية والإدارية، وأن تفتح «دروازتها» على منجزها الاجتماعي والحضاري في داخل السياج الذي أحطناها به، للإفادة منه في كافة المجالات!

2 ألبوم العائلة الأرامكوية

محمد العباس

لا يمكـن للفـرد أن يغير مهنتـه بدون أن تتبـدل نظرته إلى نفسه وللحيـاة التي يعيشها، فهنـاك تناسب طردي ما بين وظيفــة الإنســان وما يجـري عليه من تحولات فـي مستواه الثقافـي والسلوكـي. وهذا هو جانـب مما يُعـرف بالجسد الاجتماعــي الــذي يمكن قــراءة تحولاتــه واستنباطاته من خــلال خطاب الصورة. فمن يطالـع صور أرامكو على مدى عقود، سيجد نفسه أمـام إعلان عما سيأتي في المستقبل، ويحس في لحظة من اللحظات بأنه يقلّب ألبوماً عائلياً. فهو سجـل اجتماعي مشترك يعني الجميـع ويمثلهم. خصوصاً أن هناك بعض الأسر التي توارثت العمل في الشركة بأربعة أجيال.

هكذا هــي الصورة في أصلهــا الثقافي. إذ تشـكل الذاكرة الحضريـة والفضاء المعاشـ. فمن يتأمل صــورة الشابين القرويين وهما يساعدان ملاحظ أعمال الحفر، لس هليارد فـي تجهيـز مثقب حفــر البئر رقــم 7 ســنة 1937م. وكان حينئـذ هو مشــروع الحفر الوحيــد القائم، سيــدرك أنهما مجـرد عامليــن من ضمن فريـق يقوم بــالأداء العضلي في عمليـة التنقيب المعقدة التي يؤدي الدور الأبرز فيها خبراء التنقيـب المتمرسون. فهما لا يتوليـان أي مهمة تذكر سوى مساعـدة الطاقم الفنــي المحترف. وهو أمـر يمكن تفهّمه واستيعابـه علـى اعتبار أن صناعـة النفط بالنسبـة لأبناء المنطقــة تُعد في تلك الحقبة بمنزلة الأرض الغامضة التي يجهلون أبجدياتها.

وعند تأمل صورة الاحتفال بإنجاز مهمة حفر البئر رقم 12 في شدقم سنة 1954م بوساطة فريق عمل سعودي بالكامل بعــد تلقيهم التدريــب المهنــي المناسب والمكثَّــف، ينبثق ســؤال مفرح عــن المسافة التي قطعها إنســان هذه الأرض للوصــول إلى ذلك المرقــى العلمي والمهنــي. فالوجوه كما تفصـح الصورة تنم عن الثقــة والبهجة والمكانة التي صار يحتلها موظفو أرامكو من أبناء الوطن. الأمر الذي يستدعي تثمين تلك اللحظة من خلال الانفعال الواعي بما تؤديه تلك الصــورة العتيقة مــن إثارة حسّية بالحاضـر، وما يمكن أن يكون عليه المستقبل.

علـى هــذا الأســاس يمكن قــراءة متوالية مــن الصور التي تدفــع بها أرامكو للنشر بين آونــة وأخرى للتعريف بتحولات الشركــة ومنجزاتها. بما هي السجل الــذي يمكن الاعتماد عليه لاستقراء الصيــرورة التاريخية والاجتماعية والمهنية والثقافيــة للموظــف الأرامكــوي وأنــاه المجتمعيــة. فمــن يتفحص صورة علي النعيمي في مدرسة الجبل سنة 1946م ويلاحظ ما كانه هذا الطفل البسيط، لا يمكن إلا أن يُصاب بالدهشــة والإعجاب عندما يلمح صورتــه بعد عقود، حيث شغــل منصب رئيس أرامكو وكبير إدارييها التنفيذيين، إلى أن صــار وزيراً للنفط والثــروة المعدنيــة. وكأن تصويراته تلــك تريد القــول إن شركة أرامكو قد أوكلـت لنفسها نظام يُعلي من قيمة العمل والانضباط والمثابرة.

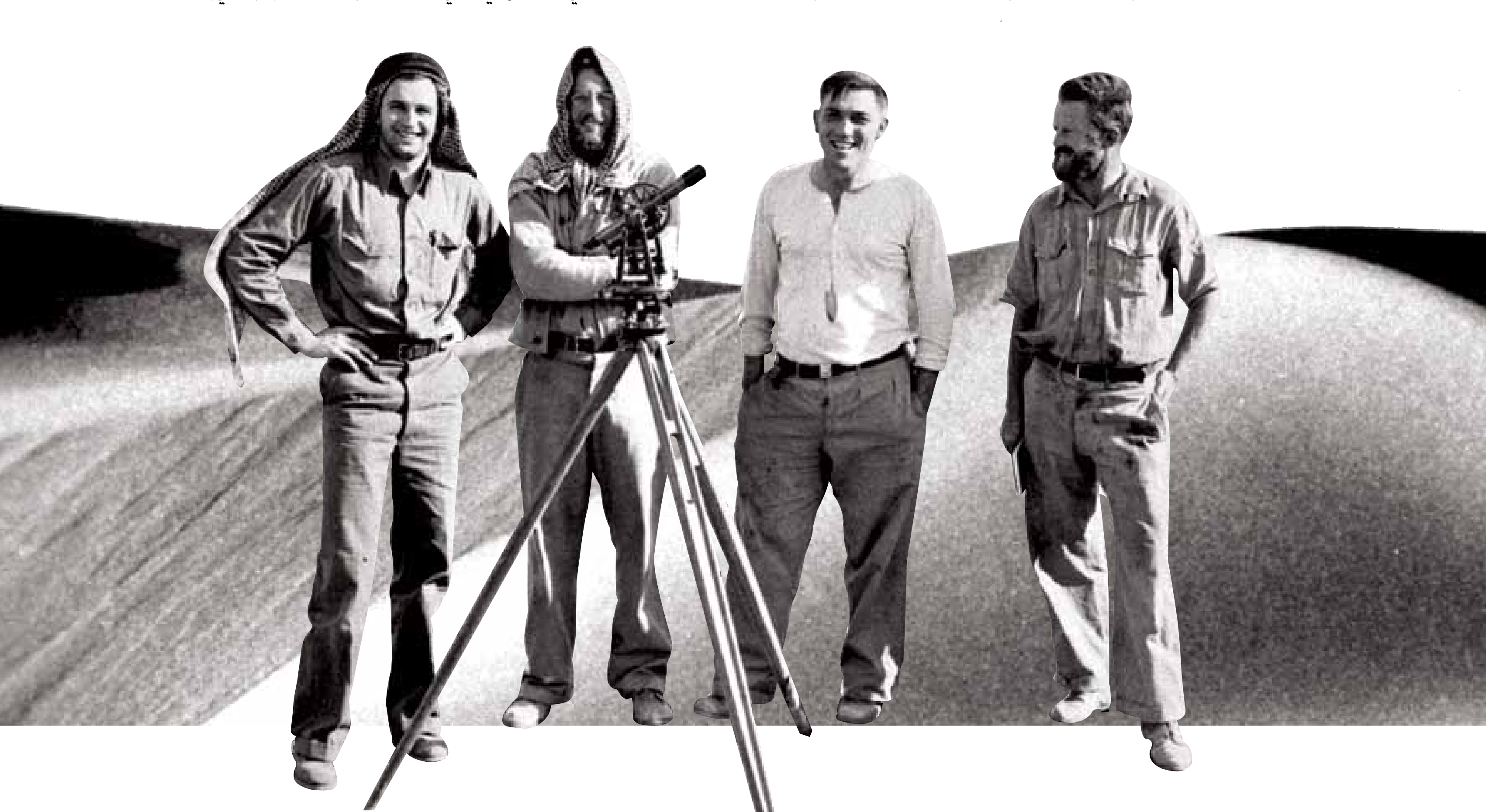


هناك مسافة شاسعة بين ما كان عليه حال ووعي ومزاج ذلك الفصيل من القرويين والفلاحين والمزارعين والبحارة والرعاة والعاملين في الحِرف اليدوية من الذين التحقوا بالعمل في أرامكو، وبين ما صاروا عليه من مكانة وأناقة واحترافية. فهي رحلة طويلة وجديرة بالتأمّل والدراسة، إذ لم يتغير ذلك العامل الذي كان يخجل في بداية عمله في الشركة من ارتداء الزي الأجنبي بين ليلة وضحاها. حيث كان يلجأ لحيلة حشر ثوبه الأبيض داخل بنطاله في أثناء العمل حتى إذا انتهى دوامه في الشركة أخرجه وغطى به البنطال لئلا يعيره أهله وأقرانه، بل تغيرت وتطورت أدوات تماسه ووعيه بالحياة عموماً، وليس متطلبات الوظيفة وحسب. وذلك نتيجة تدريب ودراسة ورعاية نفسية وطبية واجتماعية جعلت منه في نهاية المطاف كائناً لافتاً يحمل قيمة مهنية انضباطية عالية. بمعنى ظهور شخصية أرامكوية ذات أثر رمزي وواقعي بارز ومثير للإعجاب.

ولا شك أن أرامكو لم تطأ أرضاً فارغة من الإمكانات البشرية، ولم تتعامل مع كائنات خالية من المواهب والقدرات. بل العكس هو الصحيح فهذه الأرض كانت مأهولة بمخلوقات على درجة من الرغبة والقدرة في تغيير معادلة الحياة نحو الرفاهية، كما يشهد تاريخها المهني وتنظيمها الاجتماعي سواء في عوالم الغوص أو الفلاحة أو الخبرة بالصحراء. ولذلك انطلقت أرامكو من حيث توقفت حياة أولئك بفعل انهيار تجارة اللؤلؤ غيرها من المهن التي تأثرت نتيجة الحروب والمجاعات والتغيرات الصناعية الدولية. أي من لحظة التخثّر الحضاري للمكان. ولكنها أرادت أن تسبغ أسلوبها على كل شيء، أي أن تحفر بصمتها الحضارية في المكان وناسه، كما يشهد بذلك التاريخ الاجتماعي لهذه الأرض.

وهنا يمكن التمثيل بقصة خميس بن رمثان وعلاقته بتوم بارقر، أحد أهم الرؤساء التنفيذيين في تاريخ شركة أرامكو. حيث ساوى بينه وبين الجيولوجي ماكس ستاينكي كما يظهر ذلك جلياً من حميمية الصور التي تجمعهم وتساوي بين قاماتهم. فهو دليل موهوب، حسب رأيه، ولا يمكن أن يتوه في الصحراء أبداً. كما أنه متمكن من قراءة العلامات الصحراوية بنفس قدرة الخبراء على قراءة الخرائط. بالإضافة إلى قدراته على فحص النتوءات الصخرية وربطها بالتقارير الجيولوجية. وهذا هو بالتحديد ما مكّن هذا البدوي من الحصول على وظيفته أوائل الثلاثينيات. فمهارته هي أوراق اعتماده واستحقاقه للوظيفة والمنزلة التي نالها. لدرجة أن الشركة أطلقت اسمه (الرمثان) على الحقل الذي تم اكتشافه في القيصومة.

إن قراءة ذلك الكم الهائل من الصور الأولية لمساكن موظفي أرامكو في حي السعوديين، ووسائل مواصلاتهم، وملبوساتهم، وكل ما يتعلق بحياتهم يكشف عن الوظائف والمكانة المتدنية التي كانوا يقبعون فيها قبل أن يتلقوا التأهيل المناسب. فصورة ذلك الحشد من الشباب أمام مدرسة الحي السعودي التي كانت بمنزلة خيمة (برستي)



سنــة 1940م تشــي بما قررتــه الشركة مــن مستقبل علمي ومهني واجتماعي لأولئـك القادمين من الأرياف والبوادي. كمـا أن صور البدو من أصحاب الإبـل الذين استعانت بهم أرامكو ووظفتهم سنة 1942م لنقل اللوازم ما بين الرصيف البحـري في الخبر ومستودعاتها فــي الظهران تفصح عما سيكـون عليه حـال أولئك بعـد دمجهم في برامـج الشركة وإعادة تأهيلهم وفق حاجاتها ومخططاتها الاستراتيجية.

بالمقابـل، تُفصح صـور المبتعثيــن إلى بيـروت والولايات المتحـدة الأمريكية، مـا كان يدور في عقـل القائمين على الشركـة من خطط للتنمية البشرية. فصورة هاري سنيدر، مخطـط جهود السعـودة الأولى فــي أرامكو سنــة 1949م، وهــو يودّع ثلاثة مــن المبتعثين العائدين مــن نيويورك إلى السعوديـة بعـد تلقيهـم دورات تأهيلية في مركـز التدريب التابــع لأرامكـو فــي ريفرهد، تقـول كثيراً عــن المستقبل. تماماً كما تنطق صورة مجموعة من الطلاب الذين التحقوا ببرنامــج الدراســات العليـا قبالة البيت الأبيـض، وهم في كامـل أناقتهـم بالمعنى الـذي أرادت الشركـة توطينه في أذهان أولئك والمهمات الملقاة على عواتقهم. حيث تكشف تلـك الصــورة ومتوالياتها عن واقع ومظهــر موظف أرامكو اليــوم. وتلــوّح بشريحــة اجتماعيــة ناشئة وواعــدة بحداثة الحياة.

إذاً، هنالك علاقة طردية عميقة بين المظهر البدائي الذي كان يبــدو عليــه موظف أرامكو في بداية فتــرة التنقيب عن النفط، وبيــن ما صار عليه اليوم هــذا الموظف. فالصورة أو الهيئــة الشكليــة اللافتة تخبــئ تحت طياتهــا كائناً على درجة من التأهيل العلمــي والمهني. بل تقترح وبقوة الشكل الجديـد للمجتمعيــة الحديثة. حيث عــزَّزت الشركة إنسان هــذه المنطقــة مع مــا يتوافــق مــع حاجاتها كأكبــر شركة منتجة للطاقة. وهي مهمــة يمكن رصد تحولاتها على حافة فكـرة السعودة. حيــث تفصح لغة الأرقام عــن وجود خطة مدروسة يكمن سرها في التدريب الذي سجلت آلة التصوير وعدسات المصوّرين كل تفاصيله.

نعم التدريب، إذ لا يمكن لأي موظف من موظفي أرامكو أن يُستثنــى من التدريب. ليس علــى ما يتعلق بوظيفته وحسب، بل على ما يتعلق بسلامته ووقاية أسرته من المخاطر خارج وداخـل نطاق العمـل، فهو ذخر الشركـة وفخرها وعنوانها الذي تباهي به. حيث يتلقى كل موظفي الشركة تدريباً دورياً



على طريقة القيادة الآمنة وأصول السلامة في أدق تفاصيل حياته، بالإضافة إلى ما يتلقاه من تأهيل ثقافي على مستوى اللغة وإتقان استخدام المعدات الصناعية والوسائل الإلكترونية الحديثة، التي تضعه دائماً في المقدمة نتيجة اكتسابه لخبرات غير متأتيه لغيره.

ولتحليل كُنه اللحظة الثقافية التي أسست لها أرامكو وما احتوتها من قيم حياتية حديثة، لا بد من العودة مرة أخرى إلى إرشيف الصور الذي سجل كل ذلك التحول نحو الحرفية العالية، والأداء الوظيفي المتقن. فالصور الأولى كأثر فني تختزن بيانات وأدلة موضوعية. فهي تتحدث عن عمال أميين غير مهرة يقبعون في سلم الدرجات الوظيفية الدنيا بوظائف متدنية في الشركة. ولرفع كفاءة أولئك تم المضي في تصفية مدرسة الجبل، التي لم تعد كافية للإيفاء بحاجات الشركة. وتم دفع السعوديين إلى حقل التدريب الصناعي، من خلال معهد فني مهني للتدريب على أعمال الزيت، مع ما يحف بذلك التأهيل من تنمية لشخصية الموظف الاجتماعية وحضوره الثقافي. كما تُشاهد تلك التغذية المدروسة للشخصية الأرامكوية من خلال إرشيف من الصور الدّالة والثرية بالمعاني لموظفين يمارسون الرياضة البدنية ويرتادون أماكن الترفيه أو يتبضعون في مراكز التسوّق وهكذا.

وبالتأكيد يؤدي ذلك الكنز من الصور مهمة تسجيل اللحظة بأمانة. فمن يرتد إلى الماضي عبر هذه الوثائق البصرية لا بد أن يمارس شيئاً من الربط ما بين الواقع الذي كان عليه إنسان هذا المكان وما راودته نفسه به من أحلام وأفكار وخيالات. ليتمكن من إعادة تشييد تلك الحقبة في الذاكرة، ويتعرف إلى ناسه ومكانه. ومن خلال تلك الصور الأثرية يمكنه الاقتراب أكثر من سر هذه الحياة المجتمعية الجديدة. فهذا الألبوم العتيق المتجدد للعائلة الأرامكوية، ما هو إلا السطح المرئي لما لا يُرى من أعماق تلك الشخصية. وما حظوة المظهر الشخصي الذي يبدو عليه موظف أرامكو اليوم، وأسلوب الحياة التي يشيد بها الآخرون، إلا نتاج تبلور ثقافة ذات مضامين وقيم عالية على كل المستويات. الأمر الذي يفسر ما يُصاب به من يقلّب ألبوم هذه العائلة من عدوى عاطفية.



صورة شخصية



نشأ على قيم التواضع والنُبل والشهامة، وروح الإيثار في حي «المسفلة» الشعبي بمكة، الذي كان يعج بالثقافة على بعد أمتار من الحرم الشريف. يصغي إلى محدثيه بصدر رحب، ووجه لا تفارقه الابتسامة. رجل ابتعد عن المظاهر والتكلف هروباً منهما، وربما احتقاراً لهما، همه هو الوصول إلى الجوهر، وتحفيز المبدعين، وتهذيب قواعد إنتاج الفكرة بنزع قشور الزيف، ولا يهتم كثيراً إن كان نزعها سيسبب الألم أو الإزعاج لمن تنزع عنه. يقول ما يقصد ويقصد ما يقول.. إنه الأستاذ فايز محمود أبّا الذي انحاز إلى الفن، وأصبح ذاكرة لجيل علق على رقبته جرس، الذي يتناول خالد الطويلي سيرته في هذا المقال من واقع معرفته وبعض مجايليه به، ويسلط الضوء على جوانب من حياته وشخصيته.

رسم: المحترف السعودي - عمر صبير

فايز محمود أبّا..
ذاكرة لجيل علّق على رقبته جرس



بدأ فايز محمود أبا الكتابة منذ شبابه أوائل السبعينيات الميلادية، حينما كان يبعث من مكة المكرمة بمراجعات لإنتاج أدباء النهضة كالعقاد وطه حسين والمازني، ومتابعات للأدب المهجري أدهشت محرريه لأنه اتضح لهم بأنه سابق لسنه في نضجه الثقافي. وأصبح فايز واحدا من قلة في المشهد الثقافي السعودي ممن تمكنوا من الأدبين العالمي والعربي بشقيه التراثي والمعاصر.

عمل محاضراً في اللغة الإنجليزية في كلية التقنية بجدة قبل تفرغه للصحافة في عام 1989م، ولكن مقدرته العالية في اللغة العربية جعلت الكلية تكلِّفه بتعليم اللغة العربية أيضاً على الرغم من كونه غير متخصص فيها أكاديمياً. وحينما اتجه للعمل في الصحافة السعودية الصادرة باللغة الإنجليزية، التقيت به لأول مرة بمحض الصدفة في مركز التدريب الخاص بالشركة السعودية للأبحاث والنشر، التي تنشر مجموعة من الصحف والمجلات السعودية، ومنها عرب نيوز التي اتجهنا للعمل بها.

كان مظهره غير متسق مع باقي المتدربين شكلاً وسناً. كنت أحدق فيه وأراقب بسماته الاستقرائية وأحياناً ضحكاته المجلجلة محاولاً استنباط هويته وسبب وجوده معنا. رؤساء التحرير من مختلف مطبوعات المجموعة خلال فترة التدريب كانوا يلقون علينا محاضرات في الكتابة الصحفية والأساليب والزوايا، ولكنّ كثيراً منهم، مثيرين لدهشتي، كانوا ينظرون إلى فايز ثم يلقبونه بالأستاذ، فأصدرت عليه داخل نفسي مجموعة من الأحكام المسبقة، تهاوت جميعها بمجرد انطلاق الأحاديث بيننا، وتعلمت منه فوراً أول درس من سلسلة دروس مهمة لم يبخل علي بها كما كان يفعل مع كل الشباب الذين احتكوا به.

وبعد أن عملت معه في عرب نيوز، اكتشفت أنني في حضرة كنز معلوماتي نادر، قد نجوت بأعجوبة من لسانه البتار، وبات اسمه لدي كما يعرفه محبوه: «الأستاذ». فكنت كاتباً صحفياً محظوظاً بأن تقاطعت سبلي مع رجل تفيض أعماقه ثقافة وحرية. كان في طلائع هواجسه أثناء عمله في عرب نيوز نقل نبض الشارع المحلي إلى تلك الصحافة التي لم تكن تولي اهتماماً بالحياة اليومية المحلية بتحقيقات وقصص خبرية من الشارع، كان فايز ينتجها ببراعة، بعد أن خلع وهم نخبوية المثقف، وحطم أبراجه.

يقول عنه صديقه المقرَّب، الروائي محمود تراوري: «في ظني أن للتكوين المكي الأول لفايز دوراً في تأسيس موازنة بداخله وعدم إصابته بثؤلول العجرفة والطاووسية. فقد تلقى تعليمه في مدرسة الفلاح بمكة، إضافة إلى تتلمذه كما هي عادة المكيين في ذلك الزمان على يد عدد من علماء وحلقات المسجد الحرام، التي دائماً ما يرجع إليها فايز الفضل في معرفته العلوم العربية والشرعية والتراث».

وبعد إتمامه المرحلة الثانوية التحق بكلية التربية فرع جامعة الملك عبدالعزيز بمكة آنذاك (قسم اللغة الإنجليزية) ونال درجة البكالوريوس عام 1978 م بعد أن سجل تفوقاً أهلَّه لمواصلة دراساته العليا في جامعة الملك عبدالعزيز حيث بدأ في إعداد أطروحة الماجستير عن أدب الكاتب الإنجليزي (سومرست موم)، ولكنه لم يتمها لخلاف دبَّ بينه وبين مشرفه في الجامعة.

وهنا تتجلى شخصية فايز التي يعرفها عنه الوسط الأدبي، وهي عدم اتساقه مع المناخات الصقيلة، وتمسكه الصارم الثابت بمبادئه وقناعاته، ورفضه التنازل والانحناء. فهو يقول: (الطيور لا تغرِّد داخل القفص)، فهو لا يرى المثقف إلا طائراً حراً.

قبل بضع سنين، أصاب الحزن كل محبي فايز ومتابعي أعماله الثقافية، حين أصيب بجلطة دماغية أفقدته القدرة على الكتابة، وإن لم تفقده شخصيته القريبة إلى النفوس، وقدرته على متابعة الحراك الثقافي العربي والدولي، في تماسك يذكر بتماسك حبات الطوب التي كان ينتجها مصنع جدّه محمد أبا أحد أوائل من أنشأوا مصانع الطوب في مكة قبل أكثر من نصف قرن.

وعبَّر محمد عسيري في توصيف ذلك المصاب: «لم يشعر أحد أنه كان يذوب كفتيل فانوس معلَّق على مدخل بيت عتيق يجلس تحت ضوئه زائر الليل القادم من البعيد يصدح بقصيدة الغربة التي سكنت قلبه. لم يشعروا بأنينه المدفون في ضحكته العفوية، ولكنه كان يعلم أنه مسافر وحان رحيله. خانه المرض وأسقطه ليسقطنا معه كحبات عنب منفية من فجر كرم تنصل لطينه، ومائه، وحارسه».

عمل فايز في صحيفة عرب نيوز، ثم صحيفة سعودي جازيت الصادرتين باللغة الإنجليزية، وكانت آخر محطاته الصحافية صحيفة الوطن منذ مرحلة التأسيس عام 1999م، ثم انتهى به الأمر مستقيلاً عام 2001م بعد أن رأس فيها قسم الترجمة.

وطيلة هذه الفترات اشتهر منزله كمنتدى ثقافي، تميز أكثر بانفتاحه على الشباب والناشئة الذين يجدون عنده تواضع المثقف وإنسانيته، وهي المرتكزات الأساسية التي تحدد قسمات فايز ورؤيته الأمر الذي أكسبه احترام الكل حتى أولئك الذين لا يروق لهم.

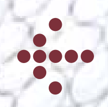
ويصفه تراوري وصفاً دقيقاً يقول فيه: إنه صريح في أدب، سليط لسان بنبل، لماحته مدهشة، وحدته يمررها بحب تخالطه ابتسامات صافية. كما يقول عنه الكاتب (عواض العصيمي) - أحد من مروا على فايز في خطواتهم الأولى بدرب الأدب: (الناقد فايز أبا... يقبل إليك بحديثه وصوته الخفيض فتشعر بعمق الزمن، وتحس كما لو أنك كنت تنصت له منذ زمن طويل وليس اللحظة. لطفه وبشاشة محياه تستقبلانك قبل الباب وتجلسانك بتهذيب شديد بالقرب منه. لم أشاهده عابس الوجه، ولم اسمعه غليظ الصوت. كان إلى جانب محاولاتي في الثمانينيات كما لو أنه يخشى عليها من الذبول السريع في وسط ثقافي لم يكن يعترف إلا بالمشاهير.

أما في كتاباته ومتابعاته النقدية فتتضح رؤيته النقدية في قوله في حديث صحفي سابق نشرته صحيفة الرياضية (المنهج الذي أميل إليه، منهج تاريخي يبحث في علاقات الإنسان.. علاقة العام بالخاص)، وكان دائماً يرى (أن النقد مرحلة تحتاج إلى كثير من الأدوات، وكماً معرفياً هائلاً وفي جميع الاتجاهات والعلوم الإنسانية التي تتعامل مع الثقافة بمفهومها الأنثروبولوجي الشامل).

وعبر هذه الرؤية تمكَّن فايز من اجتياز المأزق الذي وقع فيه عدد من الكتَّاب والنقَّاد في فترة الثمانينيات عندما أسرفوا في مصادرة وتهميش المخالفين لهم من التوجهات الأدبية الأخرى. وظل صديقاً للجميع لأنه ينطلق من موقف فلسفي يؤكد على ضرورة إعلاء فكر وثقافة الرأي والرأي الآخر ضمن أطر التحضر والتسامح والأدب.

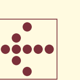
وأكثر جانب يذكر في نتاج فايز اهتمامه بالأدب الأجنبي، خاصة في شقه اللاتيني، حيث أسهم طيلة فترة الثمانينيات في تقديم عديد من النصوص والأسماء الأجنبية بعد أن ترجمها وعرف لها، وكان من أبرزها (ضفة النهر الثالثة) قصة البرازيلي غوريماس روزا ونصوص جوزيه أيالا وأغستو دالمار. وفي هذا السياق يشار إلى كونه أول من نقل كتاب الروائي الفرنسي (كونديرا) عن فن الرواية إلى اللغة العربية، ولكن انعدام حركة الترجمة في السعودية وانصراف الأندية الأدبية عن الأدب الأجنبي حال دون طباعة الكتاب حتى طبع عقب ذلك في أكثر من بلد عربي، بعد أن كان فايز قد نشر جزءاً كبيراً منه في زاويته الأسبوعية بصحيفة البلاد (من يعلِّق الجرس)، كما ترجم أعمال عدد من القَصَّاصين السعوديين إلى الإنجليزية. وأنجز دراسة شاملة عن القصة الحديثة في السعودية بالثمانينيات حاول خلالها إيجاد صلة بين الطفرة الاقتصادية وما ساد تلك القصة من اغتراب. وفي هذا السياق يرى بعض المتابعين أن فايز الاسم الأجدر ترشيحاً لتناول القصة السعودية، بحكم معرفته بفسيفساء الواقع المحلي، وإسهامه في خدمة الثقافة الوطنية، ومشاركته في صناعة الأدب الجديد، بكل حب نزيه، وصمت أبي وابتعاد عن الزيف والادعاء.

وصفه الناقد حسين بافقيه، بأستاذ الجيل داعياً إلى تكريمه وآملاً أن نكون أوفياء لمن كابدوا الصعاب من أجل ثقافتنا وفكرنا وأدبنا، وطالب بأن يكون تكريمه بالتعريف بسيرته، وجهاده الثقافي، والفحص عن أصالته الأدبية وبصيرته النقدية. وشبه بافقيه، الناقد فايز أبا بالفلاسفة الشفاهيين في الفلسفة اليونانية، موضحاً أن تأثيره في مريديه وأصدقائه طاغٍ من خلال مقالاته وترجماته، وهي أعمال عميقة، لافتاً إلى أن حضوره بين الناس وفي الناس أشد أثراً، جُبل على أصالة التفكير، وعمق النظر، وخفة الروح، وكان له بصيرة نافذة حين يقارب قصيدة أو نصاً أدبياً، وقد اصطلح فيه فكر الغرب وتراث العرب، ولم يصب بأدواء الحداثة، حين تنكَّر نفر من منتحليها للتراث، لأن جِبلَّته تحول دون ذلك.



فيما تتقدَّم مجمل الآداب والفنون وتتبدَّل مدارسها ورموزها، فإن الفن التشكيلي المعاصر يخوض جولات تجدّده، ويتقدَّم ليكسر قوالب الشكل والمضمون معاً.
انتهى العصر الذهبي للفنون، يقول أحدهم، لكن آخرين يواصلون مغامرتهم الجمالية وأمام أعينهم تمزقات العصر ووحشية حروبه وتشظي إنسانه.
الناقد فاروق يوسف، يقدِّم في مقالته التالية موجزاً لملامح الفنون الجديدة التي تحتل واجهة الفن في معارض العالم.

ما الذي تفعله الفنون المعاصرة في مواجهة عالم يتداعى؟



تأكل مارينا ابراموفتش رأس بصل كبير أمام الجمهور. يحنط داميان هيرست شاة ويضعها في صندوق زجاجي مغمورة بمحلول حافظ. تعرض تريسي امين سريرها الشخصي على الجمهور وتنال بسببه كبرى جوائز الفن في بريطانيا.

وعي جديد بالفن

يعبئ كوبر كيساً بالرمل، ويحدث له ما يشبه الثديين. يصنع ريتشارد لونغ دوائر كبيرة من الحجارة ومن الأخشاب. تلقي انجيلا دي لا كروز أبواباً خشبية عتيقة، بعضها فوق البعض الآخر. يصنع أنش كابور مرآتين عملاقتين واحدة في شيكاغو والأخرى في نيويورك، تكلفة كل واحدة منها عشرة ملايين دولار. هناك كراسي وأسرَّة لا تصلح للجلوس ولا للنوم، لأنها غطيت بالمسامير تُعرض باعتبارها أعمالاً فنية. ترسم دوريس سالسيدو صدعاً بطول 300 متر على الأرض يتوهم المشاهدون أنه صدع حقيقي فيخشون الاقتراب منه. يجلب جيف كونز دمى من أسواق الأشياء المستعملة وينسبها إلى نفسه. يصمم ارنستو نيتو وسائد وجدراناً من القماش ويصنع منها متاهة متاهة يضيع في دروبها الجمهور. حشود من الكائنات الطينية الصغيرة يضعها انتوني غورملي على الأرض. تطلق جانيت اشلمان شبكات خيطية هائلة في الهواء. ترسم جانين انطوني بشعر رأسها على الأرض. كارين فينلي تنثر الحليب فوقها أمام الجمهور. منى حاطوم تصنع حاجزاً من الأكياس الرملية تنمو من خلاله وفوقه الأعشاب. تعلِّق سارة سز سلالم جاهزة في الهواء. تارا دونفان تطلق غيوماً من مواد خفيفة. أشياء كثيرة سواها تبدو كما لو أنها دخلت

خطأ إلى قاعات العرض، ولكن كثيراً منها يقيم الآن في المتاحف ويمكن أن نرى صُوره في المجلات والكتب الفنية. البعض تسلل إلى الساحات العامة. ما من خطأ إذاً. علينا أن نقتنع بأن الفن تغيَّر. أن نؤمن بما يجري أو لا نؤمن ذلك شيء آخر. ما يحدث من حولنا يمكن تشبيهه بطي سجل قرون من الفن. لقد ذهب كل السحر القديم إلى المتحف. لم يعد في الإمكان الحكم على الوقائع الفنية من خلال الأدوات النقدية (التحليلية والانطباعية) الراسخة. بل إن ما يجرى تكريسه منذ نهاية عقد الثمانينيات من القرن العشرين يتفادى إنتاج أدوات نقدية ترافقه لتكون مقياساً له. وكما أظن فإن النقد لم يَعد نافعاً. لقد استهلكت النظريات النقدية نفسها مثلما فعل الفن القديم. نحن إذاً نقف إزاء وعي جديد بالفن يستلهم خلاصاته من حيوية فكرة جديدة للعيش. وهي فكرة نقدية يهمها كثيراً أن تعبئ عقول الجمهور بأثرها المتمرد والمشاكس والمدمر. إذاً لم تعد الذائقة الفنية هي المقصودة بالهجوم، ذلك لأن فن اليوم لم يعد معنياً بالجمال إلا باعتباره شرط حياة إنسانية مستقرة. «الحياة ينبغي أن تكون جميلة بما يكفي لإنتاج أسباب التمسك بها» هذا ما يذهب إليه الفن الجديد باعتباره هدفاً. ولكن كيف يمكن التفكير بذلك الهدف؟

القبح الزائد والجمال القليل

ما نشهده اليوم من أحداث كبيرة لا يدفعنا إلى التفاؤل بمستقبل البشرية. هناك نوع صارخ من التمييز: أقلية بشرية محمية من كل خطر متوقع فلا جوع ولا تشرد ولا عوز ولا حرمان ولا فاقة ولا تهديد بالإبادة ولا منع ولا سجون ولا عزل ولا كبت ولا نقص في الحريات ولا استهانة بمستوى الكرامة الإنسانية، في مقابل أكثرية مهددة بالإبادة والكوارث والحروب والمجاعات والفقر وأمراض سوء التغذية والتشرد والذل وسواها من الفظاعات التي تصلح مادة لأفلام الرعب. في هذه الحالة (وهي واحدة من حالات كثيرة يعيشها عالمنا المعاصر) لن تكون الحياة جميلة. كيف يمكننا أن نتخيلها جميلة؟ كل هذا القبح الذي يحيط بنا ينبغي أن يدفعنا إلى التفكير بوظائف أخرى للفن غير إنتاج نوع من الجمال يمكن أن يلتهمه القبح بكل يسر ويمكن أن يكون وسيلة للكذب. وهو ما جرى فعلاً. فالطبقات الثرية، وهي المستفيدة من الوضع القائم، استطاعت أن تستولي على كل ما أنتجه الرسَّامون والنحَّاتون من أعمال جميلة (وفق المفهوم النقدي السائد) لتكون تلك الأعمال مصدر تسليتها ومتعتها. ولكن ذلك ليس كل شيء. فالفن لن يتمكن من إعادة الأمور إلى نصابها الحقيقي ولا يمكنه أن يصلح شيئاً في معادلة هي من صنع تاريخ ظالم. أعتقد أن الفن هو الآخر يعاني من حالة نفي. هناك قدر هائل من الوضاعة في استعمال الفن باعتباره مظهراً للزينة والأناقة الفائضة والتبرج والتباهي والتنافس الاستعراضي. صارت إهانة فنسنت فان غوخ الذي مات فقيراً ممكنة بملايين الدولارات التي تُقدَّم مقابل لوحته. ما كان يفكر فنسنت فيه شيء وما انتهت إليه لوحاته من مصير شيء آخر. لقد استعملت إنسانيته لتكون غطاءً لتهريب الأموال من حالتها السائلة إلى حالتها الهوائية. أمام قسوة من هذا النوع صار الفنانون يفكرون بمصائرهم المتخيلة. هناك خيار ثالث. خيار ديمقراطي لا يقاسم فنسنت عزلته وموقعه الهامشي ولكنه في المقابل لا يظهر أي قدر من الاحترام للسلوك المافيوي الذي جعل من الفن سلعة مستباحة في سوق العرض والطلب. الآن يقيم الفن في المسافة الغامضة التي تفصل بين الفن والنخبة التي تسعى إلى استمالته إلى صالحها ومن ثم استعماله في ترويج مصالحها. هناك قدر عظيم من التمرد هو ما يضفي على كل فعل إنساني نوعاً من الجمال الذي لا يذكر بالروائع غير أنه ينتمي إلى جمال الحياة. في كثير من الأعمال الفنية الجديدة يكون فعل العيش في حد ذاته فعلاً فنياً. نرى الفنانين يروون في

تارا دونفان
غيوم من مواد خفيفة



جيف كونز - دمى من أسواق الأشياء المستعملة

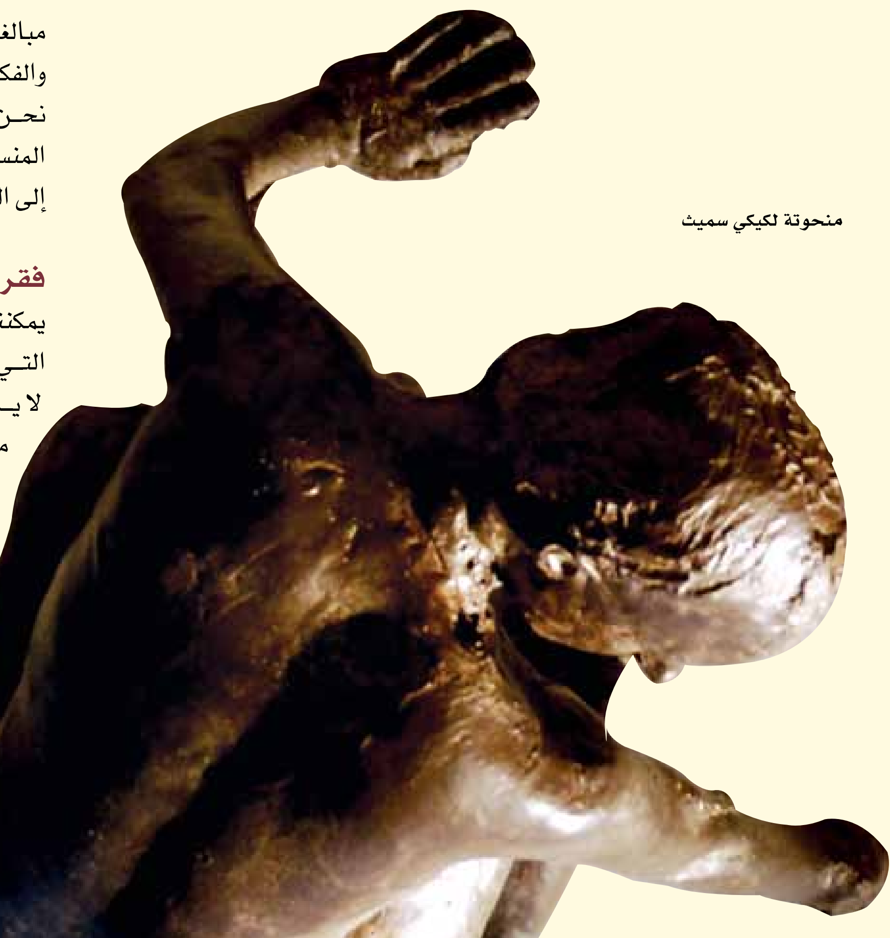
أفلام الفيديو مقطعاً من سيرة حياتهم ليتيحوا لنا التسلل إلى تلك الحياة وفهم ما يتخللها من أسرار. في هذه الحالة لا يكون العمل الفني وسيطاً بل مختبراً تمتزج فيه قوتان: الفن وتلقيه. وهما قوتا استلهام لا تكفان عن الحركة.

فنون بلا هوية

قبل سنوات كان صعباً علينا أن نفكر بفن لا ينتمي إلى جهة بعينها. إلى مكان ما. إلى ثقافة بعينها. كان هناك تفكير مختلف بالفن، من خلاله، وصولاً إلى وظائفه والهدف منه. شيء ما تغير خلال العقود الماضية يسرَ عملية تفكيك علاقات عديدة، اتضح فيما بعد أنها لم تكن بالقوة التي تؤهلها للمقاومة والصمود والدفاع عن نفسها. ذلك الشيء هو مزيج من وقائع، بعضها كان مادياً فيما كان البعض الآخر روحياً. على المستوى المادي نلاحظ اتساع رقعة استعمال التقنيات الرقمية وغزارة الثروة المعلوماتية وتوزع اهتمام الذهن البشري بين ما هو مرئي وبين ما هو افتراضي، وكلاهما حقيقي، حيث بدا أن مفهوم الواقعية قد جرى سحبه من التداول المعرفي. وهناك أيضاً العلاقة المستحدثة بين اللغة والصورة. وهي علاقة قديمة، غير أنها لم تخرج إلى العلن إلا بعد أن اتخذ الهذيان الفضائي طابعاً شعبياً من خلال قنوات التلفزيون. صار الناس يشعرون أنهم موجودون في كل مكان وقد يكون ذلك الشعور مصدراً لغربة من نوع جديد. ثم هناك أيضاً سرعة التنقل بين الأماكن حيث صارت الحركة لا تتوقف في المطارات ولو لثانية واحدة. ومن وجد نفسه مضطراً للجلوس في انتظار طائرته في مطار هيثرو مثلاً لساعات طويلة سيدرك أن ملايين البشر تُغيِّر أماكنها كل يوم. وبسبب كل هذه التغيرات فقد وجدنا أنفسنا في مواجهة ثقافة بصرية جديدة تقوم أساساً على ذاكرة بصرية قادرة على الحذف والإضافة بسرعة فائقة. أما على المستوى الروحي فقد حل فراغ كبير بعد أن تفتت العقائد الفكرية الكبرى وانحسار تأثير النزعة الثورية المتمردة وسطوة السلوك النفعي الذي يقدِّم المصالح على المبادئ. وهو الأمر الذي مهَّد لنشوب حروب شريرة، غلب عليها طابع النفاق السياسي والكذب الإعلامي فيما كانت رغبة الأقوياء في الاستحواذ على مزيد من السلطة العالمية لا تُخفى. لقد أصبحت أمنّا الأرض أقل أمناً وازدادت مظاهر العزل الحضاري بقوة التدمير وانتظاراً لما يمكن أن ينتج عن الفوضى الخلاَّقة. هناك نوع صامت من اليأس هو ما دفع بكثير من الفنانين إلى اللجوء إلى الأساليب المباشرة (المبتذلة والسوقية) في محاولة منهم للفت النظر إلى الكارثة التي تحيق بالمصير البشري وبالطبيعة من حولنا. قسوة متبادلة يعيشها الفن مستفزاً ومنفعلاً وأخوياً. هل صار العالم واقعياً أكثر مما يجب؟ وأيضاً هل تخلَّى العالم عن واقعيته بشكل مطلق؟ يتطلب فناً يجاري الواقع في مبالغته أو في تخليه قدراً من النسيان. نسيان ماضيه التقني والفكري. صار علينا أن نرضى بفن لا نعرفه مثلما نعيش واقعاً نحن غرباء فيه. ولهذه الأسباب صارت مسألة هوية الفن من المنسيات بعد أن تعرضت هوية الفرد إلى التعدد إذا لم نقل إلى التشظي.

فقر خيال البشرية

يمكننا الحديث بيسر عن قطيعة نسبية مع الأنواع الفنية التي صارت تقليدية (الرسم والنحت، بالأخص) ولكن لا يزال الوقت مبكراً أيضاً على الحديث عن أنواع فنية متماسكة جديدة. ما هو جاهز أمامنا ليس سوى تقنيات: الفن الجاهز. فن التجهيز والإنشاء والتركيب. الفن المفاهيمي. فن الفيديو. فن الحدث. فن الإداء الجسدي. فن الأرض. كلها تسميات استنبطت من التقنية المستعملة من أجل التعبير عن فكرة أو العمل من خلال تلك الفكرة على الوصول إلى يقين مشترك بالتحول. فلايزال هناك في الممارسة الفنية الجديدة الشيء الكثير من الرسم. لايزال هناك الشيء الكثير من النحت. وفي كثير من الأحيان تستظل الأعمال الجديدة بالعمارة وتحتمي بها وتستعمل فضاءاتها.



منحوتة لكيكي سميث



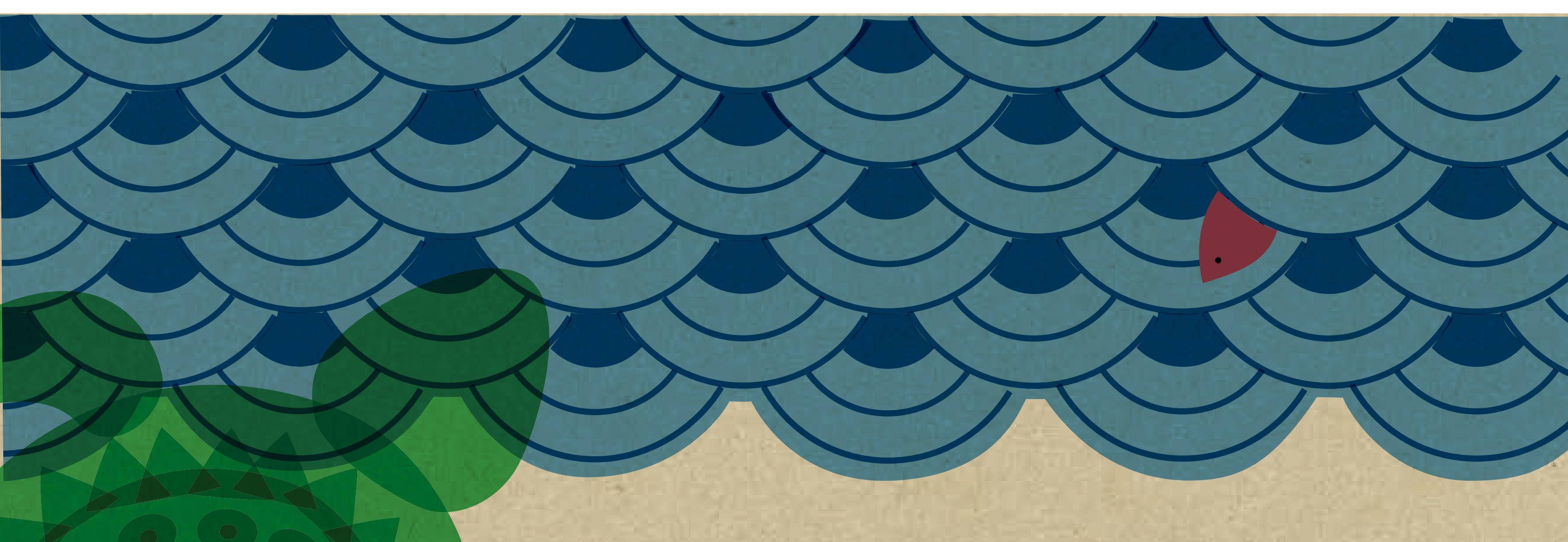
ريتشارد لونغ – دوائر كبيرة من الحجارة والأخشاب

مرايا عملاقة – أنش كابور



قدم غير معروفة – روبرت جوبر

على سبيل المثال فإن ما تقدِّمه كيكي سمث يمكن أن ينضوي تحت مفهـوم النحت، لكنه نحت مزاح عـن قيمه التعبيرية والأدائية السابقة. بالطريقة نفسها يمكن النظر إلى رسوم تريسي أمين المقتضبة والمتوترة. لكن ما حدث يتجاوز كل إمكانيــة للعودة إلى الوراء. ذلك لأن الفنون المعاصرة وهي تقـدم الفكرة على الجمــال صارت تُعنــى بالمعنى أكثر من عنايتها بالشكل. هل يولد الشكل من المعنى؟ ولكن لا حاجة إلــى التفكير بهذه الثنائية من جديد بعد أن صارت الصورة متاحــة أكثر ممــا ينبغي. أفكر بالزيــف التزييني الذي كان يتبـدى مـن خــلال الرسـوم والمنحوتـات بحجـة العناية بحساسية المتلقي ورعايتها جمالياً. كان ذلك الزيف واحداً من أهــم الينابيع التي انبعثت منهــا شكلانية احتلت جزءاً مــن خيالنا غير أنها قربت الأنــواع الفنية من ساعة موتها. دفعتهــا إلى الخــواء في مواجهة عالم حائر، كان يشعر أن هنــاك خطراً قد شق الطريق فــي اتجاه معنى وجوده. وكما أرى فقـد عثـر الهائمون من البشر على مــا يمكن أن يجعل لتيههم معنــى. تلك الأشيــاء المهملة والمنسيــة والمبتذلة التــي صارت تجتــاز فضاءً تخيلياً بقــوة المعنى لا لتعبِّر عن حاجتنا إليها، (وهو ما كان يفعله الرسم والنحت في أوقات سابقة)، بل لتذكر بوجودنا، كائنات تمارس فعل العيش كما لو أنه هبة ناقصة. الدفاع عن طريق المعنى هو خير وسيلة لتفسيـر جدوى المقاومة ومواجهة خطـر القبح. وهو خطر لا تقاومه الصــور الجميلة. تلك الصور التــي تنسينا مؤقتاً مــا يحيط بنا من قبح مادي وروحــي، تمثله حملات الإبادة المنظمة والفقر والجهـل والحرمان والعزل والكبت والقمع والتمييز والاستغــلال الجنسي والعنصـري وتسليم شعوب بعينهــا للأوبئــة والكــوارث الطبيعيــة. أعتقـد أن البشرية وهــي تعيش أزمــة ضمير لا غنى عن الاعتــراف بقصورها، بضعــف حيلتها، بفقــر خيالها، بنقص قوتهــا وهو ما يفعله الفن الجديد تمامــاً. في كل عرض فني هناك دعوة لنقض فكــرة الكمــال والتماهي مع رغبة عميقة فــي هدم الصورة التــي تشم من خلالهــا رائحــة الخيانة. خيانــة الوعي عن طريــق جمال زائل. إذن فهذه الفنون الجديدة هي رحلة في دروب واحـدة من أكثر المتاهات التي صنعت معنى لحياتنا المعاصــرة من خلال الفن. وهي محاولة يمتزج من خلالها التاريخــي بالنقدي من أجل التعـرف على ما يحدث للفنون في زماننا. وقائع كثيـرة ليس من اليسير إحصاؤها صارت اليــوم جزءاً من التاريخ مهدت وصنعت حيوية ثقافية أحلت مفهوماً جديداً للفن محـل مفهوم كنا إلى وقت قريب نظنه خالداً لا يزول.

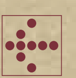




تظل التجارب الإنسانية خير منهل، يستقي منه الكاتب عنفوان شخصياته وضعفهم ومكابرتهم، حتى لكأنهم مساقون في نسق منظّم إلى أن يصلون إلى حتفهم بعد فراغ الحاجة منهم!

في السطور التالية تختبئ نسرين البخشونجي بين شخوص الرواية لتستكشف الأهداف التي أصابتها الروائية التركية سولماز كاموران وأصل الحكاية وراء السلحفاة «مينتا»..

سلاحف وسوار وأغنية..
شواهد عصر التحرر في رواية مينتا



أن تدفعك السطور الأولى لعمل أدبي للقراءة بنهم، فهذا إنجاز. وأن يخدعك المقطع الأول، فتظن أنك ستقرأ رواية رومانسية لطيفة ثم تكتشف أنك وقعت فريسة لنص صعب، وملحمة إنسانية عميقة، فتلك هي عبقرية الكاتب وموهبته الفطرية.

البحث عن الحرية شغف إنساني، والحفاظ على الهوية رغم البُعد عن الوطن لزمن طويل خيار صعب لكنه غير مستحيل، هذه الفكرة هي أساس رواية «مينتا» للكاتبة التركية سولماز كاموران وأصل حكايتها. ربما لهذا السبب

استخدمت الكاتبة السلحفاة البحرية «مينتا» -باللغة السواحلية الإفريقية القديمة- كرمز للحرية والهوية الأصيلة كثيمة مغايرة وغير مألوفة.

تدور الأحداث خلال مائة عام تسرد خلالها الكاتبة قصة خمسة أجيال من نسل «نجا» وأخته «ندى» وسلحفاة «مينتا» صغيرة استطاعت أن تبقى على قيد الحياة لمائة عام على الرغم من التغيرات المناخية، فالبحار النظيفة صارت ملوَّثة بسبب النفايات. السلحفاة التي أرعبتها قذائف

الحرب العالمية الأولى ثم الثانية أبطال الرواية الأساسين. لذا يمكن تصنيفها كرواية اجتماعية في إطار تاريخي. بعيونها رأينا تغيير الحياة وتبدل الأزمنة.

تبدأ الرواية بمقطع رائع يصف حفلاً مبهجاً لأهل قرية إفريقية بمناسبة فقس بيض السلحفاة البحرية أو «مينتا» في ليلة مقمرة على شاطئ هادئ، بينما تتمايل فروع أشجار الصنوبر مع الرياح بخفة. أثناء الحفل يبدأ البيض في الفقس واحدة تلو الأخرى ليبدأ الصغار صراعهم الأول مع الحياة، فالسرطانات الجائعة تنتظرهم بشغف. وسط معركة الحياة والموت بين السرطانات وصغار السلاحف التي ينجح عدد قليل منها في الوصول إلى البحر، يقتحم غرباء المكان فجأة ليختطفوا عدداً لا بأس به من أبناء القرية مكبلين بالحديد على سطح مركب.

سواران من الخشب أعطتهما أم «نجا» و«ندى» على عجل لطفليها قبل الرحيل، صارا ميراث الأبناء والأحفاد. كذلك ظلت الأغنية التقليدية التي يغنيها أهل الجزيرة ليحتفوا بسلحفاة «مينتا» في ذاكرة الأسرتين لمائة عام. وهما -السوار والأغنية- الوسيلة التي استخدمتها الكاتبة ليتعرف بهما فيما بعد «راي» الأمريكي حفيد «نجا» و«حمرا» التركية حفيدة «ندى» على شاطئ البحر.

من خلال هذه الحيلة التي تبدو كلاسيكية ورومانسية، بدأت الكاتبة الرواية وأنهتها في نفس المكان على شاطئ البحر، ورغم اختلاف الأشخاص بقي الأصل والإرث.

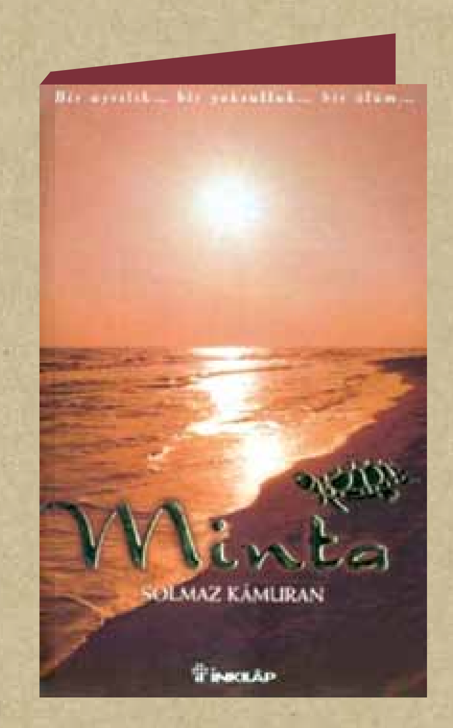
الإطار الزمني للرواية بدأ قبيل الحرب العالمية الأولى بعدة سنوات. يؤخذ الطفل «نجا» على متن سفينة أبحرت به لأيام طويلة، لينضم للعبيد الأفارقة في الولايات المتحدة الأمريكية. يعتق «نجا» العبد لدى أحد المواطنين الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية بقرار حكومي في بداية مرحلة تحرير العبيد السود في أمريكا، وهو القرار الذي اعتبره الأمريكي غير عادل وأنه اقتحام سافر في خصوصياته وممتلكاته الخاصة من قِبل الحكومة. حين عَلم «نجا» الذي لم يكمل عامه العاشر أنه حرّ خرج من منزل سيده وصار يركض حتى وصل إلى «المستنقع» حيث يعيش الأمريكيون الأصليون — الهنود الحمر، عثر عليه زعيم القبيلة الذي يُدعى «الثعلب الجريح» فأخذه وعاش كواحد منهم ثم تزوج «رياح المستنقع» ابنة زعيم القبيلة.

بيعت أخته «ندى» التي شهدت انفصال مصر عن الدولة العثمانية، لتاجر مصري الذي تزوج أربع نساء في محاولة فاشلة منه لإنجاب طفل. «ندى» لم تلقَ معاملة فظة من نساء البيت لكنها في المقابل لم تحظَ بحنان إحداهن. حين توفي الرجل، أخذت إلى بيت أحد الأقارب والمتزوج من إفريقية أساءت معاملة «ندى» لعقدة نقص داخلها حتى اتخذت قراراً بإبعادها تماماً عن المنزل فآوتها الطباخة في الغرفة التي تسكنها وأولادها الفلاحين، ثم زوجتها لولدها «مصطفى» لأن أهل القرية بدأوا يتحدثون عن تلك الغريبة التي تعيش معهم لأن هذا الفعل حرام شرعاً.

العنصرية من القضايا البارزة في هذا النص، فعلى الرغم من تحرير العبيد الأفارقة من قبل الحكومة الأمريكية ظلت بعض القوانين والعادات الاجتماعية تمارس التفرقة، فلم يكن يسمح لإفريقي أن يصير غنياً، وبالتالي تظل مجالات العمل العليا محصورة على البيض، وربما بنفس المنطق فكروا ألاَّ يسمح للسود أن ينضموا للمدارس حتى يظل الفرق بين البيض والسود شاسعاً. من خلال قصة الطفلة الذكية «ناي» ابنة «نجا» الوحيدة. فكر الأب الجاهل أن من حق ابنته أن تتعلم، أملاً في أن تكون حياتها المستقبلية أيسر وأفضل. فألحقها بمدرسة غير رسمية أسسها رجل أسمر يدعى «ت.ج» وبعدما أظهرت الطفلة تقدماً ملحوظاً يحرق بعض العنصريين المدرسة فيموت المدرِّس أثناء محاولته إنقاذ الطفلة من لهب النار، وتصاب بحروق في جسمها تتسبب في انسحابها من المجتمع.



سولماز
كاموران



ربما لهذا السبب جعلت الكاتبة شخصية «راي» حفيد «نجا» عالم الجيولوجيا البحرية حتى تتكئ على أن العنصرية في هذا الشأن قد انتهت تماماً في المجتمع الأمريكي، وأنه قد ورث شغفه بالبحار وسلحفاة المينتا منذ طفولته. التخصص العلمي الدقيق للبطل هي المبرر المنطقي الذي صنعته الكاتبة بحرفية ليكون سبباً كافياً لسفره إلى تركيا حيث يلتقي بقريبته.

وتستمر الكاتبة في مناقشة قضايا اجتماعية ذات صبغة تاريخية من خلال أبطال الرواية. فمن خلال قصة «أميرة» ابنة «ندى» نتعرف إلى أجواء الحرب العالمية الأولى وتأثيرها الاجتماعي والاقتصادي على المجتمع الأرستقراطي التركي، إعلان الحماية البريطانية على مصر. على الضفة الأخرى من النص يموت «جيمس» زوج «ناي» أثناء خدمته في الجيش الأمريكي أثناء الحرب.

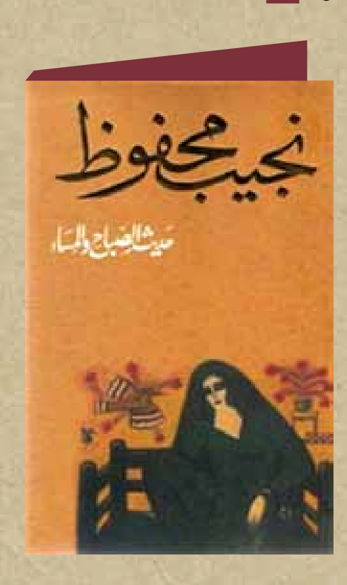
لسبب ما ذكرتني هذه الرواية برائعة نجيب محفوظ «حديث الصباح والمساء» ربما لتعاقب الأجيال في النص، لكن مع اختلاف كبير في الأفكار المطروحة وأسلوب السرد. بينما استخدمت الكاتبة أسماء أبطالها في تقسيم فصول الرواية حتى لا يتوه القارئ في وسط زخم الشخصيات. رتب محفوظ شخوص روايته المنشورة عام 1987م ترتيباً أبجدياً حسب اسم الشخصية بغض النظر عن الإطار الزمني الذى عاشت فيه، فقصة الجد الأكبر للعائلة «يزيد المصري» موجودة في آخر الرواية، بينما بدأ النص بقصة «أحمد محمد إبراهيم» وهو أسلوب فريد يجعلك تندهش وتتساءل كيف خطرت للأديب هذه الفكرة، أعتقد أن مهمة كتابة هذه الرواية كانت أصعب كثيراً من أي رواية أخرى بسبب ابتكاره لهذه التقنية.

يؤخذ على كاتبة الرواية أنك حين تنتهي من قراءة النص سوف تتبادر إلى ذهنك أسئلة كثيرة حول حياة بعض الشخصيات فمثلاً ما سر عذاب «روز» حفيدة «نجا» حتى تفكر في الانتحار؟ ولماذا أخفق «نجاد» حفيد «ندى» في حياته بعدما كان شخصية رائعة؟ اللافت كذلك أن الكاتبة كانت تتخلص من أبطال روايتها بالموت إلا «ندى» التي اختفت من النص دون ذكر مصيرها فقط تركت منزلها وذابت كقطعة سكر.

«مينتا» هي الرواية الثانية للكاتبة -التي صارت من أشهر كاتبات تركيا المعاصرين- والتي تم ترجمتها لعدة لغات من بينها العربية والبلغارية كما قامت سولماز كاموران بترجمة روايتها إلى اللغة الإنجليزية.

ربما لهذا السبب لم أشعر أن النص فقد روح كاتبته. كما حدث حين اطلعت مؤخراً على النسخة العربية من الرواية، حزنت لأن المترجمة نقلت الرواية حرفياً دون أن تدرك أن ترجمة النص الأدبي هو إعادة خلق للعمل. فالترجمة الأدبية عملية صعبة ومعقدة. فالمترجم لابد أن يحافظ على أن يعيد كتابة النص وأن تبقى روح كاتبه الأصلي دون المساس بجماليات النص، كذلك تشكيل لغة سردية تناسب اللغة المترجم إليها العمل. ربما لهذا السبب يجب أن يتميز المترجم بحس أدبي عال حتى لا يطفئ وهج السرد.

الرواية التي تخطَّى عدد صفحاتها الثلاثمائة ترتكز فيها الأفكار على مشاعر الغربة، الحرب، والعنصرية في تواز مع مشاعر الحب، والتضحية، والرغبة في الإبقاء على الهوية والأصل.



ديوان الأمس

يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.. أو قد تختار القافلة قصيدة لشاعر معاصر.

ديوان اليوم



ناجي الحرز والينابيع الهجرية



نستضيف في هذا العدد الشاعر ناجي داود الحرز، ليطل على ذاكرته ويكشف لنا عن بعض خباياها والظلال التي تكتنفها، ويقدِّم لنا بعضاً من آخر نتاجه. وللشاعر حضوره في المشهد الثقافي السعودي عامة والأحسائي على وجه الخصوص، إلا أن من أهم ما يميز الحرز هو أبوته لعدد من الأقلام اليافعة والطاقات الشعرية الشابة التي كان يرعاها من خلال منتدى الينابيع الهجرية الأدبي الذي أسسه الشاعر لهذه الغاية، وأصدر كتابه «شعراء قادمون من واحة الأحساء» مبشراً بعدد منهم. والشاعر الحرز أصدر: نشيد ونشيج، 1414هـ؛ وخفقان العطر، 1420هـ؛ وقصائد ضاحكة، 1422هـ؛ والعنقود، 1426هـ؛ وصلوات في محراب العشق، 1429هـ؛ ومعجم شعراء منتدى الينابيع الهَجَرية، 1434هـ. وترجمت مختارات من شعره إلى الأوردية والإنجليزية.

رسوم: المحترف السعودي - عمر صبير

ديوان الأمس ديوان اليوم

ليت شعري أقواف في يدي ...
أم قواريرٌ من الدمع ملاء؟

من ديوان الشاعر (أمين نخلة) قفز هذا البيت فجأة إلى ذهني عندما بدأتُ في تأمل الأبيات التي اخترتها مادةً لهذه الرؤية من ديواني شاعرين كبيرين فُتنتُ بهما ولاأزال وهما (الشريف الرضيّ) و(علي ابن المقرّب)، ربما ليقيني بأن الشاعر لا يبكي إلا عندما يحس بفورة بركان غيرته على كل ما هو جميل في هذا الكون وغضبه من كل عبث بكينونة ذلك الجمال، كما قال أحد الشعراء المعاصرين:

نحنُ الذين إذا بكينا هيّأ الـ
إنسانُ كوكبَهُ لميلاد الظفرْ
وهل استقامتْ هذه الدنيا سوى
بنزيف أعيننا الذي فيها انهمَرْ؟

يقول (الشريف الرضيّ) المتوفّى عام 406 هجرية:

لو على قَدْر ما يحاول قلبي
طلَبي لم يقرّ في الغمد عضْبي
همّةٌ كالسماء بُعدًا و كالريح
هبوبا في كل شرق وغربِ
ونزاعٍ إلى العُلى يفطم العيسَ
عن الورد بين ماء وعُشبِ
رُبَّ بؤسٍ غدا بنعماءَ
وبُعْدٍ أفضى إليّ بقربِ
أتقرّى هذي الأنام فيغدو
عَجَبي منهمُ طريقًا لعُجبي
وإذا قلّب الزمانَ لبيبٌ
أبصر الجدّ حربَ عقل ولُبِّ
أمقامًا ألذُّ في غير علياء
وزادي من عيشتي زادُ ضبِّ؟
دون أن أترك السيوف كقتلاها
رزايا من حرّ قرعٍ وضربِ
ومن العجز إنْ دَعا بك عزمٌ
فرآك الحسامُ غيرَ ملبّي!

ويقول (علي بن المقرّب) المتوفى عام 631 هجرية:

على مَ وفي مَ ظُلمًا تَلحيَاني ؟
ذراني لا أبـًا لكما ذراني
وحسبكما فما سمعي بمصغ
ولا واعٍ لما تتحدثان
وفي همم إذا جاشت أرتني
قُرى (عمّان) ميلاً من (عُمَان)
إذا سُولمْتُمَا فتناسياني
وإنْ أُسلمْتُما فتذكّراني
فمثلي من يُقيم صغى الأعادي
ويُستعدى على نُوَب الزمان
وما ذكر المنيّة عند أمر
أحاولُهُ بثانٍ من عناني
إذا يومي أظلّ فما أبالي
بسيف كان حتفي أو سنان
ومَن يَكُ عمرُهُ المكتوب تسعًا
فلا يخشى المنيةَ في الثمانِ

نفس الهمّة العالية و نفس الطموح المتوثب ونفس التحدي ونفس المغامرة ونفس التجربة والحكمة!، أعتقدُ أنّ وجعًا ما وحّدَ هذين العملاقين، وسأحاول أن أثبت بما سأعرضه من تراثهما الشعري أنهما اقتسما مهمة الدفاع عن القيم السامية والسجايا الحميدة بطريقتهما الخاصة، فالشاعر (علي بن المقرب) يندد بكل من يتنكّب عنها وإنْ كان أقرب المقربين إليه، و(الشريف الرضيّ) يشجَى ويندب كل من رحل مضمّخا بعبيرها الأبدي، أو يشيد بكل مَن يعين على نائبة أو يشد أزر من وقع في محنة.

فعندما يدعو (ابن المقرّب) إلى شد عصا الترحال والهجرة عن مواطن القهر والضيم ولو على أطراف الأسنة بقوله:

قمْ فاشدد العيسَ للترحال معتزمًا
وارم الفجاجَ بها فالخطبُ قد فَقُمَا
ولا تلَفَتْ إلى أهل ولا وطن
فالحر يرحل عن دار الأذى كَرَمَا
لا يقبل الضيمَ إلا عاجزٌ ضرعٌ
إذا رآى الشرَّ تغلي قِدْرُهُ وَجَمَا
وذو النباهة لا يرضى بمنقصة
لو لم يجد غير أطرافَ القَنا عصَمَا
وذو الدناءة لو مزّقتَ جلدتَهُ
بشفرة الضيم لم يحسس لها ألمَا !

يجاوبه (الشريف الرضي) داعياً لحط الرحال وللندم على أولئك الذين وَفَوا لكرامة الإنسان حتى توسدوا الثرى:

أقولُ لركب خفاف المزاد
وقد بدّلوا بالوَضاء الشحوبَا
ألمّوا بأجواز تلك القبور
فعرّوا الجيادَ وجُزُّوا السبيبا
قفوا فامطروا كل عين دمًا
بها، واملأوا كل قلب وجيبا
ولا تعقروا غير حَبِّ القلوبْ
إذا عقر الناس بزلا و نيبا

إلى أن يقول:

لقد شغلتني المراثي لكم
بوجدي على أنْ أقولَ النّسيبا
وكنتُ أعُدُّ ذنوب الزمان
فبعدكُمُ لا أعُدُّ الذنوبا

وعندما يبوح (ابن المقرَّب) بشجاهُ من ابن عمٍّ له عزيزٍ على قلبه تنكّر لكل دواعي الحُب والألفة والشهامة و أبدلها بالجفاء وبالقطيعة والشح بقوله:

وضقتُ ذرعاً بابن عمٍّ محبَّب
إليّ وإنْ لم تسق أرضيَ مخائلُهْ
فكم ليلة عللتُ نفسي بذكره
وسكّنتُ قلبي فاطمأنّت بلابلُه
فلما التقينا كان حظي جفاؤه
وكان لغيري بِرُّهُ ونوافله

يجاوبه (الشريف الرضي) واصفاً ما آل إليه حاله بعد رحيل صاحبٍ وفيٍّ له بقوله:

وإني إذا قالوا: مضى لسبيله
وهيلَ عليه التّرب من جانب اللحدِ
كساقطة إحدى يديه إزاءَهُ
وقد جبّها صرفُ الزمان إلى الزّندِ

وجلـيٌّ ما يؤول إليه أمر إنسانٍ دُهي بفقدان إحدى يديه! ولا يكتفي (الشريف الرضي) بهذا المقدار من الأسى المرّ، بل يذهب أبعد من ذلك بكثير فهو يشعر بأنه كلما وارى واحداً من أحبابه الأدنين إنما يواري الثرى عضواً من أعضاء جسده:



مالي أودع كل يوم ظاعنا
لو كنت آمل للوداع لقاءَ
فرغَت يدي منه وقد رجعَتْ به
أيدي النوائب والخطوب ملاءَ
أحبابي الأدنين كم ألقى بكم
ذا الماء من ألم أغصَّ الماءَ
إلاّ يكن جسدي أصيبَ فإنني
فرّقته و دفنته أعضاءَ

وكلما ألحّ (ابن المُقرّب) على شكوى ما يكابده من أقرب المقربين إليه كقوله :

أرى العُلى تقتضيني غير وانية
عزمًا يُبيّنُ عن فضلي وعن حسبي
وما نهضتُ له إلا وأقعدني
خذلانُ قومي وعيثُ الدهر في نشبي
والمرءُ يسعى بلا رهط ولا جِدة
كالسهم يُرمى بلا ريش ولا عقبِ !

أو بقوله:

فليت أخلاّئي الذين ادّخرتهم
جلاءً لهمّي لا عَليَّ ولا ليَا

يُلحُّ (الشريف الرضي) على مبادلة أحبائه له مودةً بمودة ووفاءً بوفاء وهو يودعهم واحداً واحداً معتبراً فراقهم إيّاهُ أعظم نوائبه وأدهى خطوبه:

قعدتُ بمدرجة النائبات
يُمرُّ الزمانُ عَليّ الخطوبا
على الهمّ أُنفقُ شرخَ الشباب
وأعطي المنايا حبيبًا حبيبَا

وحتى في حال العشق والوجد والوله لا يجد (ابن المقرب) من الأدنين إلا مبالغاً في لومه وعذله :

عذلُ المشوق يزيدُ في بُرَحائه
ويثير نار الوجد في حوبائهِ
فاترك ملامته و دعه وشأنه
في نوحه وحنينه وبكائهِ
يا عاذل المشتاق مهلا واتّئدْ
في لومه فهو العليم بدائه
يا عاذلي لا عشتَ إلا أخرسا
أعمى أصمّ ترى بقلبٍ تائه
أربيتَ في لومي و زدتَ ولن ترى
قلبي مطيعَكَ في اتّراك هوائه

أومسرفاً في تأنيبه ومشيراً عليه بسلوان من آلمه فراقُهم من أحبابه:

أراهُ الهوى ما لم يكن في حسابه
فأقلقهُ عن صبره واحتسابهِ
فلا تؤلماهُ بالملام فإنه
يثير جواهُ واتركاهُ لما بهِ
أعيذكما من وجده وغرامه
ولوعاته يوم النوى واكتئابهِ
فهل لكما أن تذهبا لا شفيتما
لشأنكما أو تقصرا عن عتابهِ
تريدان منه سلوةً وتناسيا
وصبرا؟ لقد بالغتما في عذابهِ

أما (الشريف الرضي) فيجد أصحابه محدقين به حافّين برحله يقفون معه على منازل أحبابه الخالية يشجون لشجائه ويبكون لبكائه:

أيا لله أيُّ هوىً أضاءا
بريقٌ (بالطويلع) إذ تراءى
ألمَّ بنا كنبض العرق وهْنًا
فلما جازنا بلغ السماءَ
طربتُ إليه حتى قال صحبي:
لأمر هاج منك البرقُ داءَ
ولم يك قبلها يقتاد طرفي
ولا يمضي بلبي حيث شاءَ
خليليَّ اطلقا رسني فإني
أشَدّكما على عزم مَضاءَ
أبَتْ لي صبوتي إلا التفاتًا
إلى الدمن البوائد وانثناءَا
فإنْ ترَيا إذا ماسرتُ شخصي
أمامكما فلي قلبٌ وراءَا
فيالي منه يُصْبيني أنيقًا
بساكنه و يبكيني خلاءَا !
أُنادي الركبَ: دونكمُ ثراهُ
لعلّ به لذي داءٍ دواءَا

ومرة أخرى وفي أبيات لا أجمل ولا أروع ولا أشجى يقول (الشريف الرضي) مؤكدا على أنّ أصحابَه شركاؤه في تلك المواقف بالحنين وبالدموع وبالوجد والأسى:

قال لي صاحبي غداة التقينا:
نتشاكى حَرَّ القلوب الظَمَاءِ
كنتَ خبّرتني بأنك في الوجد
عقيدي وأنّ داءَك دائي
ما ترى النّفْرَ؟ والتّحمّلَ للبين؟
فماذا انتظارنا للبكاءِ؟
لم يقُلها حتى انثنيتُ لما بي
أتلقّى دمعي بفضل ردائي!

أتمنى أن أكون قد وفقت في التقاط هاتين الصورتين الافتراضيتين واللتين أزعم أنهما تمثلان و جهين لشعورٍ نبيلٍ واحد.

نصوص
ناجي داود الحرز

ديوان اليوم ديوان الأمس

اغتسال..

لم يبرد الشوقُ
مذ أشعلتَ ذاكرتي
وَجْدًا
ووزعتَ قلبي في زواياهُ
منذ اختصرتَ بحلمٍ واحدٍ
عُمُري ..
وفي حكاية لقيانا
حكاياهُ .. !
أقسمتُ ..
دع هذه النيران تغسلني
من الدّوار
فقد شاختَ وصاياهُ .. !
فأنتَ
آخرُ عنوان يلوِّح لي
ولا يبوحُ بشيءٍ
من نواياهُ.!
ويدًا
تنطفُ غيماً واخضرارًا
***
مالذي أسدى لي الحلمُ
ولم
يمتشقْ نهرًا
ولم يمسَسْ جدارًا ؟
ما الذي يغسلني
من سفَه الصبر
والآمالَ تزداد اصفرارًا ؟
آنَ للماء
بأن يهتكَ عن
نزق الجذر الذي امتدّ
السّتارًا.

***

قلتُ للريح ..

قلتُ للريح : تعالي نتبارى
إنّ بُعدي عنك
ما عاد انتصارًا ..
أيقظي كل المتاهات فقد
آن لليل بأن يلقى نهارًا
وانزعي عنك الأساطير التي
ملأتْ هذا المدى الرحبَ
انكسارًا
فلقد جئتُك
وجهًا واحدًا

***

بين نظرتين ..

جائحةٌ ..
هذه الفكرة التي تراودني
كلما اعتصرتني أنتَ
بين نظرتينِ
وابتسامة لا تشيرُ إلى شيءٍ !
جائحةٌ
ولكنني أستسلمُ للرّيبة
وأبقى ممعنًا في التوجّسِ
أدمنتُ .. أدمنتُ
هذه النار التي تطهّرني
من عقم دوران الشمس
حول بيوتنا الساذجة !
أربعون سنبلةً

ولا شيء يعصف بي
أكثر من مواسم الوجد
التي يَحسبها الظمآنُ ماءً
بين نظرتين
وابتسامة لا تشير إلى شيء !
مَن سيعرفُ قاتلي ؟
وقسماتُ وجهك
مخبّأةٌ هنا
هنا .. في سويداء خيبتي ؟
مَن سيقتص منك
وعمرك عمْرُ إشاعةَ الفرحِ
التي أتدثر بها
عندما أسافرُ
بين محطات الحرقة والنحيب ؟
مَن سيخبرُك بموتي ؟
وأنا
أتأرجحُ
أتأرجحُ
أتأرجحُ
أمامَك ..
بين نظرتين
وابتسامةٍ لا تشير إلى شيء .

***

نزيف ..

على الأريكة
التي اكتنزَتْ بعبيرها انحنَى ..
كسحابة توشك على النشيج .!
ومدّ يدَه اليُمنى
يتحسّسُ تضاريسَ خيالها
المحتدم كسَيفٍ .. !
أمّا يده اليُسرى
فكانت على خاصرته
تحاول كبحَ
جماحِ
نزيفٍ
غيابِها .

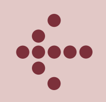
***

المرآة ..

المرآةُ تتقصّفُ
كورقة يابسة
كلما لاَ حظَتْ أنني أهمُّ بالنحيب !
هي تعرفُ
إلى أيّ مدىً
ستأخذني نوبة يأسٍ أخرى
أوّل مرة
أعلنتُ أمامها انكساري
انشطرَتْ
كبابٍ داهمتهُ الريحُ فجأةً !
وبقيتْ كذلك
لم تعد قادرةً على رؤيتي
فزاوية التجلد المزيفةُ
التي اتكأتُ عليها طويلاً
انحرفَتْ
ناحيةَ تيه أبديّ ..
هي تعرفُ
أنّ الوقت متأخرٌ جدًا
الأسئلة لن تجد مكاناً
في ورقة مزدحمة
بالأساطيرِ .. والمواجعِ
والخيباتِ المتراصّة !
من أين سآتي بتبريرٍ
لكل خطوة عرجاء
موّهتها بشطّ أو شطرين
من رزنامة مفخّخة ؟
وهل ستصدّق هي
أنّ هذه التي بيديّ مشكاة؟؟

جلسة اليوم الأول تعرضت لتأثير المدونات وفن القصة القصيرة جداً في تويتر في تشكيل بوابة «الأدب السعودي التفاعلي»

مؤتمر الأدباء.. وواقع الكلمة في عصر التغريد!



هل حقاً أن الأديب يختلق الصراعات ليكون أحد أطرافها، فيوثق حيوية الحياة وحراك المعارك، أم أن القائمين على الثقافة قد أحالوا المهمة إلى منسوبي السلك الأكاديمي لتأطيره بسياج العولمة، وثورة التقنية. في المقالة التالية تقدِّم رحاب أبوزيد عرضاً مقتضباً حول مؤتمر الأدباء السعوديين الرابع الذي أقيم في الفترة ما بين 27 و29 أغسطس 2013م في عاصمة الثقافة الإسلامية للعام نفسه، المدينة المنورة.

لم يخل المؤتمر من أوراق متنوعة المرامي تصب في الأدب، وتحاول إيجاد مخرج آمن للجدل القائم بين الأدب وتأويل الآخر، الآخر والنقد السعودي المعاصر، وحتى الأدب والرسم الكاريكاتوري كان حاضراً في ورقة الدكتورة كوثر القاضي «الخطاب الأدبي في رسوم الكاريكاتير» التي تناولت فيها علاقة النص بالسياق واتخذت من محمد الخنيفر ورسوماته أنموذجاً في دراستها.

الأدب والترجمة

أما الأدب والترجمة فهو من أهم المحاور المتوجب إثارتها في كل محفل ثقافي، تفردت فيه ورقة مرتضى غازي عمروف في «ترجمة الإبداع السعودي» والتي تحدثت عن أول تجربة للترجمة إلى اللغة الروسية كانت من خلال ترجمة رواية «ثمن التضحية» للأديب السعودي حامد دمنهوري، قام بها غريغوري ليبليديف وتم اختيارها للترجمة لكونها إحدى الروايات الصادرة في مرحلة تأسيس الفن الروائي في السعودية، وقد نشرت في موسكو عام 1966م تحت عنوان «الحب والواجب». وفي بداية التسعينيات ترجمت إلى اللغة الروسية قصيدة للشاعر السعودي ووزير الثقافة والإعلام حالياً د. عبدالعزيز محيي الدين خوجة، وقصيدتان للأديبين راجح أبو غزالة وحسن القرشي، وبذلك اختصرت ترجمات الأدب السعودي إلى اللغة الروسية خلال القرن العشرين في هذه الأعمال فقط. أما التجربة الثانية لترجمة الإبداع السعودي إلى اللغة الروسية فهي ترجمة رواية «سقيفة الصفا» لحمزة محمد بوقري، قام بها مرتضى عمروف ونشرت في 2006م، أي بعد قرابة الأربعين عاماً من صدور ترجمة «ثمن التضحية». وتشير ورقة العمل إلى أن الدكتورة فاليريا كيربيتشينكو كتبت في مقدمة هذه الترجمة تقول: «إن القارئ الروسي الذي لم يكن قط في بلدان أوروبا وأمريكا يستطيع أن يتصور الحياة اليومية لمواطن عادي في باريس ونيويورك بسهولة لأن المكتبة الضخمة المترجمة من الأدب الغربي إلى اللغة الروسية بين يديه، أما ما يخص الحياة اليومية للمواطن «المكي» فيختلف تماماً لأن ترجمات إبداع أدباء بلدان الجزيرة العربية بما فيها السعودية يمكن عدّها على أصابع اليد الواحدة». وذكرت ورقة عمروف أن مجموعة من الباحثين والعلماء الروس قد قدَّموا موسوعة من مختارات الأدب العربي السعودي الحديث بعنوان «ما وراء الكثبان: انطولوجيا الأدب السعودي الحديث» عام 2010م مانحين بذلك فرصة للقارئ الروسي للتعرف إلى الأدب السعودي الحديث الذي يحتل مكانته الخاصة ضمن الآداب العربية، خاصة إذا ما علمنا بأن أكثر من مائة وخمسين كتاباً وبحثاً علمياً مكرساً للآداب من مختلف البلدان العربية قد تم نقلها إلى اللغة الروسية فقط على مدى النصف الثاني من القرن العشرين.

جولة الدكتور ناصر الحجيلان، وكيل وزارة الثقافة والإعلام للشؤون الثقافية، بين معرض الكتاب على هامش المؤتمر



في السياق نفسه، ألقت نادية عبدالوهاب خوندنه ورقة بعنوان «نصوص سعودية في الذاكرة الغربية» تناولت رواية «شقة الحرية» و«سبعة» من أعمال غازي القصيبي المترجمة اللتين تمكنان قارئهما من التعرف إلى خصائصه الفنية كروائي ينتمي إلى مدرسة الحداثة. وخلص البحث إلى أن ترجمة الروايات السعودية التي تصور أحوال مجتمعاتها بصورة واقعية وإن كانت صادمة وأليمة على الرغم من إلباسها ثوب الفكاهة، تسهم في التقريب بين الشعوب حينما يتشاركون في هموم إنسانية يعبر عنها الأدباء بصدق مما يسهم في تأصيل مفهوم الأدب العالمي.

الفيسبوك: وجه الكتاب

على الأرجح أن علاقة الكاتب بمواقع التواصل الاجتماعي كانت تنحصر في نشر عناوين إبداعاته بين المتابعين والأصدقاء بهدف تحقيق رقعة انتشار أوسع، ومما لا ريب فيه أن معظم هؤلاء الأدباء يملكون حسابات على هذه المواقع التفاعلية، لكن ورقات العمل المطروحة في المؤتمر كانت في مجملها تعبر عن الأسف على التأخر في مواكبة متطلبات النشر الإلكتروني المباشر أي بعيداً عن الكتاب الورقي، ففي ورقة د. عالي سرحان القرشي توصيف لدور المتلقي – وهو القارئ القديم – في صناعة النص حيث أضحت الكتابة في حال شراكة حقيقية بين الكاتب والقارئ، فالحوار حي، ويصبح النص عبر هذه التقنية ليس مرتهناً لوسيلة توصيل محددة فالنص المقروء يؤول إلى مسموع وإلى مشَاهد في الآن نفسه، لذا أصبح النص في أساس تكوينه يستدعي حيوية في التوافق مع هذه الوسائل فالإيقاع الصوتي والبصري أصبحا من مستلزمات تحرير النص.

لم تبتعد كثيراً عن الفكرة نفسها ورقة عبدالرحمن المحسني «اتجاهات الشعر السعودي على الفيسبوك» وبدا الجميع في استسلام تام للحراك الجديد على منافذ التقنية والذي يقصر معه مع الأسف الفعل النقدي المتابع والكاشف لأبعاد هذه التجربة تناول المحاضر تطبيقاً نصياً على نص شعري للشاعر السعودي عبدالله الصيخان على الفيس بوك، وهي قصيدته «بالأمس عجت على القباب أزورها». في المقابل تناولت الكاتبة أميرة الزهراني دراسة نصية في ضوء الوسيط الإلكتروني عبر ورقتها «القصة القصيرة جداً في تويتر»، وأشادت بالخطوة الجريئة التي أعلن عنها النادي الأدبي بالرياض في بادرة تعدّ الأولى على المستوى المحلي وهي تخصيص مسابقتها الموسمية للقصة عبر فضاء تويتر، أن تُكتب قصة قصيرة جداً في أي موضوع يختاره المشارك ولمجمل مستخدمي تويتر، وطرحت المحاضرة عبر بحثها سؤالاً في غاية الأهمية هو: هل خدمة الأدب والرغبة في إنعاشه تبرر الوسيلة؟ وهنا اعتراف بسلطة التقنية الحديثة ومحاولة لمواكبة القفزات التكنولوجية.

اغتراب الأدب بين التفاعلي والكلاسيكي

قد يفاجأ الأديب الغارق في أفكاره وكتبه وأوراقه وأحباره بضيف يطرق بابه، يقلق راحته، ويشاركه المساحات الشاسعة التي يحيط نفسه وعالمه بها، يجد نفسه أمام خيار واحد لا مناص منه وهو تقبل هذا الضيف بصدر رحب أو ضيق، وما مصطلح الأدب التفاعلي الذي عنوَن مؤتمر الأدباء السعوديين الرابع إلا كهذا الضيف الغريب المهيب. كثيراً ما نوقشت جدليات في مكنون الاستحداث الأدبي بين «قدماء» يتشبثون بكلاسيكية الفكر وحداثيين يراودون الجديد بما جد، الظرفية الرقمية الآنية فرضت اهتماماً بإشراك التقنية في المسار الأدبي على اختلاف انتماءاته منتجة لغة تواصل اجتماعي يعوّل عليها في ادماج التناقض تحت لواء الاستمرارية. هذا بعض ما جاء في ورقة عبدالله الخثعمي «الأدب التفاعلي/ الرقمي.. رؤية عربية» التي ركزت على كثير من القضايا البارزة وإشكاليات الإبداع الرقمي في الكتابة الأدبية عند الغرب التي شكلت منجزاً غير معلن، بينما يقف العرب في حالة ذهول من طبيعة هذا المنجز وكيفية إبداع النص الرقمي وتلقيه والتفاعل معه.

النقد يختطف المنصة!

لا يختلف كاتب وأديب على انحسار الدراسات النقدية المنصفة للأعمال الجديدة وكأن هناك تجاهلاً مقصوداً للإنتاج الأدبي الشبابي إذا صلحت التسمية، أو قد يوسم هذا الهدوء في تلقي الأعمال الأدبية الجديدة بالهدوء الذي يلي العاصفة لا الذي يسبقها إذا ما قبلنا جدلاً أن ثورة التقنية التي طغت على حياتنا العامة والأدبية هي أولى بشائر العاصفة.

وعلى الرغم من حالة التأزم التي تحيط بالعلاقة بين الأديب والناقد على مرّ الحقب الأدبية المتواترة، إلاّ أنها تمرّ بأسوأ مرحلة على الإطلاق من الارتباك والتشابك، وما أدلّ على ذلك إلا بعض عناوين ورقات العمل المطروحة في مؤتمر الأدباء السعوديين الرابع، هي في محتواها غنية بالقواعد العلمية التي تطمح لإخضاع النص والأديب لسلسلة من القوانين الصارمة بغية السيطرة على الشكل الإبداعي للأديب كما اعتاد عليه، أو ربما سعياً لتفسير مفاهيم ذاتية أرادها الأديب بإصرار جليّ لكن دون وعي منه لكينونتها، وهذا هو مربط الفرس في تعقّد العلاقة بين الطرفين.

لم تتحول بأن المصطلحات المقعّرة والمنتقاة بعناية إلى رصيد ثابت في حسابات الأديب الذي يستثمر في الفكر والإبداع وتجسيد هموم قومه ومعاناة البسيط منهم والفاره من أجل الأدب للأدب ومن أجل الذاكرة الإنسانية، وحفظ التاريخ المجتمعي بتفاصيله الدقيقة في صناديق روائية أو شعرية تحرز حتى بلغتها ومحتواها طبيعة هذا الزمان عن ذاك.. مدى ما بلغته عبقرية من عاشوه وتبنوا تمثيله بين العصور.

تبدو المقارنة مع التجارب العالمية على كل الأصعدة مقارنة غير متكافئة.. كما تبدو أسبقية الغرب في تسجيل المتغيرات النفسية والمجتمعة ورصد التجربة الإنسانية بوجدانياتها وانفعالاتها وغرائبيتها ربما لتفاوت معايير أخلاقية خاصة كالعيب والتابو وسلطة المجتمع، الأمر الذي قد يسوّغ الانتقال التمهيدي التدريجي نحو الأشكال الجديدة من الكتابة الأدبية بما يتلاءم وميول الشباب وتفضيلهم للقراءة والتفاعل مع كاتبهم المفضل عبر الشبكة العنكبوتية، لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكار أن ذلك قصّر المسافات وعبّد الطرق نحو أسماء النجوم الذين كنا نلمحهم في السماء ولا نملك الحديث معهم.

ولكن هل سيفرّغ ذلك التدخل الصلف إلى قلب العمل الأدبي من قيمته ومحتواه؟ هل سيتقبل جرَّاح متخصص في غرفة عمليات مقاطعة جرَّاح آخر له وإجراء تعديل على خط سير العملية! هل سيبقى النص طريحاً تحت تصرف كاتب واحد يثق به؟ ستكشف الأيام المقبلة والقراءة العميقة وحدها للأعمال المتجددة عن آليات مختلقة بالكامل تمكننا من تقييم المرحلة التحولية التي يمرّ بها الأدب.

توفيق بكار..
ناقداً ومجدداً لعلم الأدب في تونس



لم ينطلقْ توفيق بكار في رحلته لتحليلِ النص متشبثاً بمناهجِ النقد الحديث، بل انطلق من النص وما يمليه، فما النقد الحديث إلاَ وسيلةً نَفَذَ بها إلى النص لاستنطاق ما به من معانٍ، وللوصولِ من خلال التحليلِ إلى نتائجَ لا تتحققُ إلاَ بمثلِ هذه الوسائلِ النقديةَ الحديثة. وُصف بأنه جسر الجامعة التونسيةَ إلى الحداثةَ وأحد أبرز مؤصلي الثقافة العربية المعاصرة. يعرض هنا الباحث محمد البشير سيرة توفيق بكار المجددة في علم الأدب وكيف واءم بين صرامة المنهج وحس الناقد المبدع.

ينطلق توفيق بكار في تحليله للنصوص بمعرفة مناهج النقد الحديث، فهو أولُ من فتحَ أبوابَ الجامعة التونسية على هذه المناهج، فكان جسرَها إلى الحداثة كما يقول عنه محمد القاضي، ويصفه محمد المصمودي بأنه المجددُ الأولُ ورأسُ مدرسة، ويراه عبدالله أبوهيف شيخاً من شيوخ النقد الأدبي العربي الحديث، فقد وهبَ عمرَهُ لقضية تأصيل الثقافة العربية المعاصرة في التعليم والانتشار خلال العقود الأربعة الأخيرة، وهو من تعلم تلك المناهج وعلّمها كما يقول خالد الغريبي بعد أن هضمَها وتمثلَّ سياقاتها.

إن ما يرومُهُ توفيق بكار في تحليله لنصوص الأدب العربي الخروج بالنقد من تقليديته المعهودة إلى تلك (القراءة الخلاقة) التي لا تتحققُ عنده إلّا بمنهاجٍ صارم، وهذا المنهاجُ بهذا الوصف لا يكون إلا حين ينتقل (النقد العبثي) الذي لا يلتزمُ بمنهجٍ محددٍ إلى مجالِ (علمِ الأدب) الذي ينشده بكار حيث لا يتكون النقد حينها إلا على أساسٍ من الدقةِ والصرامة.

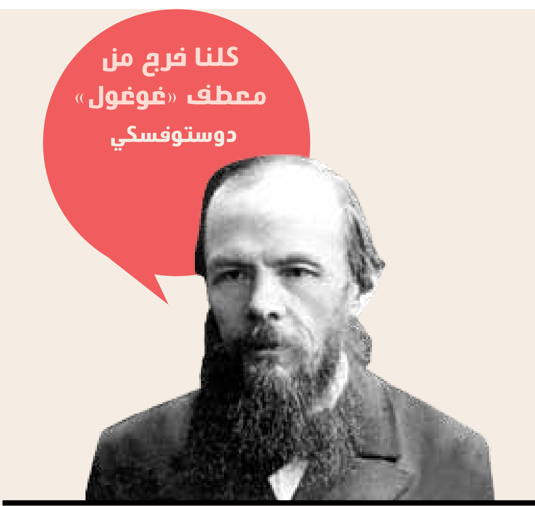
حوار عميق وعسير

يصف توفيق بكار تحليله للنصوص بـ (الحوار الطويل العميق والعسير) وهذا الأمرُ لم يأتِ على عواهنه دون وعي وتبصر، فجدليةُ الحوارِ القائمةُ في صلبِ العمل النقدي عند سامي سويدان (لا تستبعدُ أيَّ حجرٍ أو تقييد لأيٍّ من طرفيها وحسب، بل إنها على العكس تتطلبُ إطلاقاً بل حضاً لكل منهما على أداءِ دورِه واستثارة الأسئلة وطرح القضايا والمسائل الخاصة به والمشتركة مع الآخرِ في الوقت نفسه، بحيث تُعد أيَّ محاولةٍ لإعاقةِ هذا الحوارِ أو ذاك أو الحدِّ منه إساءةً لكليهما معاً).

انطلاقاً من هذا الوعي بالحوار ودورِه في التحليل النقدي المنهجي الصارم؛ أسَّس توفيق بكار مدرستَهُ النقدية بتعليمِ مناهجِ النقدِ والحوار مع النصوص، فما يقدمُه من تحليل يصفُه بـ (تجاريب نجريها في كلية الآداب مع طلبة المناهج).

إن الصرامةَ العلمية سمةٌ في تجاريب توفيق بكار، ولكن لا تجدُ فيها تلك التبعيةَ دون إبداءِ رأي، فهو تأثرٌ بمنهجٍ لا تلبُّسُهُ كاملاً. إن الصرامةَ العلميةَ المتلبسةَ بالحوار تقودُ إلى ما سيأتي من جدل. يذكر حسينُ الواد عن تحليل توفيق بكار لنصوص شعرية أنَّنا نجدُ أنفسَنا في صلبِ القضايا المعاصرة التي يشقى البحثُ، عالمياً، بنقاشها شقاءَ المُمتع. فهو لم يصُبّ على النصوص معارفَ مقتبسةً وإنما حاورَ بها

> **المادية الجدلية بقدر ما تسمحُ بفهمٍ أفضل لمجموع السيرورات التاريخية والاجتماعية لفترة ما، بقدر ما تسمحُ أيضاً بأن نستخلصَ بسهولة العلائقَ بين هذه السيرورات وبين الأعمال الفنية التي خضعت لتأثيرها**
>
> **لوسيان غولدمان**



الرصيدَ المعرفيَّ بالخطاب الشعري وهو يستجيبُ للتنظير وينِدُّ عنه فيدخل معه في جدلٍ خلّاق بعيداً عن السذاجةِ الحرباوية.

جدلية النص الأدبي

أفرد توفيقُ بكار موضوعاً بعنوان (في جدليات النص الأدبي) أدرجَهُ ضمن قسم (شعر قديم) في الجزء الأول من كتابه (شعريات عربية)، ويرى توفيق بكار أن (النص الأدبي كيفما نظرنا إليه من الخارجِ أو من الداخلِ من وجهة العلمِ الموضوعية أو من جهةِ النقد الذاتية كائنٌ جدلي بالطبع). ويقول بيار بربريس عن التراث، في هذا السياق، أنه ينبغي أن تُعاد قراءته في ضوء «الجدلية التاريخية»، ويذكر لوسيان غولدمان أن المادية الجدلية بقدر ما تسمحُ بفهمٍ أفضل لمجموعِ السيرورات التاريخية والاجتماعية لفترة ما، بقدرِ ما تسمحُ أيضاً بأن نستخلصَ بسهولة العلائقَ بين هذه السيرورات وبين الأعمالِ الفنية التي خضعت لتأثيرها.

إن النصَّ عند توفيق بكار كائنٌ جدلي، ولا يستطيعُ محللُ النصِ سبرَ غوره إلا بحوارٍ طويل شاق وعسير، وبمنهجٍ صارم، وبذلك يكونُ النقدُ العلمي. ولا يمكن أن ينفصلَ النقدُ عن الذات، ولذا صارت لنقد توفيق بكار سمةٌ تخبر عنه، فالنصُ النقدي (نتاج حيٌّ لتفاعلِ جدليات المعرفة والخبرة والموهبة) حسب خالد الغريبي الذي يصف توفيقَ بكار بأنه استطاع أن يكونَ له موقفٌ نقدي من حركات عصرِه، وأن يلائمَ بين البنيويةِ والتحليلِ الاجتماعي للنصوص. وهو لم يكُن ماركسياً بالمعنى الحرفي للكلمة، ولم يكن بنيوياً بالمعنى الحرفي وإن استلهمَ من الإنشائيين كثيراً من قوانينهم، ولم يكن متزمتاً، ولا نصيراً لحداثة معطوبة، إنه متأصلٌ في حداثته حديثٌ في تأصله، صاحب تحليلٍ جدلي في قراءته للواقع المتحرك، إنشائيٌّ في انتمائه إلى النصوص العليا منفتحٌ على الآخَرِ مؤمنٌ بذاته وحضارته.

إن هذا الخليطَ هو ما صبغَ شهادةَ عبدالسلام المسدي التي نقلها صلاح فضل في تصنيفه للبنيويين حين عدَّ توفيق بكار من المتجاوزين، وفي رأيي أن توفيق بكار ليس من المتجاوزين

في البنيوية، وذلك لأن البنيوية ليست واحدة وإنما بنيويات، ولعله إلى البنيوية التكوينية أقرب، فكلُّ مدرسة نقدية تأخذُ من سالفتها بقدر ما تستطيعُ النهوضَ والسيرَ باتجاه جديد، فهانز روبرت ياوس، مؤسس نظرية التلقي يقول عن المنهج (إنه لا يسقط من السماء ولكن له مكان في التاريخ)، فعلى سبيل المثال في دليل الناقد الأدبي ما نصه: (سعى غولدمان إلى تأسيس «علم حقيقي للواقع الإنساني» عبر مزيج من النظريات والفلسفات اشتمل على الماركسية، كمكون رئيس، مع أطروحات فلسفية لكانط وهيغل، بالإضافة إلى آراء بياجيه ولوكاش، وكان سعيُه من كل ذلك إلى إيجادِ البديل العلمي لبنيوية ليفي – ستراوس وفلسفة ألتوسير في دراسة المجتمع وفهم ثوابت الثقافة الإنسانية ومتغيراتها)، ومن ذلك نتلمسُ انطلاقةَ توفيق بكار نحو الديالكتيك، ويُضاف إلى ذلك المنهجُ العلمي وفق ما تمليه الدروس المنهجية، وما تنطق به النصوص وقت التطبيق، وتركز اختيارُه للنصوص على تراثه العربي؛ لإيمانه برسوخٍ فن القص في التراث العربي من خلال ما تنطقُ به النصوص وما يستقيمُ أمامَ المناهج الحديثة عند التطبيق، ولذا نراه يستهجن ترديد يحيى حقي لمقولة دوستوفسكي: (كلنا خرج من معطف «غوغول»)، ويقول توفيق بكار: (وما ضر يحيى حقي، وغيرُه منا، لو كان خرج، أيضاً.. من «قميص» الجاحظ، وكُمّ قصّه في هذه النادرة الفذة؟ فالجاحظ أقرب إلى «أم هاشم» و«قنديلها»، بحيّها «حي السيدة». أم لا قص أبداً إلا ما قصّ الغرب، وكما قصّ، وإن سبقناه إليه، ولنا فيه آياتُنا البينات؟.

إن في هذا الحديثِ انتماءً للعربية، متى ما كان لها السبق، واعترافاً بكل جديد نافعٍ من خلال التطبيق المنهجي للمدارس الحديثة، فكتابات بكار النقدية في توصيف الغريبي تغتذي من الحداثة والتراث منهجاً ورؤية ومعرفة، وفي استعراض عناوين تحليله للقصص ومادتها يتبين ذلك بتصدر الجدلية بوضوح من قبيل (جدلية الحكمة والسلطان «مثل الأرنب والأسد»)، وهذا تقرير للقاعدة الثالثة التي انطلق منها توفيق بكار في تحليله للقصص ووسمت كل تحاليله القصصية دون الشعرية، ولعل ما يعقبُها يقودنا إلى القاعدة الأخيرة.

> العمل الفنيِ يحيا بسببِ كونه عملاً فنياً. إن بعضَ الأعمال الفنية تظلُ حقاً محتفظةً بحيوية لحظتها التاريخية
> تيري إيغلتون

ثنائيات معاصرة

يشتغل توفيق بكار على الثنائيات انطلاقاً من العنوان وحتى تفاصيل النص، وللثنائيات مكانة عند العرب الأوائل، إذ نجد مصطلحات من قبيل (التضاد، والمقابلة، والتكافؤ، وغيرها)، والثنائية هي محلُ نظر في عدد من المدارسِ النقدية والبنيوية تحديداً، وتناولَ هذه الثنائيةَ الضاربةَ بجذورها في التراث العربي من خلال نصوص يصفُها بأنها (من العيون، وكتّابها من الأعلام الكبار)، ويعبّرُ بيار بربريس عن مثل هذه النصوص معللاً أهميتها بقوله إن النصوص الكبرى قد عبرت عن أزماتٍ وعن مآزق وعن اختلافاتٍ لم يكُن يُرغب في ظهورها.

ويعتني توفيق بكار بنصوص تراثية – على وجه الخصوص– لها مكانتُها الرفيعةُ في الأدب، واللافت أيضاً أنه حين قارب قصصاً حديثاً اختار نوعاً محدداً يتسِّمُ بقربه من التراث من الناحية الفنية، فأحاديث محمود المسعدي قريبةٌ جداً من التراث قصداً، ولذا وصف توفيق بكار مقاربتَه لنصوص الكتاب بقوله: (قصصنا القديم، وما يشبه القديم وهو حديث).

وهكذا فإن بعثَ هذه النصوص يستندُ إلى أيديولوجية عروبية، ووقوفُ توفيق بكار أمامَ هذه النصوص من قبيلِ إثباتِ ما في التراث العربي من نصوصٍ ناطقة بصوت مرتفعٍ لقضايا مهمة ومعاصرة، فتيري إيجلتون يقولٍ ما نصه: (العمل الفني يحيا بسبب كونه عملاً فنياً. إن بعضَ الأعمال الفنية تظلُ حقاً محتفظةً بحيوية لحظتها التاريخية)، ولعل من يطالعَ مقاربات توفيق بكار يشعرُ بهذه الحيويةِ التي تمتلكُها تلك النصوص، ويجدرُ بها أن تكونَ لها حظوةٌ تفوق ما هي عليه، فهي نصوصٌ وقفت في ظل (ألف ليلة وليلة) قصصياً غيرَ مأبوه لها، ولكن تحاليل توفيق بكار دحضَت القولَ بأنَّ (زهيد إرثنا من القص ضئيل. أباطيلٌ من الأقاويل تتهافتُ إذا جدّت التحاليل).

لقد أثبت توفيق بكار بالتحاليل الجادة قدرةَ الأدب العربي القديم على الحضورِ بفاعلية في عصرنا الحاضر، وأن المناهجَ النقدية الحديثة مفيدةٌ أشد الفائدة عند التطبيق والإفادة منها، فالمعاني العظام يمكننا استشفافها عقب تحليل رصين وجاد، ولعل دراستَه لنصي المسعدي وفق جدليتين (جدلية القدم والحداثة، وجدلية الشرق والغرب) خير ناطق للتعبير عن مفهوم الجدلية عند توفيق بكار ومصدرها، وأختم باقتباس منه عن نص المسعدي: أشكال السرد واللغة في هذا النص عموماً عربيةٌ قديمة ودلالات الشعور والفكر في الجملة غربية حديثة، ومن ثم فالعلاقة بين هذه وتلك تظل محكومة بنفس الجدلية.

ويقول في خلاصة تفسر تلك الجدلية في مقاربته: انطلق المسعدي في كتابه (حدث أبو هريرة قال): «شرقياً» ثم رجع وقد تغرب وإذا بالعالمين يصطرعان في رأسه إلى حد «العمى»، وها هو يخرج من الظلمات إلى النور يضرب في الإشراق والتجلي فعاد «شرقياً» كما كان: فهو–بحكم مسيرته– شخص متناقض نصف صوفي نصف بروميثي، قديم جديد، تراثي معاصر على غرار شكل الحديث وأسلوبه، صورة صميمة من الجدلية بين الثقافتين.

قول آخر

صفحة .. في مقدمة ابن خلدون

يُتحفنا الكاتب زكي نجيب محمود في كتابه «هذا العصر وثقافته» بعبارة يقول فيها: «في دارنا تراث نعتز به، وفيه انعكاس لخصائص نفوسنا، غير إن حضارة جديدة اقتحمت علينا الأبواب ودخلت بقوادمها، وإن تكن بقية أعجازها ما زالت منحشرة عند أبواب الدخول».

أحببت أن أتخذ من تلك العبارة مفتاحاً ألج به مائدة ابن خلدون (732هـ/ 1332م – 808هـ/ 1406م)، تلك المائدة التي لا أظن أن مثقفاً بمنأى عن الالتفاف حولها للفوز بكؤوس لذائذها الذهبية، والكشف عن بعض مكنونها.

ومن جميل الأقدار أن بحثي في الدكتوراة تضمَّن الفكر التربوي الإسلامي من جميع الجوانب المعرفية والعلمية، ومنها ما يتعلَّق بالمعلِّم والمتعلم، والمنهج وطريقة التدريس، والتعزيز والتحفيز، وغير ذلك.

وقد كان لابن خلدون نصيب الأسد من تلك الدراسة، وقد ذهلت عندما وجدته جمع ذلك كله في صفحة واحدة، في الفصل التاسع والعشرين التي يخاطب فيها كل تربوي واصفاً رسالته بـ«الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته»، فإن كنتَ مسؤولاً تربوياً أو مشرفاً أو معلِّماً أو تحت يدك من تربي عقولهم، فما عليك إلا أن تقرأ هذه الصفحة وتتأمل ما فيها.

يقول ابن خلدون: «واعلم أن تلقين العلوم إنما يكون للمتعلمين على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً»، وهذا ما نسميه تدرج في التعليم، منطلقاً بعد ذلك إلى سبيكة أخرى بقوله: «ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد»، ويعني مراعاة الفروق الفردية.

ثم ما يلبث أن يؤكد على ضرورة العناية بعقل الطالب حين يكون متقبلاً، نظيفاً، مستعداً بقوله: «ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته»، وهذه طريقة التدريس المقننة بالتوسع والشرح والتفصيل.. الطريقة التي يفصلها أكثر بقوله: «ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مهماً ولا مغلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته» وفي ذلك أجملَ مهارة جودة التعليم! داعماً إياها بقوله: «التقريب والإجمال والأمثال الحسية» ما يعني به تقريب المعنى. وتعريجاً على الجانب النفسي يقول ابن خلدون في هذه السبيكة: «إذا ألقيت عليه الغايات في البداءات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له. كلَّ ذهنه، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله»، وهذا يعبِّر عن مراعاة للجانب النفسي للمتعلم، التي تُعد من أهم مبادئ التعليم.

ولعل من أهم القواعد التي أصَّلها ابن خلدون في مقدمته، هي حاجة الطالب إلى العالم، فيقول: «لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم، استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب مزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم»، تلك الغايات التي تثبّت بالقاعدة الخلدونية، حيث يقول: «وينبغي ألاَّ تطوّل على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها، لأنه ذريعة إلى النسيان».

وما أجمل تعبيره عن قاعدة التأكيد والتغذية الراجعة بقوله: «لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه»، أما عن التخصص والتسلسل المنطقي للمادة من العام إلى الخاص فيقول: «ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم ألاَّ يخلط على المتعلم علمان معاً فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال».

ويختم مائدته الغنية بكأس من تجربته الفريدة في التعليم، وقد خصَّ بها المتعلم تعزيزاً وتحفيزاً بقوله: «إني أتحفك بفائدة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناع تظفر بكنز عظيم وذخيرة شريفة».

ولعل ما أدهشني هو أن ابن خلدون يعيب على معلمي عصره، فيقول: «وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا، يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه فيحلها ويحسبون ذلك مراناً على التعليم ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها».

لقد جمعت هذه الصفحة إضاءات وإشارات بأيها نعمل نتقن! فإصلاح الأمم وصناعة الحضارة لا يكون إلا بإصلاح التعليم وشأن المعلم، وهذا هو شأن الأمم المتقدمة.

لا يقتصر الأمر على سبورة ذكية ولا حاسب آلي أو جهاز لوحي محمول تثبت فيه البرامج، وإنما هي روح العلم وطرائقه التي تحدث عنها ابن خلدون، تلك الروح التي تحرك الكون في نفوسنا.

إذا تشرَّب العاملون في المؤسسات التعليمية تعاليم تلك الصفحة، فإننا سنصنع نماذج محرِّكة في معلمينا، وسنوفر كثيراً من الأموال والأوقات وسنجني الثمرات ونبني العقول ونريح النفسيات ونراعي الحاجات ونؤهل أصحاب الاختصاصات.

وإذا أردنا أن نغير وجه الحياة التي نحياها، فلن يكون ذلك بفتح كتب من سبقوا، لنروي عنهم ما قالوا، وننقل عنهم ما صنعوا، بل لنستشرف المستقبل ممن سبقونا لنجعل منهم أنموذجاً يُحتذى، ومصدراً للإلهام فيما ينبغي أن نصنع.

د. هدى الملحم

الغراب



يستوقفنا، يستفزّ قدرتنا على الحيادية والمنطق، نجد أنفسنا محكومين بسواده من طرق منقاره حتى ذيله. وتكتمل صورته المرئية بصورته المسموعة، صوت ترتجف له طبلة الأذن عند سماعه، إذ يكسر قاعدة أصوات الطيور الأخرى بنشاز يجبرنا على استثنائه لا إرادياً من بين كل ذي ريش.

إنه الغُراب، الطير ذو الحضور المتميز في ثقافات الشعوب وآدابها، حضور يطغى عليه في معظم الأحيان النفور الذي يصل إلى حدٍّ الكراهية، والتشاؤم منه الذي يصل إلى حد استشعار الموت..

أفلا تستحق هذه الصورة شيئاً من التقصّي والبحث؟

جعفر حمزة يخوض غمار هذه التجربة، ساعياً إلى الكشف عمَّا يمثِّل العلاقة ما بين هذا الطير وبني البشر الذين يميلون إلى إسقاط كثير من ضعفهم على ما حولهم من جماد وحيوان وطير، ويبدو أن الغراب قد أخذ نصيباً وافراً من ذلك.

shutterstock



الغراب ضحية..
ضحية حلف يضم طرفين لا قدرة له على مواجهتهما: الخرافة والأدب.
فالخرافة هي سلاح من لا سلاح له في مواجهة ما لا قدرة له على مواجهته. والأدب هو من يتولى تزيين هذه الخرافة وتنميق صورتها، فيعزِّز حضورها في وجدان النخبة، بعد أن تكون قد ولدت في رحم البسطاء من العامة.

فبشكل عام، أفردت الإنسانية مساحة خاصة بالغراب بعد أن عزلته في وجدانها عن باقي الطيور. أحبَت الداجن وغير الداجن منها. ووجدت في كل طير حسنة أو جملة حسنات: صوت البلبل والكنار، أناقة الطاووس وأبهته الملكية، مهابة الصقور والنسور، أناقة الهدهد المتوَّج، قدرة الببغاء على تقليد الكلام، الحمامة ورمزيتها للسلام، أما الغراب؟

حتى اليوم، في القرن الحادي والعشرين، لا يزال الغراب محاطاً بالتصور السلبي الملتصق به منذ آلاف السنين. تصور ينطلق من الربط غير العقلاني ما بين سواده وأحوال البشر من حوله، بعد أن ربطته المجتمعات القديمة ودياناتها الوثنية بالسحر والشعوذة والخوف من الموت، أو استجلاب الموت.. فما من طير ينافس الغراب على حضوره الكبير في ثقافات العالم، ورمزيته الوثيقة الصلة بالمفاهيم الاجتماعية والوجدانية، غير الآبهة بالمنطق وحقائق العلم.

هذا السواد هذا الشؤم

لو بدأنا بتناول التاريخ الثقافي للغراب من آخر فصوله، لأشرنا إلى ما شهدته مقاطعة «يوغرا» الروسية في الآونة الأخيرة. فقد عزمت حكومة هذه المقاطعة على إدراج «الغراب الرمادي» على اللائحة الإقليمية لموارد الصيد، وذلك بسبب تزايد أعدادها بشكل كبير بات يشكِّل خطراً على الناس والبيئة، لكون هذا الغراب من الطيور الكاسرة التي تهدِّد كثرتها بانقراض كثير من الحيوانات الأخرى التي تتغذَّى عليها.

ولكن تنفيذ قرار الحكومة ليس بالأمر اليسير. لأن السكان المحليين في هذه المنطقة يكرِّمون الغراب ويحتفلون بيوم الغراب، استناداً إلى أسطورة قديمة، تقول إنه عندما تأتي الغربان إلى الشمال، تنتعش الأنهار ويصبح صيد الحيوانات وافراً.. ولأن الغربان هي أول الطيور التي تصل إلى تلك المنطقة الشمالية، يرى السكان أنها تعمل كوسيط بين فصلي الشتاء والصيف، وتفتح الطريق لغيرها من الطيور،

ويربطـون ذلك مـع تجدد الحياة فـي الطبيعة. وثمـة أسطورة تحكـي في هـذه المنطقة عن امرأة مـن قبيلة محلية كانت تحـب أطفالها كثيـراً، حتى أنهـا كانت تسمـح لهم بأن يفعلـوا ما يشـاءون، إلـى أن نسي هـؤلاء آداب الطاعة وصاروا متمردين ينتهكون الأعراف والتقاليد، فعاقبت القبيلة هذه المرأة بتحويلها إلى غراب، ثم طردتها من المنطقـة. ولأن هذه المرأة كانت تشتاق لأولادها، وتعود قبـل غيرها من الطيور إلى موطنهـا الأصلي في الشمال، نشـأ تقليـد بين الناس هنـاك، يقضي بأن يسألـوا الغراب أن يرزقهم أطفالاً ويهنئهم بحياتهم!؟!

والسـؤال هو: إذا كان مثل هـذا الاعتقاد الخرافي لا يـزال حياً في القرن الواحد والعشرين، فكيف كان الحال قديماً عند الشعوب والوثنيات القديمة؟

الغُراب ذو الأرجل الثلاثة الذي يعيش في قلب الشمس

الغراب الياباني المسمّى Yatagarasu يقود الإمبراطور جيمو نحو سهل ياماتو.

في الوثنيات القديمة صلة الوصل مع عالم الغيب

تعددت أنمـاط التعامل مع الغراب لدى الشعوب القديمة، غير أن ما يجمعها هو اعتبار هذا الطير، دون غيره من الطيور، صلة الوصل ما بيـن العالم بحاضـره وحقائقه الملموسة من جهـة والغيب المجهول من جهة أخرى.

فالإغريق ما كانوا يسمحـون للغربان بأن تحط فوق مجمع المعابد (الأكروبوليس) الذي يعلو العاصمة أثينا، لاعتقادهم بأن ذلك فأل سـيء، وأن هبـوط الغراب على سطح أحد المنـازل هو نذير بموت أحد سكانه. أما «من يأكل قلب الغراب فيمتلك قوى خارقة».

وتبنَّـى الرومـان هذا الاعتقـاد، وأضافوا إليه اعتقـاداً آخر يقول إن الغراب إذا مشـى متبختراً على الرمال ذهابـاً وإياباً، فإنه يستدعي بذلك سقوط الأمطار!

ومـن الحضارتيـن الإغريقية والرومانيـة، استمر بعضـ الأوروبيين حتـى اليوم في الاعتقاد بـأن نعيق الغراب هو نذيـر بالموت. وذهب السويديـون مذهبـاً غيـر بعيد عن ذلـك، فاعتقـدوا أن الغربان هي أشباح الناس الذين ماتوا قتلاً.

ويعتقد الهنود «الليلوويون» الذين يسكنون في كولومبيا البريطانية بأن الشخص الذي يسكن الغراب روحه سيمتلك القدرة على التنبؤ بالموت وأحـوال الجو. وفي أساطير القبائل الهندية التي تسكن غرب أمريكا، يكون الغراب أحد الأشخاص الذين تتداولهم الألسن..

أمـا في الشرق الأقصى، فصورة الغـراب أفضل حالاً بعض الشيء. ففي الأساطير الصينيـة وثقافتها، هناك الغراب ذو الأرجل الثلاثة الـذي يعيش في قلب الشمس، وتمثل أرجله الثلاث الأوقات المختلفة مـن النهار: الصبـاح والظهيرة والمسـاء. ويَعُـدُّ اليابانيون الغراب



الغربان هي أول الطيور التي تصل إلى المنطقة الشمالية في روسيا، وتفتح الطريق لغيرها من الطيور



الإغريق ما كانوا يسمحون للغربان بأن تحط فوق مجمع المعابد (الأكروبوليس) الذي يعلو العاصمة أثينا

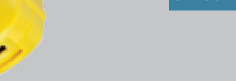
طيراً عظيم الدلالة على إرادة السماء وتدخلها المباشر في شؤون الإنسان.

وما بين هذا وذاك، كان السحرة والمشعوذون في أوروبا طوال القرون الوسطى أكثر الجهات استغلالاً لشكل الغراب وتميّز نعيقه، فضمّوه إلى أدوات شعوذاتهم السوداء والمخيفة، ليعزّزوا بذلك نفور العامة منه، وليربطوا ربطاً لا عقلانياً ولا فكاك فيه ما بين الغراب والغموض.. كل أشكال الغموض.

طغى هذا الموروث الثقافي المتراكم منذ آلاف السنين على كل ما عداه في رسم صورة منفَرة للغراب في معظم بقاع عالمنا اليوم. حتى أن المواقف الإيجابية من هذا الطير، كموقف مقاطعة يوكون الكندية التي تُعد الغراب طائرها الرسمي، تبقى أقل من أن تذكر، أمام صورته الشائعة، وشتّان ما بين هذه الصورة الشائعة والحقيقة.

حقيقته العلمية

تقول الأبحاث إن منشأ الغراب الأصلي هو على الأرجح آسيا، ومنها انتشر في معظم أنحاء العالم ما عدا القارة القطبية الجنوبية وجنوب أمريكا الجنوبية. وخلال تطوره، ظهر نحو أربعين نوعاً من الغربان تتفاوت الاختلافات ما بينها قليلاً أو كثيراً في بعض الأحيان.





أصغر أنواع الغربان

هو نوع من الغربان يسمى غراب السمك Corvus ossifragus وينتشر هذا النوع على الشريط الساحلي للولايات المتحدة الأمريكية الجنوبية الشرقية، ويتغذّى على الأسماك ويتميز بصغر حجمه الذي يساوي حجم حمامة صغيرة. كما يتميز أيضاً بصوته الحاد المرتفع جداً الذي يسبب إزعاجاً لباقي أنواع الطيور.



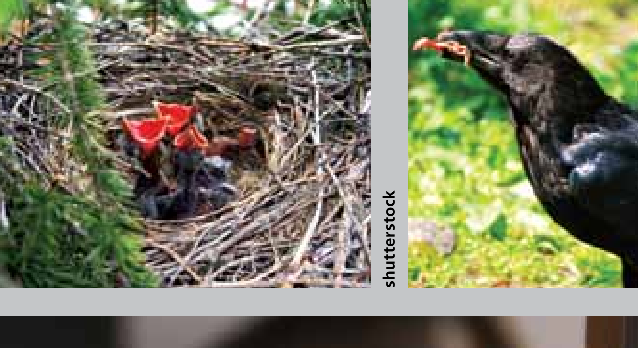
تتميز الغربان بريشها الأسود الذي يغطّي كامل أجسامها. ويساعدها هذا السواد على التخفي عن أعدائها الليليين ومفترسيها مثل البوم وبعض أنواع الصقور التي تنشط ليلاً. ويبلغ معدل طول الغراب نحو 50 سم، ومع فرد الجناحين قد يبلغ عرضه نحو المتر الواحد.

تتغذّى الغربان على كل شيء تقريباً، بدءاً بالمحاصيل الزراعية من حبوب وفاكهة، إلى الديدان والحشرات والقواقع وبيوض الطيور الأخرى وحتى بعض الطيور الأصغر حجماً والأسماك والحيوانات الأليفة المقتولة في الشوارع. وتقوم الغربان بتخزين غذائها وتخفيه بين أوراق الشجر أو في مرامي النفايات بعيداً عن أعين أعدائها من الطيور. وعلى الرغم من هذا التنوع في السلة الغذائية للغراب، فإن قابليته لالتهام الجيف علقت في ذهن الإنسان أكثر من غيرها، وعززت ربط صورته بالموت.

ويرجِّح المؤرِّخون أن ابتكار «الفزَّاعة» التي ينصبها المزارعون في حقولهم تعود أساساً إلى الرغبة في تخويف الغربان لإبعادها عن حقول الحبوب. وإن كان عداء المزارعين للغراب يُفسَّر بالدوافع الاقتصادية، فإن الغراب وللدوافع نفسها، يستحق اعترافاً بالجميل من النادر أن يحظى به. إذ إنه بوجوده في الحقول الزراعية يلتهم كثيراً من الحشرات الضارة للزراعات، وأهمها على الإطلاق فئران الحقول.

أما صورته كطير كاسر ومتوحش قادر على افتراس حيوانات كبيرة كالأغنام، فلا تخلو من المبالغة. إذ إن الحالة الموثَّقة التي تؤكد قدرة الغراب على افتراس الخراف الضعيفة تعود إلى الغراب الأسترالي فقط. أما غير ذلك، فمجرد شائعات ومخاوف ليس أكثر.





shutterstock

بعض طباعه

لا تتوانى الغربان عن سرقة ما عند غيرها من الطيور، وتتعاون على ذلك كمجموعات للقيام بالأمر. وتعيش الغربان في تجمعات كبيرة تصل إلى المئات وربما الآلاف، ليس لغرض الصيد الجماعي فقط، بل لحماية مناطقها والاعتناء بصغارها معاً. وكل زوج من الغربان يبني عشه الخاص به، الذي يكون عادة في أعالي الأشجار، وقد يبقى صغيرها مع أبويه حتى لست سنوات قبل أن يستقل عنها.

وهذه التجمعات تمتلك هيبة تكسر بها بطش أعدائها من الطيور الأخرى، كالصقور والبوم، ويكون نداء التجمع هو نعيقها المرتفع قبل غروب الشمس، لتتجمع في أماكن أعشاشها التي تُسمى «مجاثم» جمع «مجثم».

ويتميز نمط عيش الغراب بتوزع أدوار العناية بصغاره بشكل منتظم. إذ تهتم الأنثى بحضانة البيض حتى الفقس وإطعام الصغار بعده. أما الذكر فمهمته الأساسية حماية العش من الأعداء، حيث يقف على حافته لمنع دخول أي ذكر غريب من «مجثم» آخر ، وإذا ما دخل ترتفع عقيرته فيقوم بقتله.

تصل أنثى الغراب إلى سن البلوغ في الثالثة من عمرها، والذكر في الرابعة. ويتولى كل من الذكر والأنثى البحث عن الغذاء وجلبه إلى العش. ومن اللطيف أنه عند وجود أكثر من جيل في العش، يقوم الفراخ الأكبر سناً بمساعدة الآباء على جلب الطعام للصغار وتنظيف العش وحمايته، بشكل يتسم بالنظام وتوزيع الأدوار بحكمة.

«نعيقه» لا نفهمه، بل نترجمه من زاويتنا القاصرة، فنوسمه بالقبيح والمزعج، والنعيق لغته، وما يميز صوته هو التردد العالي، وهي لغة التعارف عند معشر الغربان، فلكل نعيق غراب تردد معيَّن وكأنه «شفرة» يبعثها لجماعته، طالباً أو محذراً، مستنجداً أو دالاً.

يؤكل أم لا ؟

المؤكد علمياً وبالتجارب، أن لحم الغراب غير ضار أو سام. ولكن كان لنفور الإنسان من هذا الطير بعض الحسنات بالنسبة لهذا الأخير.





يساعد سواد الغربان على التخفي عن أعدائها الليليين ومفترسيها

shutterstock



فإضافة إلى أن لا أحد يرغب في اقتنائه وأسره في قفص، فإن المعلومات عن اصطياده و أكله نادرة جداً، وتكاد تنحصر في بلدان البلطيق في شمال شرق أوروبا، وأيضاً خلال مراحل زمنية متقطعة، مثل الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى، حين حضر لحم الغراب في أسواق المدن الفنلندية. وفي معظم الأحيان، كان لحم الغراب طعام الفقراء والبحَارة الذين كانوا يحفظونه مملحاً، ليبقى صالحاً لفترة طويلة.

أنواعه الموجودة في البلاد العربية

تحضر في المدن والأرياف العربية أربعة أنواع رئيسة ومختلفة من الغربان، وهي:

1 - الغراب النوحي، وطوله حوالي 50 سم، لون ريش الجسم أسود ما عدا ريش الرقبة فلونه بني وينتشر هذا النوع في شمال إفريقيا.

2 - الغراب المروحي الذيل، وقد أطلق عليه العرب (غراب البين) واتهموه بأنه يجلب الخراب. ويتميز هذا الغراب بأنه أصغر من النوع السابق ولونه أسود مع لمعان يميل إلى الزرقة، وهو ذو ذيل قصير مروحي، وجناحه طويل يشبه الخفاش. وينتشر هذا النوع في السعودية والسودان والصومال ومصر وفلسطين.

3 - غراب المنازل الهندي، وطوله حوالي 40 سم ويتميز لون ريشه بأنه أسود في منطقة الرأس والعنق والظهر والجناحين والذيل، أما باقي الجسم فلون ريشه رمادي. وينتشر هذا النوع في دولة الإمارات العربية وعُمان والسعودية.

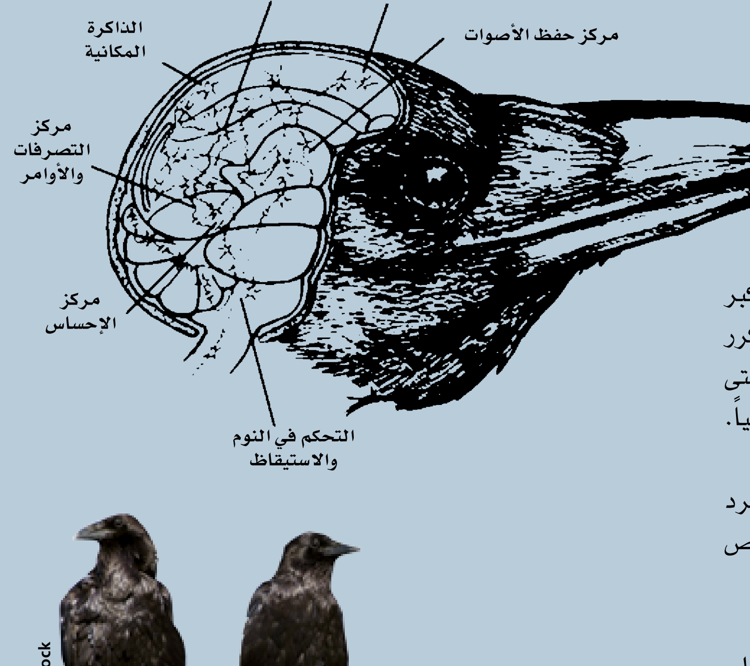
4 - الغراب الأورق، وطوله 43 سم، لونه أسود مع رمادي لامع، وينتشر في مصر و فلسطين وسوريا.


الغراب المروحي الذيل


الغراب النوحي


غراب المنازل الهندي

أذكى الطيور؟



بموازاة النفور التاريخي من صورة الغراب، كان الإنسان يلاحظ في سلوكيات هذا الطير ما ينمّ عن المكر والذكاء. وبحلول القرن الثامن عشر، بدأت الأبحاث العلمية حول «ذكاء» الغراب. وسرعان ما تكشَّفت عن أنه قد يكون أذكى الطيور على الإطلاق. ويعلل ذلك بأنه يملك أكبر نصفي دماغ بالنسبة إلى حجم الجسم بين كل الطيور المعروفة.وتكرر كل كتب التاريخ الطبيعي القول إن الغربان تستطيع العدَ من الواحد حتى الخمسة (أو الأربعة حسب بعض الروايات)، ولكن ذلك غير مؤكد علمياً.

والواقع، إن كل الموسوعات خلال تناولها الغراب بالحديث، تُفرد فقرات خاصة بذكاء هذا الطير، وتروي فيها أموراً مدهشة، تتلخص بما يأتي:

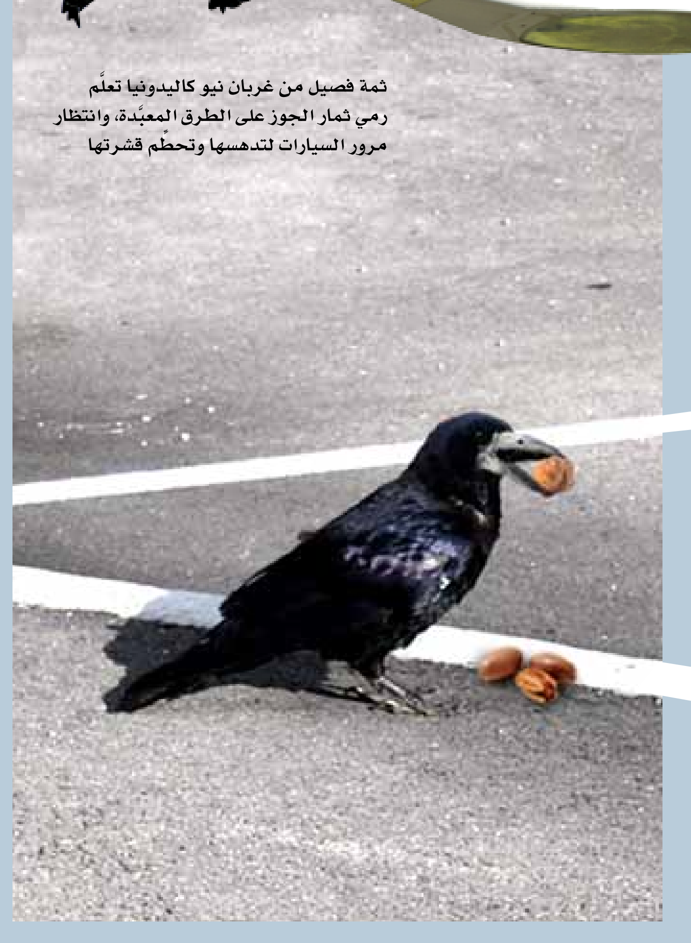
1 – قدرته على تغيير سلوكه وفقاً للظرف والمكان.

2 – قدرته على التخطيط ورسم خطواته بدقة بالغة قبل الإقدام على أمر لا يعرف خباياه.

3 – حل المشكلات باستخدام الأدوات المحيطة به، وتطويع هذه الأدوات لتصبح صالحة لغايات محددة.

4 – الذاكرة القوية، والقدرة على التعرف إلى وجوه الأشخاص والتمييز بينها.

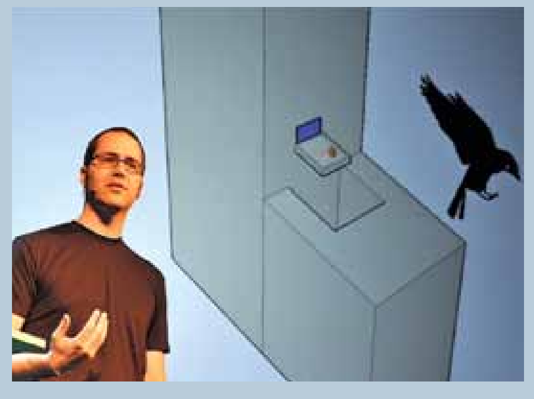
ومن الأمثلة الداعمة لهذه الملاحظات نذكر تجربة قام بها فريق بريطاني، قضت بأخذ غراب إلى أحد المختبرات، حيث وضع الباحثون لحماً مهروساً داخل أنبوبة ضيقة، وقربها سلك معدني طويل، وتركوا الغراب مع هذه الأدوات وراحو يصوِّرون سلوكه. وبعد أقل من عشر دقائق، قام الغراب بثني طرف السلك المعدني ليصبح مثل الخطَّاف، وأدخله برجله إلى قلب الأنبوبة، ليسحب بواسطته اللحم المهروس ويأكله. ولما اعتقد العلماء أن الغراب فعل ذلك صدفة، كرروا التجربة نحو 10 مرات، وفي كل مرة كان الغراب ينجح في استخراج اللحم وأكله.



ثمة فصيل من غربان نيو كاليدونيا تعلّم رمي ثمار الجوز على الطرق المعبَّدة، وانتظار مرور السيارات لتدهسها وتحطّم قشرتها

والغربان البريَة التي تعيش على الساحل الشرقي للمتوسط (وخاصة في فلسطين المحتلة)، تعلَّمت استعمال فتات الخبز كطُعم لصيد الأسماك. إذ تنقلها بمناقيرها من الطرقات وأكوام النفايات، وترميها فوق سطح البحر، وعندما تقترب منها الأسماك تكون الغربان بانتظارها.

وثمة فصيل من غربان نيو كاليدونيا يعيش أيضاً في اليابان، تعلَّم استخراج لب الجوز اللذيذ من قشرته الخشبية الصلبة، وذلك عبر رمي ثمار الجوز على الطرق المعبَّدة، وانتظار مرور السيارات لتدهسها وتحطِّم قشرتها، حيث يصبح التهام اللب ممكناً.



الباحث جوشوا كلاين يشرح تجربته

أمـا المثال على القدرة المدهشة فـي التعامل مع مستجدٍّ بيئي والتكيف معه، فيأتي من كوينسلاند في أستراليا.

فهـذه المنطقـة موبـوءة بنـوع مـن الضفـادع السامـة والدخيلـة على بيئتهـا، التـي يتسبب تكاثرها بمشكلـة بيئية خطرة في تلـك المنطقة. فـكل الحيوانات التـي تفترس هذه الضفـادع (مثل الأفاعـي والصقور والقوارض) تموت فوراً، لأنها لم تتكيَّف بعد مع هذه الطرائد الجديدة. وحدهـا الغربان، تعلَّمت أن تقلب الضفـدع على ظهره، لتغرس منقارها تحت عنقه، حيث الجلد هو أطرى مما في باقي جسمه، ومن ثم تفترس لحم ضحيتها متلافية تمامـاً موضع السم. وبذلك يرشِّح الغراب نفسه لأن يكون السلاح الوحيد الناجح في مساعدة أستراليا على القضاء على الضفادع السامة الدخيلة.

هذا غيض من فيض حول تميَز عقل الغراب، الأمر الذي يفترض فيه أن يؤدي بنا إلى فتح صفحة جديدة في علاقتنا مع الطير، والنظر إليه على أنـه أفضل من أن يكون كتلـة مساوئ، إن كنا غيـر قادرين على الإقرار بحقيقة قابليته لأن يكون «مواطناً منتجاً». فهل الأمر ممكناً؟

مدينة أوبورن مثالاً..

تشغيل الغربان بدل قتلها

ثمـة حالة تفتح آفاقاً واسعة أمام تعاون أفضل ما بين الإنسان والغراب، وتحويل هذا الأخير إلى عنصر منتج من خلال تأسيس علاقة نفعية بين الطرفيـن. وتتمثل هذه الحالة بالمشكلـة التي تعاني منها مدينة أوبورن في ولاية نيويورك الأمريكية.

فقـد تكاثـرت الغربان في هـذه المدينة بشـكل غير طبيعـي منذ العام 1993م، حتـى وصل عددها إلى ما يتراوح بين 25 ألفاً و50 ألف غراب، متسببـة بمشكلة كبيرة على الصعيد الصحـي والبيئي بسبب ضجيجها ومخلفاتهـا. وفي العـام 2003م، طرحت فكرة مثيـرة للجدل تدعو إلى صيدها وقتلها بوسائـل مختلفة. ولكن الصيد لم يقضِ عليها، ولم يحل المشكلة.

وفـي مؤتمر «تصميـم التقنيـات الترفيهيـة» الذي عُقد عـام 2008م، طرحت فكـرة استخدام هذه الغربان لجمع النفايـات من المدينة بدلاً

آلات تمنح الغراب مكافأة (طعاماً) مقابل كل قطعة نفايات يأتي بها إلى قرب الآلة



تجربة الفريق البريطاني لامتحان ذكاء الغراب

من عمال النظافة. وذلك من خلال آلات تمنح الغراب مكافأة (طعاماً) مقابل كل قطعة نفايات يأتي بها إلى قرب الآلة.

واستندت هذه الفكرة إلى التجربة التي قام بها الباحث جوشوا كلاين، الذي تمكن من تعليم الغربان وضع النقود المعدنية في آلات البيع، للحصول منها على الطعام.. ويرى الباحثون أن هذه التجربة قد تنطوي على تطبيقات عديدة تؤسس لعلاقة جديدة ومنتجة بين الغراب والإنسان لتنتقل من سواد التصور والموقف إلى بياض التآلف والإنتاج بينهما. ومن الجدير ذكره أن تكوين العلاقة بين الإنسان والطير، ليكونا متعايشين ممكنة جداً وإن كانا غير متآلفين كما في الطيور الداجنة. إذ إن هناك طيراً في إفريقيا يقوم بإرشاد الإنسان إلى وجود مكان العسل، مقابل تقديم الإنسان له نصيبه من ذلك العسل كمكافأة له نظير خدمته الإرشادية.

فمن الممكن إذاً تأسيس علاقة نفعية جديدة بين الغراب والإنسان مبنية على المصلحة المشتركة، وذلك بتقديم الطعام وتحديد المأوى للغراب مقابل تقديمه خدمات إيجابية للمجتمع، مثل قيامه بالتنظيف والإرشاد والتنبيه، وغير ذلك.

لا يمكن تغيير «سلوكيات» الغراب في البحث عن الطعام أو بناء العش أو الصيد، فضلاً عن استخدام حِيَلِه وذكائه للقيام بذلك. لكن يمكن «توجيهها» بحيث تكون متناسقة مع نمط حياة بني البشر، أي إن الحديث هنا يكون عن منطقة مشتركة بين الغراب والإنسان، وهي منطقة «التعايش»، التي يقوم بها فعلاً الغراب من خلال تطويع البيئة المحيطة التي يعيش فيها لصالحه.

والوصول إلى ذلك يمكن أن يتم عبر «الربط الشرطي» لمبدأ المكافأة للغراب، فيتم ذلك إذا ما قام بالعمل المتوقع منه، ونحن نعلم أن الغراب ليس من الحيوانات الأليفة التي يمكن الاقتراب منها وتدريبها على بعض الأمور المحددة.. إلا أن ذلك يمكن استعاضته بالاعتماد على «ذكاء» الغراب و«توقعاته» للمهمة الموكلة إليه، وفي

في القرآن الكريم: الغراب معلِّم للإنسان

ورد ذكر الغراب في القرآن الكريم كمعلِّم للإنسان كيف يدفن أخيه الإنسان. فعندما قتل قابيل أخاه هابيل، وحار فيما يجب فعله بأخيه القتيل، كان الغراب مبعوث السماء ليصبح المعلِّم الأرضي الأول للإنسان، يقول الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ * قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (سورة المائدة، آية 31).

فالغراب هو المختار من بين الكائنات ليكون «المعلِّم الأول» للإنسان في الدرس الأكبر: درس التعامل مع الموت والحياة بطريقة تحفظ للإنسان كرامته، حتى بعد خروجه من جسده، درس مواراة الجسد الذي أداه الغراب على أكمل وجه أمام ناظري قابيل قاتل أخيه.

هذا تعويض جيد عن الأُلفة المطلوبة لتعليم أي حيوان «سلوك» معين لصالحك.

فبمجرد قيام غراب واحد بالعمل بشكل صحيح، فإن بقية الغربان تستنسخ التجربة ولا تمر بكل المقدمات للوصول إلى نفس النتيجة. بل تأخذ نفس الوسيلة لضمان ذات النتيجة.

قد يبدو الأمر عسيراً أو بحاجة إلى جهد مضاعف، إلا أن النتيجة ستكون انسجاماً ذكياً مدروساً بين الإنسان والغراب، وسيتم تحويل «الاعتقاد أو الثقافة السائدة» بصورة سلبية عن الغراب إلى أمر مختلف تماماً، ربما لم تشهده البشرية طوال مرحلة علاقتها بهذا الطائر، فمن الحكمة استغلال ذكاء وحيلة هذا الطير في أمر يعود على الإنسان بالفائدة، وكذلك على الغراب نفسه.



الغراب في ثقافة العرب أمثالاً وشعراً

هجوه وما عرفوه



ما إنْ تذكر اسم الغراب في الثقافة العربية إلا وتكون قد لفظتَ ما لا يحبه الناس. فقد نسبت الثقافة العربية إليه دلالات الخراب والموت والشــؤم. فقيل «أشــأم من غراب» و«احذَرُ من غــراب»، ويُقال: «طار غرابه» أي شاب رأسه.

ومــن أمثال العرب: هو أشد سواداً من حنك الغراب، وحلك الغراب، فحنك الغراب منقاره وحلكه سواده.

وأطلقــوا عليــه لقب «غراب البيــن»، وربطوا حلوله علــى بيوتهم عند بينونتهم عنها، أي ابتعادهم عنها. وقد بنوا على ذلك «معتقد» الشؤم عنه والفراق، حتى بات جزءاً من موروث العرب الثقافي.

منذ عهد النابغة

يقول النابغة الذبياني:

زعــم الــبــوارح أن رحــلــتــنــا غــدا
وبــذاك تــنــعــاب الــغــراب الأســود

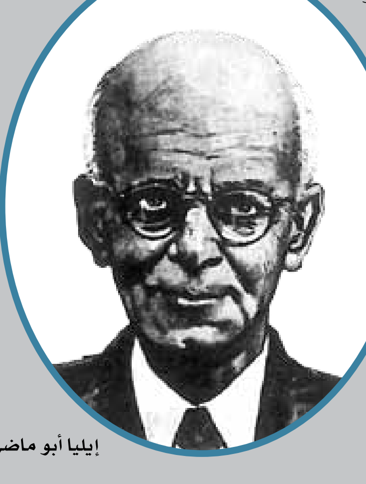
فالشاعــر يــرى أن نعيب الغراب شــؤم وفراق لمن يحــب، وقرن هذا الأمــر بعنصر إسطوري وهو «زعم البــوارح»، فقد كانت العرب تؤمن بالعيافــة، فتزجر الطير تفاؤلاً أو تشاؤمــاً بمرورها، فالسانح وهو ما يتفائلــون به إذا ما طــار الطير على يمين الفرد والبــارح إذا ما طار على يساره، وهو مــا يتشاءمون به. ويسمون الأمر تَطَيراً أيضاً، نسبة إلــى الطيــر، وكانوا يزجرونه ويرون إلى أي اتجــاه ذهب ويبنون على ذلــك تفائلهم أو تشاؤمهم. ولم يسلم الغراب من حدة لسان العرب، فهو محاصر بين أمثال شعبية تنال منه وأشعار جزلة تتعرّض له.

يقــدّم الجاحظ بطاقته التعريفيــة بالغراب قائلاً: الغــراب من لئام الطيــر وليس مــن كرامها ولا مــن أحرارها، ومن شأنــه أكل الجيف والقمامــات. ويضيف: «والغراب خبيث ملتوي الذمة لا عهــد له، فقــد أرسله نوح -عليــه السلام- يستطلــع ما ظهر مــن الأرض، فوقع على جيفة فأقام عليها ولم يعد إلى السفينة. وقــد كان نديمــاً للديــك فــي الزمــن القديــم، وكان للديــك جناحان يطير بهما، ولم يكن للغــراب مثلهما، فنفد الشــراب، فقــال للديــك: لــو أعرتني جناحيــك لأتيتــك بشــراب، فأعــاره جناحيه فطار بهما ولم يرجع».

الجاحظ

ويبــدو أن للعــرب «ثــأراً» معــه، فوضعوه محل كل ذلك التشاؤم ضمن تراثهم، أمثالاً وأشعاراً وقبل كل ذلك تسميتهم له. فللغراب أكثر من كنية عندهم: أبو حاتم وأبو جحادف وأبو الجــراح وأبو حذر وأبو زيــدان وأبو زاجر وأبو الشؤم وأبو غياث وأبو القعقاع وأبو المر والأعور -سمي بذلك تطيراً منه وتشاؤماً به وليس به عور-، ويقال له: ابن الأبرص وابن بريح وابن دايه..

ولــه مكانة في الشعــر لا تقل مساحةً ولا تختلــف مضموناً عما هي عليه في الأمثال . وكأني بهذا الطائر يحمل داءً عضــالاً ينشره بيــن النــاس. فيقول أحد شعراء العرب متهكماً:



إيليا أبو ماضي

إن الغراب وكان يمشي مشيه
فيما مضى من سالف الأجيال
حسد القطاة ورام يمشي مشيه
فأصابه ضرب من العقال
فأضله مشيته وأخطأ مشيها
فلذاك سمّوه: أبا المرقال!

مقارنة لا ترحم

وقارن الشاعر إيليا أبوماضي بين «الغراب والبلبل»، في قصيدته التي تحمل اسمي هذين الطيرين، فكتب يقول:

قال الغراب وقد رأى كلف الورى
وهيامهم بالبلبل الصّدّاح
لم لا تهيم بي المسامع مثله
ما الفرق بين جناحه وجناحي؟
إني أشدّ قوى وأمضي مخلبا
فعلى م نام النّاس عن تمداحي؟
أمفرق الأحباب عن أحبابهم
ومكدّر اللذّات والأفراح
كم في السّوائل من شبيه للطّلا
فعلى م ليس لها مقام الرّاح؟
ليس الخطوط من الجسوم وشكلها
السرّ كلّ السرّ في الأرواح
والصّوت من نعم السّما ولم تكن
ترضى السّما إلاّ عن الصدّاحِ
حكّم القضاء فإن نقمت على القضا
فاضرب بعنقك مدية الجراحِ



قارن الشاعر إيليا أبوماضي بين «الغراب والبلبل»

حتى العاشقين كرهوه

ومن المدهش أن الصورة النمطية للشاعر العاشق المنفتح على حبّ الدنيا بكل ما فيها، تتبدد تماماً عندما يتعلّق الأمر بالغراب.

فمن أقسى ما تعرَّض له الغراب من قدح في الشعر العربي أتى، وللمفارقة، على لسان الشاعر قيس بن الملوَّح، مجنون ليلى، شاعر الغزل الأول في زمانه، الذي فاض بـ «الكراهية» لهذا الطير في قصيدة يقول فيها:

ألا يا غراب البين هيجت لوعتي
فَوَيْحَكَ خَبِّرْنِي بِمَا أَنْتَ تَصْرُخُ
أبالْبَيْنِ مِنْ لَيْلَى؛ فإنْ كُنْتَ صَادِقاً
فَلا زَالَ عَظْمٌ مِنْ جَنَاحِكَ يُفْسَخُ
ولازال رام فيك فوق سهمه
فَلا أنْتَ في عُشٍّ وَلاَ أَنْتَ تُفْرِخُ
وَلاَ زِلْتَ عَنْ عَذْبِ الْمِيَاهِ مُنَفَّراً
وَوَكْرُكَ مَهْدُوماً وبَيْضُكَ يُرْضَخُ
فإن طرت أردتك الحتوف وإن تقع
تقيض ثعبان بوجهك ينفخ
وعانيت قبل الموت لحمك مشدخا
على حَرِّ جَمْرِ النَّارِ يُشْوَى وَيُطْبَخُ
وَلاَ زِلْتَ فِي شَرِّ الْعَذَابِ مُخَلَّداً
وريشك منتوف ولحمك يشرخ



والغربي يجتمع إلى الشرقي عليه..

لا تختلف صورة الغراب في الآداب الغربية عمَّا ظهرت عليه عند الشعراء العرب. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تُحصى. غير أننا نتوقف هنا أمام واحدة من أشهر قصائد الشاعر الأمريكي إدغار ألان بو، رائد الرومانسية في القرن التاسع عشر، وهي بعنوان «الغراب»، وقد نُشرت للمرة الأولى عام 1845م.

تحكي القصيدة عن زيارة غراب مُتكلّم وغامض إلى عاشق مضطرب، يبكي على حبيبته «لينور»، بينما يجلس الغراب على تمثال لأثينا، ويؤجج مشاعر العاشق الحزينة بترديده لكلمة «لا عود».

ويمكن القول إن القصيدة تنسج إطاراً تأملياً أقرب ما يكون للصوفية الفكرية، حيث يطرح الشاعر الصراع الداخلي فيه بين أمل لُقيا حبيبته واليأس الذي ينثره الغراب عليه دون توقف. ويبدو أن هناك مشتركات بين مجنون ليلى ومجنون «لينور» الأمريكي حول الغراب، إذ أصبح الشماعة السوداء المثالية لكل الأحزان.

وتتلخَّص قصة شاعر مجنون ليلى الأمريكي، بالقول إن شخصاً مجهولاً يبدأ الحكاية وهو يقرأ كتاباً عن «المعارف المنسية» لنسيان حبه المفقود «لينور»، حين يسمع طرقاً على الباب ولكنه لا يجد أحداً عند فتحه. بعد ذلك يسمع طرقاً أعلى على النافذة، وعندما يذهب للتحقق من الطرق يُفاجأ بدخول غراب إلى غرفته، ويحط الغراب على تمثال لأثينا فوق باب الغرفة.

وهنا مقاطع من القصيدة الطويلة جداً:

قلت: يا أيها المتنبئ ! أيها الشرير، كائناً من كنت:
طيراً أو شيطاناً أو كاهناً..
سواء أرسلك الشيطان، أو قذفتك عاصفة الريح..
بائساً، وعنيداً فوق هذه القفار العجيبة
قذفتك إلى منزلي المملوء بالوحشة أتوسل إليك:
قل الحقيقة، واصدق في الخبر:
هل ثمة عطر في الأرض المقدسة ؟ أتوسل إليك:
قل الحقيقة واصدقني الخبر
قال الغراب: لا عود
(...)
صرخت فيه: هذا فراق بيني وبينك
أيها الطائر، أو أيها الشيطان
ارجع من حيث جئت، إلى العاصفة
أو إلى شواطئ الظلام..
لا تترك منك في هذا المكان أثراً،
ولا ريشة سوداء تذكر بإفكك المفترى..
(عد) ودعني لوحدتي، اترك التمثال فوق باب حجرتي
انتزع منقارك الذي غرسته في قلبي، وابتعد عني..
قال الغراب: لا عود
ومنذ تلك الليلة، مازال الغراب
مستقراً فوق التمثال على باب حجرتي
يشع من عينيه حلم شيطاني
بينما يمتد ضوء مصباحي على الأرض
ويمد ظله طويلاً على أرض غرفتي..
بينما تمتد روحي خارج دائرة الأسر
أبداً، لا عود



رسمة للفنان غستاف دوري لقصيدة الغراب

إدغار ألان بو

قصيدة تتذوق منها كما تتلمس وترى وتشم معاني ذلك الصراع المتدفق بين اليأس الذي يُنزله الغراب على رأس الشاعر بتلك الكلمة الرتيبة التي يكررها دون ملل «لا عود»، وبين بحث الشاعر عن بصيص أمل في زوايا غرفة قلبه المفطور على حبيبته «لينور».

يبدو أن صورة الغراب النمطية لا تُبارح أذهان السواد الأعظم من البشر عنه، لذا اتفق «بو» الأمريكي مع «ابن الملوّح» العربي في تناولهم للغراب في قصائدهم من نفس المنظار الأسود عنه. فهل هي مصادفة؟!

حكايات بألف لون ولون حول الأسود الواحد

الربط بين سواد الغراب وتميّز «نعيقه» عن تغريد العصافير من جهة، وما يكرهه الإنسان من جهة أخرى هو وليد ثقافة وتأمل وتفكير وعجز عن إيجاد أجوبة عن أسئلة تتحدَّى العقل، مثل ما قد يحمله الغيب، أو موعد الموت وما شابه ذلك. ولكن، ولحسن الحظ، ثمة مجالات يُعفى فيها الغراب من هذا الربط، ومنها حكايات كثيرة، نقول اليوم إنها للأطفال، علماً بأنها عندما كُتبت لم تكن موجهة خصيصاً للأطفال. وفي عديد من هذه الحكايا، تتلون صورة الغراب وفق الموعظة التي يُناط به إلقاؤها.

فقصة الغراب وجرَّة الماء تحكي عن غراب أصابه العطش وأخذ منه أيما مأخذ، حتى وجد ماءً قليلاً في أسفل جرة لا يستطيع الدخول إليها. فتوصَّل إلى حيلة





رسومات لغربان مقتطفة من كتاب كليلة ودمنة

جميلة وذكية، تقضي برمي الحجارة الصغيرة في الجرة ليرتفع الماء بحيث يتمكن من شربه. فالغراب هو إذن مجرد كائن ذكي في هذه الحكاية التي، وللعلم، وجدنا أنها مروية في أكثر ثقافة ولغة.

وفي قصص «كليلة ودمنة» التي كتبها الفيلسوف الهندي بيديا بناءً على طلب ملك اسمه «دبشليم»، وترجمها عبدالله بن المقفع إلى العربية في أيام الخلافة العباسية، يظهر الغراب حكيماً وواعظاً في حكايات عديدة منها: «قصة الغراب والثعبان الأسود وابن آوى»، و«قصة الغربان والبوم»..

وتحتل حكاية «الغراب والثعلب» مكانة خاصة بين الحكايا الشعرية التي كتبها الأديب الفرنسي جان دي لافونتين في القرن السابع عشر، وهي من الحكايا التي دخلت الكتب المدرسية في كثير من ثقافات العالم.

الحكاية هي ببساطة حول الثمن الذي يدفعه من يستمع إلى النفاق والمداهنة. ولهذه الغاية، اختار الأديب الغراب كصورة لقباحة الشكل والصوت.

فالثعلب الماكر عندما رأى الغراب يحمل قطعة من الجبنة في منقاره، راح يمتدحه بالقول:

«صباح الخير أيها المعلم غراب
كم أنت وسيم، وكم تبدو لي جميلاً
من دون كذب، إن كان غناؤك يشبه ريشك
فأنت فينيق المقيمين في هذه الغابة.
أمام هذه الكلمات، طار الغراب من الفرح
وللتباهي بصوته
فتح منقاره عريضاً، تاركاً غنيمته تسقط.
أمسك بها الثعلب، وقال: يا سيدي الطيب
اعلم أن كل مدَّاح
يعيش على حساب من يستمع إليه (...)».

ولكن رغم انطلاق الشاعر من كون الغراب صاحب أبشع لون وصوت من بين كل الحيوانات التي نسج حولها حكاياته، فإن الغراب في هذه الحكاية هو كائن بسيط يصدِّق كل ما يقال إليه.. بعبارة أخرى، إنه طيب القلب يستحق الشفقة.

رسمة هاريسن وير لحكاية «الغراب والثعلب» التي كتبها جان دي لافونتين

الغراب في السينما

تفعيلات مختلفة للأسود الواحد

شكَل اسم «الغراب» لوحده ومن دون أية إضافة أخرى، عناوين مجموعة كبيـرة من الأفلام السينمائية التي أُنتجت على امتداد القرن العشرين، وحتـى يومنا هذا. ومـا من قاسم مشتـرك بينها غير كونهـا كلها تدور بشكل أو بآخر حول الموت بأساليب متعددة.

فقـد شهد العام الجـاري 2013م، إطلاق فلم «الغـراب» الوثيق الصلة بقصيـدة الشاعر الأمريكـي إدغار ألان بو، التي أشرنـا إليها في مكان آخر مـن هذا الملف. والفِلـم الجديد الذي أخرجـه جيمس ماك تيغيو يـروي سلسلـة جرائم غامضة تقع فـي القرن التاسع عشـر، ويبدو أنها ارتكبـت بوحي من قصائد الشاعر، فيلجـأ المحققون إلى الاستعانة به لاكتشـاف مرتكبها. وقد اختير اسم «الغـراب» للفِلم، من باب استيحاء أشهر قصيدة للشاعر، مع ما يضيفه هذا الاسم من نذر الشر والموت.

وقبل ذلك، شهد العام 1994م إطلاق فلم بعنوان «الغراب»، مقتبس عن سلسلـة قصص مصوَّرة بنفس العنوان من تأليـف جيمس أوبار. وتدور عقـدة الفلم الذي تتسم أجـواؤه بالعنف والكآبـة والتشويق، حول شاب يتعرض مع خطيبته لاعتداء عصابة تتركهما ليموتا على قارعة الطريق، غيـر أن الغـراب ينقذ الشاب ويروح يساعده لاحقـاً على الانتقام، وقتل أفـراد العصابـة الواحد بعـد الآخر. وقد حصد هذا الفلـم نجاحاً دفع منتجيـه إلـى تحويلـه إلـى سلسلة أفـلام ومسلسـل تلفزيونـي. ودائماً بالعنوان نفسه.



مقتطف من سلسلة القصص المصوَرة «الغراب» من تأليف جيمس أوبار

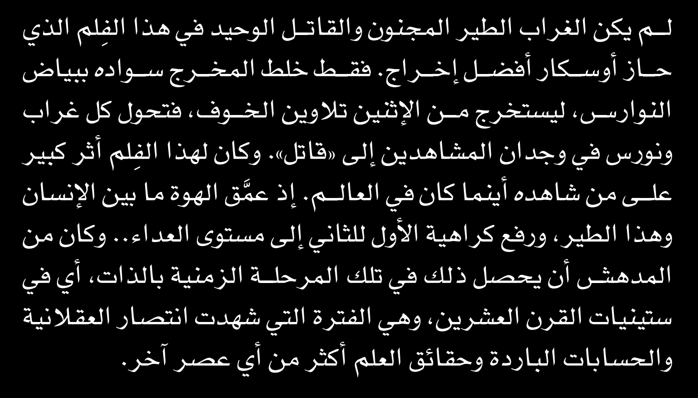


ملصق لفلم «الغراب» الوثيق الصلة بقصيدة الشاعر الأمريكي إدغار ألان بو



ولكن أقسى الأحكام على الغراب وأبشع صوره هي تلك التي يذكرها كل من شاهد فِلم «طيور» للمخرج العالمي ألفرد هيتشكوك.

فقد عُرض هذا الفِلم على شاشات السينما في العالم سنة 1963م، مستغلاً الصورة النمطية الكريهة للغراب، وليعزز هذه الكراهية حتى أقصى حدود ممكنة، من خلال حبكة تروي هجوم الطيور المتوحشة على بيوت السكان في إحدى ضواحي مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية من دون أي سبب واضح، إلى أن اكتشف العلماء أن طعام هذه الطيور كان يحتوي على مادة مثيرة للأعصاب أدت إلى تغير في سلوكها.





لم يكن الغراب الطير المجنون والقاتل الوحيد في هذا الفِلم الذي حاز أوسكار أفضل إخراج. فقط خلط المخرج سواده ببياض النوارس، ليستخرج من الإثنين تلاوين الخوف، فتحول كل غراب ونورس في وجدان المشاهدين إلى «قاتل». وكان لهذا الفِلم أثر كبير على من شاهده أينما كان في العالم. إذ عمَّق الهوة ما بين الإنسان وهذا الطير، ورفع كراهية الأول للثاني إلى مستوى العداء.. وكان من المدهش أن يحصل ذلك في تلك المرحلة الزمنية بالذات، أي في ستينيات القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت انتصار العقلانية والحسابات الباردة وحقائق العلم أكثر من أي عصر آخر.

مشاهد من فلم «طيور» للمخرج ألفرد هيتشكوك

الشؤم يطيح بالمخرج؟

وقبـل فِلم «طيـور» وغيره مـن الأفـلام الجديدة، حضر الغراب على شاشـة السينما بصورة رمزية للإشارة إلى أمر ما لا يسير على ما يرام، أكثر مما هـو حول الطير بحد ذاته. ومن أشهر هذه الأفلام واحد يعود إلى النصف الأول من القرن العشرين، يطيب لـذوي الميول السوداويـة أن يقولوا عنه إن اسم الفِلم كان نذير شؤم أطاح بمهنة المخرج.

ففي العـام 1943م، أي في خضم الحرب العالمية الثانية، أخرج الفرنسـي هنري-جورج كلوزو فِلمه الشهير «الغراب» المقتبس عن قصة حقيقية كانت قـد نُشرت قبل ثلاثـة عقود، وتـروي قصة طبيب قريـة فرنسي، يذهب ضحية رسائل غامضة تصل إلى وجهـاء القرية، وتتهمه بعـدد من الممارسات اللا أخلاقية.

واستخدام «الغراب» عنواناً للفِلم، هو للدلالة على نذيـر شؤم يحيط ببطل القصـة وما سيواجهه في هـذه القريـة. ولكن هناك من يـرى أن نذر الشؤم طاردت المخرج كلوزونفسه فور انتهاء الحرب.

فقـد تعرَّض الرجل لمضايقات اجتماعية وقانونية عديـدة، لأنـه أنتج الفِلـم خلال الحـرب لحساب شركة «كونتيننتال» التـي كان الألمان قد أسسوها غداة احتلالهم لفرنسا. وصدر حكم على المخرج بمنعه من مزاولـة أي عمل سينمائي مدى الحياة. وعلـى الرغـم مـن أن هـذا المنـع رُفع فـي العام 1947م، فـإن مسيـرة المخـرج السينمائية انتهت عملياً.



ملصق لفلم «الغراب» للمخرج الفرنسي هنري-جورج كلوزو

غربان جدة



اكتشـف مواطنـو مدينة جدة، قبـل سنوات، خصائـص الغراب وعرفـوا مقدار تفوقه على منافسيه من الطيور ما ينفي عنه صفة الغباء التي ألصقت به ظلماً. وباتت قصة غربان جدة واقعة معروفة ومتداولة فقد انتشرت بكثافة في سماء تلك المدينة وخاصة في شقها الساحلي، بل وطردت ما عداها من الطيور.

وبـدأ مـع انتشارها انتشار قصص كثيـرة عن تميزها وذاكرتها القويـة، وقدرتها على عقـاب من يؤذيها ومهاجمتـه. كما انتشرت قصص تدل علـى عبقريتها الابتكارية في التعامل مع المشاكل التي تواجهها مثل درجات الحرارة المرتفعة وذلك بحبس مخارج ميـاه المكيفات وتجميعه لتبترد فيها. ولكن الفضول والإعجاب البشري في جدة بهذا الكائن تحول بالتدريج إلى حذر من تكاثرها المتسارع.

ويشيـر تقريـر لأمانة جدة إلى أن عدد الغربان التي تـم القضاء عليها خلال 4 سنوات (2007 – 2011م) بلغ 4795 غرابا، فيما بلغت الأعشاش التى تمت إزالتها نحو 50667 عشاً. وقدرت الأمانة قبيل بدء القضاء عليها، بحوالي 60 الف غراب، لتصل إلى 13 ألفاً. وتلخصت الحملة في وضع طعوم مسمومة تأكلها الغربان فتقضي عليها خلال ساعات، والتقريـر يسرد صعوبات في مواجهتها ومنها قدرتها على تمييز الملابس الزرقاء التي يرتديهـا عمـال الأمانة حيث تبتعد عنهم لمعرفتها أنهم مـن عمال المكافحة مما حدا بهـم إلى رمـي الطعوم السامة والاختبـاء بعيداً أو في داخل السيـارات حتى تلتقطها، كما أن خفة حركة الغربان وقدرتها على التحفز الدائم لمصادر الخطر جعلها تتفادى الإصابـات المباشـرة وهي تعيش في جماعـات متعاونة حيث تبنـي أعشاشها بأحجام كبيرة، وترمم أعشاشها القديمة.



مصلحة مشتركة للشركات والعاملين





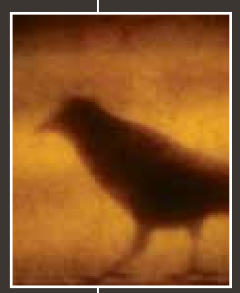


Qafilah website

القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
سبتمبر - أكتوبر 2013
المجلد 62 العدد 5

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com





Saudi Aramco website